٢١

دكتور
عبد الباسط محمد حسن
عميد كلية الدراسات الإنسانية
جامعة الأزهر

جمال الدين الأفغاني
وأثره في
العالم الإسلامي الحديث

يطلب من
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون ٩٣٧٤٧٠

الطبعة الأولى

ربيع الآخر سنة ١٤٠٢ هـ
فبراير سنة ١٩٨٢ م

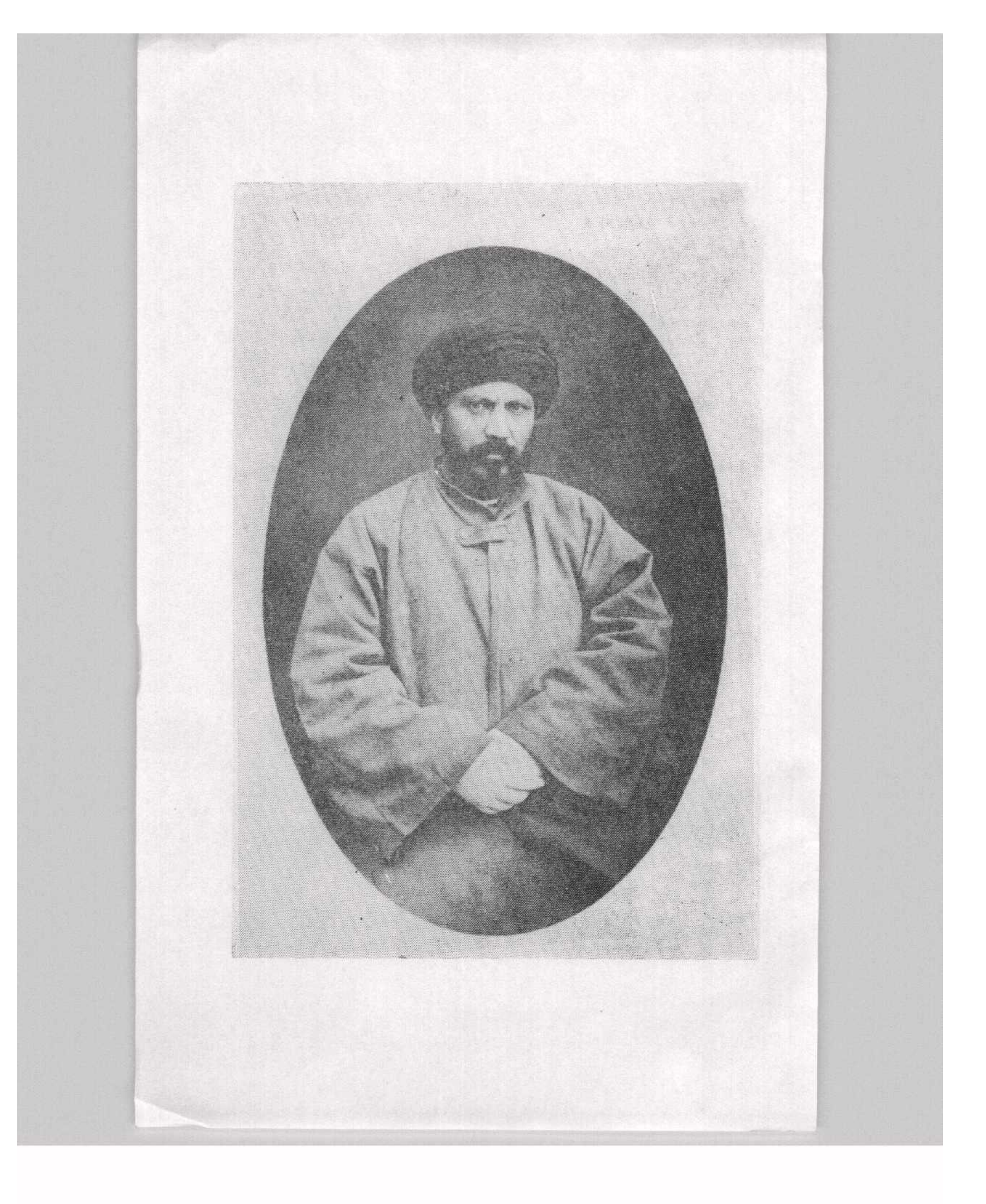
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ
فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ
وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً .

صدق الله العظيم

الأحزاب - ٢٣







بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

يذهب بعض المفكرين الاجتماعيين إلى أن للزعماء والقادة والمصلحين دوراً بارزاً فى تغيير المجتمع ، وتشكيل أحداث التاريخ . ويزخر الفكر السوسيولوجى بنظريات متعددة تتحدث عن دور « الصفوة Elite » — التى تتمتع بخصائص سيكلوجية أو عقلية أوتنظيمية — فى التأثير فى الجماهير ، وتشكيل اتجاهات الرأى العام ، والسيطرة على زمام الحكم فى المجتمع .

كما تتحدث نظريات أخرى عن الخصائص « الكاريزمية Charismatic » التى يتمتع بها الزعماء الموهوبون ، الذين يهيئهم القدر لمجتمعاتهم ، والذين يقوم نفوذهم على اعتقاد عام عند الناس بأن روحهم من روح الله ، وبأن ما يؤدونه من أعمال وخدمات إنما تتم بوحى من الله .

ويذهب فريق آخر من المفكرين إلى أن ظواهر المجتمع البشرى ، ووقائع التاريخ الإنسانى ، محكومة بقوانين موضوعية ، وأن التغيرات التى تطرأ عليها مرتبطة بهذه القوانين التى تحكم مسارها ، وتحدد مصيرها ، وأن دور القادة أو الزعماء قاصر على التعجيل بإحداث التغيير فى الطريق المحدد والمرسوم .

والواقع أن الزعماء والقادة لا يخلقون المجتمعات خلقاً ، ولا يأتون بجديد كل الجدة ، وإنما يظهرون فى مرحلة تتطلب ظهورهم ، فيتأثرون بالظروف الموضوعية المحيطة بهم ، وينفعلون بالأحداث التى تدور فى مجتمعاتهم ، فيتجاوبون معها ، ثم يؤثرون فيها بدورهم ، بفضل ما يتمتعون به من قدرات خاصة وعناصر شخصية قوامها قوة الشخصية ، والقدرة على الدفع والتوجيه ، وقوة الإرادة ، والثقة بالنفس ، وإنكار الذات ، والفهم للأفكار السائدة فى المجتمع .

من هذا المنطلق نستطيع أن نقول إنه لا يمكن أن نتفهم حقيقة الدور الذى يقوم به أى زعيم أو مصلح أو قائد إلا إذا أخذنا فى الاعتبار الصفات

الشخصية التي يتميز بها ، والظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية التي يعيش في ظلها ، والمرحلة التاريخية التي يظهر فيها .

* * *

وإذا طبقنا هذا القول على « السيد جمال الدين الأفغانى » ، فإننا نجد أنه كان يتمتع بخصائص شخصية تؤهله للزعامة فى المجالات السياسية والدينية والفكرية . فقد وصفه الشيخ محمد عبده بأنه « رجل بصير فى الدين ، عارف بأحوال الأمم ، واسع الاطلاع ، جم التعارف ، جرىء القلب واللسان » (١) أما أخلاقه « فسلامة القلب سائدة فى صفاته ، وله حلم عظيم يسع ما شاء الله أن يسع ، إلى أن يدنو منه أحد ليمس شرفه أو دينه ، فينقلب الحلم إلى غضب ، تنقض منه الشهب. فبينما هو حليم أواب ، إذا هو أسد وثاب .

وهو كريم يبذل ما بيده ، قوى الاعتماد على الله ، لا يبالى ما تأتى به صروف الدهر ، عظيم الأمانة ، سهل لمن لاينه ، صعب على من خاشنه ، طموح إلى مقصده السياسى ، إذا لاحت له بارقة منه ، تعجل السير للوصول إليه . . . وهو قليل الحرص على الدنيا ، بعيد عن الغرور بزخارفها ، ولوع بعظائم الأمور ، عزوف عن صغارها ، شجاع مقدام ، لا يهاب الموت كأنه لا يعرفه » (٢) .

« أما منزلته من العلم وغزارة المعارف ، فليس يحدها قلمى إلا بنوع من الإشارة إليها . لهذا الرجل سلطة على دقائق المعانى وتحديدها وإبرازها فى صورها اللائقة بها . كأن كل معنى قد خلق له . وله قوة فى حل ما يعضل منها ، كأنه سلطان شديد البطش . فنظرة منه تفكك عقدها . . . وله لسن فى الجدل ، وحذق فى صناعة الحجة لا يلحقه فيهما أحد إلا أن يكون فى الناس من لا نعرفه .

---

(١) الشيخ محمد عبده : الثائر الإسلامى ، جمال الدين الأفغانى ، كتاب الهلال ، العدد ٢٧٤ ، أكتوبر ١٩٧٣ ، ص ٨ .

(٢) نفس المرجع : ص ٢٩ .

وكفاك شاهداً على ذلك أنه ما خاصمه أحد إلا خصمه ، ولا جادله عالم إلا ألزمه ، وقد اعترف له الأوروبيون بذلك بعد ما أقر له الشرقيون .

وبالجملة فإنى لو قلت إن ما آتاه الله من قوة الذهن ، وسعة العقل ، ونفوذ البصيرة ، هو أقصى ما قدر لغير الأنبياء لكنت غير مبالغ . . . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » (١) .

ووصفه رينان بقوله :

« تعرفت بالشيخ جمال الدين ، فوقع فى نفسى منه ما لم يقع لى إلا من القليلين ، وأثر فى نفسى تأثيراً قوياً ، والشيخ جمال الدين نفسه خير دليل يمكن أن نسوقه على تلك النظرية العظيمة التى طالما أعلناها وهى أن قيمة الأديان بقيمة من يعتنقها من الأجناس. وقد خيُل إلىّ من حرية فكره ونبالة شيمه وصراحته وأنا أتحدث إليه ، أنى أرى أحد معارفى من القدماء وجهاً لوجه ، وأنى أشهد ابن سينا أو ابن رشد » (٢) .

وإذا كانت بعض نظريات القيادة تتحدث عن السمات التى يتميز بها القائد أو الزعيم ، فإن بعضاً من السمات الشخصية والعقلية والخلقية — التى ذكرها كل من الشيخ محمد عبده ورينان عن السيد جمال الدين الأفغانى — كفيلة بأن تجعل منه قائداً متميزاً فى أكثر من ميدان ، ولذلك فليس من المستغرب أن يقول عنه الأستاذ عبد الرحمن الرافعى :

« جمع جمال الدين الأفغانى بين الزعامات الروحية ، والفكرية والسياسية ، واضطلع بها معاً . . . والذى يجمع بين هذه المهام الجليلة ، ويضطلع بها معاً ، فى عهد اشتد فيه ظلام الجهالة ، وتفرقت الكلمة ، وعز النصير ، وتشعبت الأهواء ، يجب أن يتسامى فى قوة النفس والفكر والوجدان، إلى مراتب العبقرية » . (٣) .

---

(١) نفس المرجع : ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) Osman Amin : Muhammad Abduh, Essai Sur Ses I dèes Philosophique et Religieuses, Le Caire, 1944, P. 5.

(٣) عبد الرحمن الرافعى : جمال الدين الأفغانى ، باعث نهضة الشرق ، سلسلة أعلام العرب ، العدد ٦١ ، ١٩٦٦ ، ص ٤ .

أما عن الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى عاش فى ظلها ، والمرحلة التاريخية التى ظهر فيها ، فيكفى أن نشير إلى أن « السيد جمال الدين الأفغانى » ظهر فى عصر ضعفت فيه الدولة العثمانية ، وتعقدت فيه المصالح بين الشرق والغرب . وبعد أن كانت السياسة الأوروبية قائمة على الدفاع عن الدولة العثمانية كقوة ضرورية لحفظ التوازن الدولى فى بداية القرن التاسع عشر ، أصبحت فى السنوات الأخيرة منه قائمة على تمزيق أوصالها ، والاستيلاء على أجزائها الواحدة بعد الأخرى .

ولذا أخذ الضغط الأوروبى يشتد ويقوى ويتحول من ضغط إلى نفوذ فعلى ، واحتلال عسكرى . فاحتلت انجلترا جزيرة قبرص سنة ١٨٧٨ م ، واستولت فرنسا على تونس سنة ١٨٨١ م ، ودخلت القوات الإنجليزية مصر سنة ١٨٨٢ م ، وأضحى النفوذ الأوروبى يحيط بقلب العالم الإسلامى .
كانت الشعوب الإسلامية ترى هذا الخطر الذى يتهددها من جانب الدول الأوروبية ، ورأت كل منها مصيرها المحتوم ، فكان من الطبيعى أن تتجه هذه الشعوب نحو الدعوة إلى التضامن ضد هذا الخطر لتكون كما قال جمال الدين الأفغانى « كحلقة فى سلسلة واحدة إذا اهتز أحد أطرافها ، اضطرب لهزته الطرف الآخر » (١) .

فهذه الظروف التى أحاطت بالعالم الإسلامى ، والمحن التى توالت عليه ، ساعدت جمال الدين على أداء رسالته ، وجعلت الناس يحلمون بالوحدة الإسلامية ، وعصر الإسلام الذهبى ، وكان من نتائجها إيقاظ الشعور بالوحدة الإسلامية وتقويته إلى حد لم يسبق له مثيل فى ذلك الحين .

ولم تكن دعوة جمال الدين إلى توحيد العالم الإسلامى ، وتخليصه من التبعية الأجنبية ، وتحريره من الجمود الفكرى ، والتعصب المذهبى هى الأولى من نوعها ، وإنما سبقتها حركات إصلاحية تجاوبت بها أرجاء العالم الإسلامى خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وتمثلت فيما قام به

(١) جمال الدين الأفغانى : العروة الوثقى ، المكتبة الأهلية فى بيروت ، ١٩٣٣ م ، ص ٩٤ .

محمد بن عبد الوهاب فى الجزيرة العربية ، والإمام الشوكانى فى اليمن ، والسنوسى فى ليبيا ، وخير الدين باشا فى تونس ، ومدحت باشا فى تركيا ، وملكم خان فى إيران ، والسيد أحمد خان والسيد أمير على فى الهند .
ولذلك فإن دعوة جمال الدين تعتبر امتداداً لما سبقها من دعوات وإن كانت قد تميزت عنها بأنها لم تكن محدودة ببلد إسلامى معين ، كما أنها كانت حركة شرقية إسلامية ، فيها اتجاه للغرب ولكن فى إيمان بالشرق وتراثه وتقاليده ، أى أنها كانت تجمع بين ما نسميه فى الوقت الحاضر بالأصالة والمعاصرة .

* * *

أثارت شخصية السيد جمال الدين الأفغانى وحركته الإصلاحية اهتمام المفكرين الغربيين ، فوجهوا جهودهم إلى الكشف عن كثير من جوانب شخصيته ، وتحليل الظروف الموضوعية التى أثرت عليه ، وتحديد الدور الذى قام به فى مجالات السياسة والدين والأدب ؛ نذكر من بين هؤلاء « لوثروب ستودارد Lothrop Stoddard » . (١) و « تشارلز آدمز Charles Adams » ، (٢) و « جورج أنطونيوس G. Antonius» (٣) و « إيلى قدورى Elie Kadourie »(٤)و « نيازى بيرك Niyazi Berkes » (٥) و « سيلفيا حايم Sylvia Haim »(٦) و«ألبرت حورانى Albert Hourani»(٧)

(١) Lothrop Stoddard : Le Nouveau Monde de L' Islam, Traduit de L' Anglais par Abel Doysie, Paris, 1933.

(٢) Charles Adams, Islam and Modernism in Egypt, Oxford University, 1933.

(٣) George Antonius, the Arab Awakening, London, 1938.

(٤) Elie Kedourie, Afghani and, Abduh : An Essay on Religious Unbelief and Political Activism in Modern Islam, Londor, 1966.

(٥) Niyazi Berkes, The Development of Secularism in Turkey, Montreal, 1964.

(٦) Sylsvia Haim, Arab Nationalism, Berkeley and Los Angeles, 1962.

(٧) Albert Hourani, Arabic Thought in the Liberal Age : 1798—1939, London, 1962.

و « نيكى كيدى Nikki Keddie » (١) . كما تقدم عدد من الباحثين فى الغرب برسائل للماجستير والدكتوراة عن أثره فى مصر (٢) وعن حركته الإصلاحية وعلاقتها بحركات التجديد فى الإسلام (٣) ، إلى غير ذلك من موضوعات .

وفى الوقت الذى أثارت فيه حركة جمال الدين الإصلاحية اهتمام الباحثين الغربيين ، فإنها لم تلق من عناية الباحثين العرب والمسلمين عموماً ما تستحقه من عناية واهتمام. وكثير من الكتب التى صدرت عن جمال الدين باللغة العربية ليست إلا ترجمات موجزة لحياته ، لم يهتم مؤلفوها بتتبع العلاقة بين حركته الإصلاحية وبين غيرها من الحركات التى قامت فى بلاد العالم الإسلامى والتى كان لها تأثير فى تفكيره واتجاهاته :

ولقد حاولت فى هذا الكتاب أن أعرض لحياة السيد جمال الدين الأفغانى ولدعوته الإصلاحية بطريقة تحليلية ، وبصورة متكاملة .

فبدأت فى الفصل الأول بترجمة حياته ، وعرضت لكثير من المسائل التى ما تزال موضع اختلاف بين الباحثين . **ومن أهم هذه المسائل الخلافية ما يتصل بأصله ونشأته . فمن الباحثين من يعتبره إيرانى الأصل ، أفغانى النشأة ، ومنهم من يعتبره أفغانى الأصلى والنشأة . وقد تمسك الإيرانيون والعراقيون وكثير من الباحثين الغربيين**

---

(١) Nikki Keddie, Sayyid Jamal ad-Din "al Afghani" : A political biography, Los Angeles, 1972.

(٢) Albert Kudsi - Zadeh, "The Legacy of Sayyid Jamal ad - Din al - Afghani in Egypt", unpublished ph. D. dissertation, Indiana University, 1968.

(٣) Sharif al Mujahid, "Sayyid Jamal al-Din al-Afghani : His Role in the Nineteenth Century Muslim Awakening, unpublished M.A. thesis, Mc Gill University, Montreal, 1954.

المعاصرين بالرأى الأول ، وزعموا أنه أراد أن يعرف بنسبه الأفغانى لأمر هام يتعلق برسالته الإصلاحية الكبرى . فقد أراد جمال الدين نشر هذه الرسالة فى أقطار إسلامية سنية المذهب،ولم يكن من العوامل المؤاتية لنجاحها صدورها عن عالم شيعى النزعة . ولما كان مذهب السنة هو الشائع فى بلاد الأفغان بينما يسود المذهب الشيعى بلاد إيران ، فقد أراد جمال الدين — على حد قولهم — أن يعرف بنسبه الأفغانى ، فرجعت إلى كتابات جمال الدين ، وما كتبه عنه تلامذته ومعاصروه ، وناقشت مختلف الآراء ، واستطعت الوصول إلى ما يؤيد نسبه الأفغانى .

ثم قسمت حياة جمال الدين بعد ذلك إلى ثلاث فترات متميزة لكل منها خصائصها الواضحة . ففى الفترة الأولى من حياته ، وهى مرحلة الإعداد والتكوين ، كانت هناك عوامل كثيرة أثرت فى تشكيل شخصيته ، وتكوين اتجاهاته ؛ وفى الفترة الثانية ، كانت شخصيته العلمية أكثر وضوحاً من شخصيته السياسية ؛ وفى الفترة الثالثة ، انتقل جمال الدين الأفغانى بدعوته من الحيز الضيق إلى الميدان الدولى ، ولم تعد رسالته قاصرة على بلد معين ، وإنما جعل العالم الإسلامى كله ميداناً لكفاحه وجهاده ، فظهرت دعوته إلى الجامعة الإسلامية التى كان لها أكبر الأثر فى تاريخ العالم الإسلامى الحديث .

وقد اعتمدت فى ترجمتى لحياة جمال الدين على ما كتبه عن نفسه فى كتاب « الخاطرات » ، وما كتبه الشيخ محمد عبده فى مقدمة « الرد على الدهريين » ، بالإضافة إلى ما كتبه عنه تلامذته ومريدوه ، وكذلك الأشخاص الذين اتصلوا به عن قرب ، وكتبوا ترجمات دقيقة لحياته .

ثم انتقلت فى الفصل الثانى إلى بيان الأثر الذى أحدثه جمال الدين الأفغانى فى بلاد العالم الإسلامى ، والذى يتجلى **فى الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ، وإلى إثارة الوعى القومى فى مختلف البلاد الإسلامية . ولم يكن هناك تعارض بين الدعوتين ، إذ أنه كان ينشد من دعوته إلى الجامعة الإسلامية أن تقوم فى الشرق أمم ناهضة قوية تستمد**

قوتها من مقوماتها القومية ، وترتبط جميعاً فى نطاق الوحدة الإسلامية ، كما أن الوعى القومى كان فى بدايته عاماً لا يخرج عن نطاق التفكير الإسلامى فى شكل الدولة الإسلامية العامة التى تجمع المسلمين فى رباط واحد من الصلات والأهداف والاتجاهات ، وإن كانت لا تنكر أن تأخذ بمظاهر الدولة الحديثة فى الحكم والإدارة .

وقد حاولت فى دراستى للجامعة الإسلامية أن أوجد العلاقة بين حركة جمال الدين الإصلاحية وغيرها من الحركات التى تجاوبت بها أرجاء العالم الإسلامى . فقد ظهرت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حركات إصلاحية متعددة أهمها الدعوة الوهابية والسنوسية والمهدية ، كما قام كثيرون من رواد الإصلاح ودعاته من أمثال السيد أحمد خان ، والسيد أمير على فى الهند ؛ ومدحت باشا فى تركيا ، وخير الدين باشا فى تونس ؛ وملكم خان فى إيران . وكان العصر عصر مطالبة بالحقوق الدستورية إلى جانب الحقوق السياسية ؛ فقسمت مراحل تطور العالم الإسلامى إلى أدوار ثلاثة أطلقت عليها « **اليقظة الإسلامية** » ، و « **النهضة الإسلامية** » ، و « **الجامعة الإسلامية** » .

واعتمدت فى هذا التقسيم — إلى حد ما — على ما كتبه « لوثروب ستودارد » فى كتابه « حاضر العالم الإسلامى » ، غير أن مؤلف الكتاب لم يهتم بحركة جمال الدين الاهتمام الكافى .

وهناك ناحية أخرى وجدتها جديرة بالدراسة والبحث ، ذلك أن معظم الباحثين اعتقدوا أن جمال الدين الأفغانى كان يدعو إلى الجامعة الإسلامية تحت زعامة السلطان عبد الحميد الثانى ، فرجعت إلى مقالات جمال الدين فى العروة الوثقى والخاطرات ، وقرأتها قراءة تحليلية وفقاً لترتيبها الزمنى ، فوجدت أنه كان فى أول أمره ينادى بأن تكون الجامعة الإسلامية تحت إمرة خليفة واحد دون أن يهتم بشخص ذلك الخليفة ، إيرانياً كان أو أفغانياً ، تركياً كان أو مصرياً . ثم اتجهت آماله نحو إيران ، وكان يرى فيها بعثاً جديداً للعالم الإسلامى .

وفى الفترة الأخيرة من حياته ، حينما ذهب إلى تركيا ، وأصبح محاطاً بجواسيس السلطان ، اضطر إلى مبايعة السلطان عبد الحميد بالخلافة ، إلا أنه طالبه بنشر الثقافة العربية ، واللغة العربية فى تركيا لتكون له الزعامة على البلاد الإسلامية ، كما عرض عليه ألا يأخذ بنظام المركزية فى الحكم ، وألا يجعل جميع ولايات الدولة خاضعة للسلطان خضوعاً مباشراً ، فلم يوافق السلطان على اقتراحاته .

ومما هو جدير بالذكر أن السيد جمال الدين الأفغانى كان يفرق بين الدولة العثمانية وشخص السلطان عبد الحميد ، فهو يؤمن بأن تركيا أقوى دولة فى العالم الإسلامى ، وفى استطاعتها إحياء الخلافة الإسلامية ، إلا أنه فى نفس الوقت لم يرض أن تكون الجامعة أداة يسخرها السلطان عبد الحميد لتحقيق أغراضه .

وفى ختام هذا الفصل حاولت أن أحدد مختلف العوامل التى وقفت فى سبيل دعوة جمال الدين إلى الجامعة الإسلامية ، وحالت بينه وبين تحقيق آماله فى الوحدة الإسلامية . وقد تناول هذا الموضوع بالبحث كل من « جب Gibb » فى كتابه « مستقبل الإسلام » ، و « جورج أنطونيوس G. Antoniu » فى كتابه « يقظة العرب » ، غير أن مؤلف الكتاب الأول اهتم بالنواحى العامة لحركة الجامعة الإسلامية أكثر من اهتمامه بحركة جمال الدين الأفغانى ، كما أن مؤلف الكتاب الثانى اهتم بتتبع نشوء الوعى القومى فى البلاد العربية أكثر من اهتمامه بتحليل التيارات المختلفة التى كانت تتنازع العالم الإسلامى ، والتى وقفت فى طريق دعوة جمال الدين إلى الجامعة الإسلامية .

وفى الفصل الثالث عرضت للدور الذى قام به جمال الدين فى إيران ، وأوضحت أن رسالته الإصلاحية كانت تتلخص فى مقاومة الحكم المطلق والمطالبة بالحكم الدستورى ، ومقاومة التدخل الأجنبى وإثارة الوعى القومى ، ثم دعوة الإيرانيين إلى الاتحاد مع الأفغانيين ، وقد استفدت إلى حد كبير بما كتبه عنه « مستر براون Browne » و « الدكتور فيفرير Feuvrier » ،

وكان أولهما صديقاً للسيد جمال الدين والشيخ محمد عبده . . زار إيران واستقر فيها فترة من الزمن ، وله كتاب قيم عن « الثورة الفارسية » . كما كان الدكتور « فيفريير » طبيباً خاصاً للشاه ناصر الدين ، استقدمه الشاه من باريس فى الوقت الذى ذهب فيه جمال الدين إلى إيران للمرة الثالثة ، واستطاع أن يدوّن كثيراً من الأحداث التى حلّت بالبلاد خلال إقامته بها ، ونشرها بالفرنسية فى كتاب بعنوان « ثلاث سنوات فى بلاط فارس » ، ولذلك كانت كتاباتهما خير ما يمكن الرجوع إليه .

كما رجعت إلى الكتاب الذى بعث به جمال الدين إلى كبير المجتهدين فى إيران يدعوه إلى مقاومة « الشاه ناصر الدين » ، وإلى مقالين آخرين كتبهما جمال الدين عن إيران ، ونشرا بكتاب « تاريخ الأستاذ الإمام » ومقال نشره جمال الدين فى العروة الوثقى يدعو فيه الأفغانيين إلى الاتحاد مع الإيرانيين . وتعتبر هذه المقالات وثائق هامة لا غنى للباحث فى تاريخ جمال الدين وحركته الإصلاحية من الرجوع إليها .

وفى الفصل الرابع عرضت للدور الذى قام به فى مصر سواء فى المجال السياسى أو الأدبى أو الدينى ، وآثرت الرجوع إلى كتاباته فى الجرائد المختلفة التى كانت تصدر فى ذلك الحين وأهمها جريدة مصر ، والتجارة ، ومرآة الشرق ، والوقائع المصرية ، وقد اطلعت عليها بقسم الدوريات فى محفوظات دار الكتب بالقاهرة . ووجدت عدة مقالات وخطب للسيد جمال الدين لم يسبق نشرها فى أى كتاب ، فجمعتها وجعلتها ملاحق للكتاب ليرجع إليها من أراد الاستزادة .

كما عثرت فى جريدة مصر الصادرة بتاريخ ٢٧ يونيو سنة ١٨٧٩ م على حديث للسيد جمال الدين مع قنصل فرنسا الجنرال — المسيو تريكو — يطلب منه التدخل لعزل الخديو إسماعيل ، فوعده المسيو تريكو بأن التنازل أصبح أمراً مقرراً وشيك الحصول . وقد ضمنت الكتاب نص الحديث الذى دار بين الطرفين عند مناقشة الدور السياسى للسيد جمال الدين ، وجهوده فى مقاومة الحكم المطلق .

ولما كان السيد جمال الدين الأفغانى صاحب رسالة إصلاحية متعددة الأبعاد والاتجاهات ، فقد وُجد له تلامذة ومريدون فى مصر والشام وإيران والهند ؛ منهم من حضر مجالسه ، واستمع إلى دروسه ، وتلقى عنه آراءه ومبادئه بطريق مباشر ، ومنهم من لم يحضر مجالسه ، وإنما تأثر بتعاليمه ، واهتدى بآرائه ، وسار فى نفس الاتجاه الذى كان يسير فيه . ولذلك حاولت فى الفصل الخامس من الكتاب أن أشير إلى تلامذة جمال الدين الأفغانى ، محدداً مدى تأثرهم به ، واستفادتهم بآرائه .

كما عرضت لمؤلفاته والتى هى عبارة عن كتابين فقط هما : « الرد على الدهريين » ، و « تتمة البيان فى تاريخ الأفغان » ، بالإضافة إلى عدد كبير من المقالات التى نشرت فى الجرائد المصرية ، وفى جريدة « العروة الوثقى » . وقد جمعت مقالات العروة الوثقى فى كتاب واحد طبع فى بيروت ، كما قام السيد رشيد رضا فى كتابه « تاريخ الأستاذ الإمام » ، والمخزومى فى كتابه « خاطرات جمال الدين » بجمع كثير من مقالاته وأحاديثه ، ثم قام « محمد عمارة » بنشر الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى مع دراسة عن حياته وآثاره .

ثم أنهيت الكتاب بخاتمة عن جمال الدين فى نظر التاريخ ، تناقش بعض ما وجه إليه من نقد يتعلق بشخصيته ، وتدينه ، وأسلوبه فى الدعوة .

وليس من شك فى أن حياة جمال الدين كانت فى منتهى الخصوبة والثراء، كما كانت حركته الإصلاحية متعددة الأبعاد والاتجاهات،ولذلك فإن أى باحث فى هذا المجال لن يستطيع الإحاطة بكل جوانب حياته الشخصية ، ورسالته الإصلاحية .

وحسبى أن أكون قد وفقت — بقدر ما وسعنى من وقت وجهد — فى دراسة وعرض الموضوعات التى تناولتها فى هذا الكتاب ، وأن أكون قد قدمت إضافة جديدة فى هذا المجال . وآمل أن يرسل إلى القراء بملاحظاتهم لتكون موضع النظر والاعتبار عند إعادة طبع الكتاب ، والله ولى التوفيق .

القاهرة فبراير ١٩٨٢ — عبد الباسط محمد حسن



الفصل الأول

نشأته وحياته

١٢٥٤ - ١٣١٥هـ
١٨٣٨ - ١٨٩٧م



نشأته وحياته

اختلفت آراء المؤرخين حول نشأة السيد جمال الدين الأفغانى ، فمنهم من يعتبره إيرانى الأصل ، أفغانى النشأة ، ومنهم من يعتبره أفغانى الأصل والنشأة .

ويرى أصحاب الرأى الأول أنه ولد فى قرية « أسد آباد » بالقرب من « همدان » بإيران ، ولذلك يطلقون عليه « جمال الدين الأسد آبادى » المعروف بالأفغانى .

ويرى الآخرون أنه ولد فى قرية « أسعد آباد » بالقرب من « كنر » من أعمال « كابل » عاصمة الأفغان .

ولقد تمسك أهل الشيعة من الإيرانيين والعراقيين بالرأى الأول ،وزعموا أنه أراد أن يعرف بنسبه الأفغانى لأمر هام يتعلق برسالته الإصلاحية الكبرى ، فقد أراد جمال الدين نشر هذه الرسالة فى أقطار إسلامية سنية المذهب ، ولم يكن من العوامل المؤاتية لنجاحها صدورها عن زعيم شيعى النزعة ؛ ولما كان مذهب السنة هو الشائع فى الأفغان ، بينما يسود المذهب الشيعى بلاد إيران ، فقد أراد جمال الدين أن ينسب إلى الأفغانيين (١) .

أما السنيون فقد تمسكوا بالرأى الثانى ، وزعموا أنه كان أفغانى الأصل ، سنى المذهب ، واعتمدوا فى ذلك على رأى تلميذه وشريكه فى النفى والاضطهاد « الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده » .

وبذلك لم يعد الاختلاف قاصراً على تعيين موطنه الأصلى ، وإنما تعداه إلى اختلاف آخر حول مذهبه الطائفى .

فما حقيقة نسب السيد جمال الدين ؟ أكان أفغانياً حقاً كما عُرف بين الناس ؟ أم إيرانياً كما زعم أهل الشيعة ؟ وما علة هذا الاختلاف حول نسبه ونشأته ؟ وهل لذلك علاقة بدعوته السياسية ؟ .

❋ ❋ ❋

يرى أصحاب الرأى الأول أن السيد جمال الدين إيرانى الأصل ، شيعى المذهب . وقد تواترت رواياتهم مؤيدة هذا الرأى . ويؤكد الأستاذ

(١) E. G. Browne : The Persian Revolution, Cambridge, 1910, pp. 3'4.

« عبد الكريم الدجيلي العراقي » أنه ولد في قرية « أسد آباد » . وهي قرية صغيرة تقع بين همذان وكنكادر على ضفاف نهر الوند . وفي هذه القرية اليوم ، تقوم مدرسة اسمها المدرسة « الجمالية » أنشئت تخليداً لذكراه ، وبها أقاربه ومن يتصل به بصلة نسب (١). ويعرف صاحب هذا الرأي أرحاماً له يقيمون الآن في النجف ، ولهم صلة رحم وقرابة في أسد آباد .

ويقول الأستاذ قدري قلعجي :

« حدثنا صديقنا الشاعر العراقي الكبير الأستاذ أحمد الصافي النجفي أنه لما لجأ إلى طهران خلال الثورة العراقية الأولى ، التي انتهت بتتويج الملك فيصل على العراق سنة ١٩١٩ م ، نزل في دار الحاج حسين أغا بن الحاج محمد حسين أغا الذي كان يعرف بأمين الضرب ، أي أمين صك النقود . وكان بيته ملجأ للثوار العراقيين اللاجئين إلى إيران ، ومنهم الميرزا محمد رضا ابن المجتهد الأكبر « الميرزا أحمد رضا الشيرازي » الذي أفتى بمحاربة الإنجليز في الثورة العراقية الأولى . وقد أخبره مضيفه أن السيد جمال الدين كان قد أقام في ضيافة أبيه حين قدم إلى إيران سنة ونصف السنة . وكان هو يومذاك شاباً ، فدرس عليه العربية . وهو ما يزال يحتفظ بالنصوص التي كان يترجمها له السيد جمال الدين من الفارسية إلى العربية أو بالعكس . وقد أكد الحاج حسين أغا للأستاذ الصافي خلال ذلك الحديث أن السيد جمال الدين فارسي الأصل ، وهو من قرية أسد آباد ، وأسرته معروفة هناك » (٢)

ويقول الأستاذ قلعجي :

وقد أردت أن أتحقق من هذا خلال رحلة قمت بها إلى إيران في خريف سنة ١٩٥١ م ، فإذا الإيرانيون مجمعون على أن السيد جمال الدين إيراني

---

(١) عبد الكريم الدجيلي : مجلة الرسالة ، السنة الحادية عشرة ، ص ٤٦٠ . وقد نشر مقالا آخر يؤكد فيه نسبه الإيراني بجريدة الرأي العام العراقية « كانون الأول ١٩٤٤ »

(٢) قدري قلعجي : جمال الدين الأفغاني ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٥٢ ، ص ٢٤ .

عريق (١) . وتعرفت فى أسد آباد على أناس يؤكدون أنهم من أسرته ، ويسمى واحدهم « جمالى » نسبة إلى السيد جمال الدين .

ويشير الأستاذ محمد صبيح (٢) ، كما تشير « نيكى كيدى » (٣) إلى أنه ظهر أخيراً كتاب ضمنه ناشروه مجموعة كبيرة من الرسائل والوثائق كانت موجودة لدى الأسرة التى وصل إليها صندوق السيد جمال الدين ، وهو الصندوق الذى خلفه وراءه فى مصر عندما نفاه منها الخديو توفيق ، ثم سافر وراءه ، فلم يدركه فى الهند ولا فى إيران . فاستقر ثلاثة أرباع قرن أمانة لدى صديق للأفغانى ، حتى وجد ورثته أن ما فى الصندوق لم يصبح أمانة شخصية ، ولكنه أصبح ملكاً عاماً للتاريخ ، وللعلم والعلماء ، فنشروا الأوراق مصورة ومعلقاً عليها باللغة الإيرانية . وقد اشتملت الوثائق على جوازات سفر السيد جمال الدين ، والتى وجد أنها إيرانية .

وفى رأينا أن الأقوال التى ترجع نسب جمال الدين الإيرانى صدرت عن رجال بعيدى العهد بالسيد جمال الدين ، ولم يكونوا معاصرين له بخلاف الحال فى الأقوال الأخرى التى ترجع نسبه الأفغانى .

أما وجود مدرسة بإيران تحمل اسم السيد جمال الدين ، فليس دليلا قاطعاً على انتسابه إليها ، ذلك لأن الإيرانيين يعتبرونه واحداً منهم ، ويفخرون بانتسابه إليهم ، فليس ببعيد أن ينسبوا المدرسة إليه دون أن يكون واحداً منهم.

ووجود أفراد من أسرة السيد جمال الدين يعيشون فى إيران ليس بالأمر الغريب ، فالصلة بين البلدين — إيران وأفغانستان — قوية بحكم الجوار ، وهناك ارتباط بين الأسر الأفغانية والإيرانية ، فلا يبعد أن يكون لأسرة السيد جمال الدين فروع فى البلدين .

أما عن جوازات السفر الإيرانية ، فليست دليلا قاطعاً على صحة نسبه

---

(١) المرجع السابق : ص ٢٥ .

(٢) محمد صبيح : جمال الدين الأفغانى ، مجلة الوعى الإسلامى ، السنة الثالثة ، العدد الخامس والعشرون ، غرة المحرم ١٣٨٧ هـ — ١١ إبريل ١٩٦٧ ، ص ٨٢ — ٨٥ .

(٣) Nikki Keddie, op. cit., pp. 10—12.

الإيرانى ، ذلك لأن السيد جمال الدين كان زعيما إسلامياً تقدره كافة الدول الإسلامية ، ومن الممكن أن يحمل أكثر من جواز سفر ، تسهيلا لمهمته ، وتيسيراً لأموره .

وأرجح أن السيد جمال الدين أفغانى الأصل ، سنى المذهب ، وأن أسباب الاختلاف حول نسبه ترجع إلى عوامل ثلاثة :

أولها : الارتباط الوثيق بين الأمتين الإيرانية والأفغانية ، والتجاور الذى يساعد على تبادل المصالح بين البلدين ، وارتباط الأسر بعضها ببعض ، ولذلك فلأسرة السيد جمال الدين فروع فى إيران ، وأخرى فى أفغانستان .

ثانيها : تهافت البلاد على نسبة الزعماء والقادة إليها . فالأمة الإيرانية تفخر بانتساب السيد جمال الدين إليها ، كما تفخر به الأمة الأفغانية ، باعتباره مصلحاً عظيما ، وزعيماً من زعماء العالم الإسلامى الحديث .

ثالثها : رغبة الشاه « ناصر الدين الفارسى » فى فرض سيطرته على السيد جمال الدين ، والانتقام منه. فلقد كان جمال الدين يعارض الشاه ، ويندد بسياسته الاستبدادية فى مختلف المجالس ، ويطالب العلماء بخلعه والتخلص منه ، ولم يكن الشاه يستطيع فرض سيطرته عليه ، لانتسابه إلى دولة أخرى ، ولذلك أثار ضجة حول حقيقة نسبه ليستطيع فرض سلطانه عليه .

ومما يؤيد انتساب « السيد جمال الدين » إلى بلاد الأفغان ما رواه عنه معاصروه ، وما كتبه عن نفسه .

يقول الأستاذ عبد القادر المغربى :

« قص على أحد وجهاء طرابلس الشام الخبر الآتى — يرويه عن صديقه « الشيخ عبد الحميد أفندى الرافعى » وكان متولياً قضاء البصرة حين نزول « السيد جمال الدين » فيها مبعداً من قبل حكومة شاه إيران ، وإنما حدثنى الوجيه الطرابلسى بهذا الحديث لأنه سمع منى وصف الضجة القائمة حول أفغانية السيد جمال الدين وإيرانيته (١) .

(١) عبد القادر المغربى : ذكريات وأحاديث ، ص ٨٣ .

قال الوجيه منكراً كل ما قالوه فى نسبة جمال الدين إلى إيران :
إن جعل السيد من أبناء إيران أو مواليد إيران فرية افترتها عليه حكومة « ناصر الدين شاه » بقصد الانتقام منه ، وإن الخبر اليقين هو فيما حدثنى « الشيخ عبد الحميد الرافعى » قاضى البصرة فى أثناء نزول الأفغانى فيها مبعداً عن إيران . (١) فهو إذن شاهد عيان .

قال القاضى : كان والى البصرة ليوم قدوم « جمال الدين » إليها « هدايت باشا » وهو رجل جليل القدر ، كثير التقوى ، فاحتفل الوالى وأركان الولاية بالسيد وأكرموا نزله ، وإذا برقية « شيفرة » وردت إلى الوالى من السلطان يسألونه فيها عن نشأة جمال الدين وأصله وفصله ، وهل هو إيرانى كما يزعم الشاه ؟ ؟

قال القاضى :

فاستحسن الوالى أن يتوسطنى لدى « السيد جمال الدين » فأسأله عن أصله ومبتدأ خبره من حيث لاأجعله يشعر بقصدى ووساطتى ، ولكن ذكاء جمال الدين الخارق جعله ينتبه إلى الغرض من سؤالى ، فبادرنى بقوله :

« إنه أفغانى الأصل والفرع ، وإنه لا علاقة له بإيران ولا تابعية ، وإن الشاه يشيع ذلك عنه إرادة اجتراره إلى إيران ثم الانتقام منه ، والتنكيل به » (٢) :

ويقول المخزومى :

« وقد ذكرت له يوماً . . أى « للسيد جمال الدين » أن بعض أصدقائى من محبيه على البعد يرغبون فى الحصول على ترجمة حاله ليزينوا « على اصطلاح أرباب الصحف » أعمدة جرائدهم بها ، فابتسم السيد وقال :

« إن العيان لا يحتاج إلى ترجمان . . وأى نفع لمن يذكر أننى ولدت سنة ١٢٥٤ هـ وعمرت أكثر من نصف عصر ، واضطررت لترك بلادى الأفغان مضطربة تتلاعب بها الأهواء والأغراض وأكرهت على مبارحة الهند ،

---

(١) المرجع السابق : ص ٨٥ و ٨٦ .
(٢) عبد القادر المغربى : جمال الدين الأفغانى ، ذكريات وأحاديث ، دار المعارف ، ١٩٤٨ . ص ٨٦ .

وأجبرت على الابتعاد عن مصر ، وإن شئت قل نفيت منها ومن الآستانة ومن أكثر عواصم الأرض ... كل هذه — خاطرات — لا تسرني وليس فيها أدنى فائدة لقوم » (١) .

ويقول فى موضع آخر :

« لقد جمعت ما تفرق من الفكر ، ولمت شعث التصور ، ونظرت إلى الشرق وأهله ، فاستوقفتني الأفغان ، وهي أول أرض مس جسمي ترابها ، ثم الهند وفيها تثقف عقلي ، فإيران بحكم الجوار ، والروابط ، وإليها كنت صرفت همتي . . » (٢) .

من قوله هذا نستدل على صحة نسبه الأفغاني ، ومما يقوى هذا الرأى قوله فى كتابه « البيان فى تاريخ الأفغان » :

« وجميع الأفغانيين سنيون ، متمذهبون بمذهب أبي حنيفة ، لا يتساهلون رجالا ونساء ، حضرين وبدويين ، فى الصلاة والصوم ، سوى طائفة « نورى » فإنهم متوغلون فى التشيع ، ولهم محاربات شديدة مع جيرانهم السنيين » (٣) .

ولو كان جمال الدين إيرانياً لكانت لهجته فى التحدث عن سنية الأفغانيين ، وتشيع بعض طوائفهم غير هذه اللهجة ، ولكان أفرغ كلامه فى أسلوب آخر غير هذا الأسلوب . ويقول عن الأفغانيين إنهم مع شدة تعصبهم للدين والمذهب والجنس لا يعارضون غيرهم فى حقوقهم ولا يتحاشون عن أن يروا شيعياً أو غير مسلم يقيم مراسيمه الدينية ، ولا يمنعون المستحقين منهما من نيل المراتب العالية فى حكومتهم .

« فإنك ترى فى غالب المناصب فى البلاد الأفغانية أن أربابها من الشيعيين ، وكل أفغاني يزعم أنه أشرف الناس لكونه أفغانياً ، ولو كان فقيراً ، وأنه

(١) جمال الدين الأفغاني : خاطرات جمال الدين ، بيروت ، ١٩٣١ ص ٢١ ، ٢٢ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٢.
(٣) جمال الدين الأفغاني : البيان فى تاريخ الأفغان ، ص ٣٦ .

لا يوجد الإيمان الكامل ، والإسلام الخالص ، إلا فى جنس الأفغان » (١)

فهو هنا يجعل الأفغانيين من أشرف الناس ، وأكثرهم تسامحاً ، وأعمقهم إيماناً ، وأشدهم غيرة على الدين ، ولو لم يكن جمال الدين أفغانياً سنياً لما كانت طريقته فى التحدث عن الأفغانيين بهذه الصورة .

وفى الفصل الثالث من كتابه « البيان فى تاريخ الأفغان » يصف تاريخ الأفغان — فى العصور القديمة — فى وقت كانت تابعة فيه لإيران ، ويبين الصراع الذى حدث بين البلدين والذى استمر فترة طويلة من الزمن ، حتى قام لدى الأفغانيين زعيم وطنى اسمه « ميرويس » أراد أن يوحد جهود الشعب ، ويقاوم الحكم الإيرانى . فقام فى الشعب الأفغانى خطيباً ليبين فضائل الحرية ، ومساوىء الحكم الأجنبى ومن قوله :

« إلا من رجح جانب الإيرانيين ، واختار أن يكون فى ربق عبوديتهم ، فليقطع الأمل فى أن يساكننا فى ديارنا ، إذ لا يمكن له معاشرتنا ، ويستحيل أن ينال مودتنا ومصافاتنا ، فوافقه جميع الأمراء ، وأكدوا الموافقة بالأيمان » (٢) .

ويعلق جمال الدين على هذه الخطبة بقوله :

« هكذا . . . هكذا . . . أولوا الفضيلة والحزم ، يفدون بأرواحهم ، ويخاطرون بأنفسهم لتحرير أممهم ، وتخليصها من ربقة الأسر والذل ، ولا يطلبون لذلك جزاء سوى تخليد الذكر الجميل بخلاف أرباب النفوس الدنيئة ، فإنهم يبيعون أنفسهم وأممهم وأوطانهم للأجانب بأبخس الأثمان » (٣) .

وهو هنا يعتبر الإيرانيين أجانب ، وأن الواجب كان يحتم على الأفغانيين محاربتهم ، والتخلص منهم ومن سيطرتهم . .

ولو كان جمال الدين إيرانياً لما اعتبرهم أجانب ، ولما تحدث عنهم

(١) جمال الدين الأفغانى : البيان فى تاريخ الأفغان ، ص ٣٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦ ، ٧ . (٣) نفس المرجع ، ص ٦ ، ٧ .

أيضاً بهذه الصورة . ومما يؤيد أصله الأفغانى ، أن رفاته نقلت إلى بلاد الأفغان سنة ١٩٤٤ م ، ولم ينقل إلى إيران ، ولو كان إيرانى الأصل ، لربما عارضت الحكومة الإيرانية ، وعارض أهله فى نقله إلى هناك ، وطالبوا بدفن رفاته فى بلادهم .

وهكذا نرجح أن « السيد جمال الدين » أفغانى الأصل ، سنى المذهب ، وأن الإيرانيين أرادوا أن ينسبوه إليهم للأسباب التى سبق ذكرها . . .

وبالرجوع إلى ماكتبه عنه تلامذته ومعاصروه مثل الشيخ محمد عبده (١) وشكيب أرسلان (٢) وأديب اسحق (٣) ، والشيخ عبد القادر المغربى(٤) والشيخ رشيد رضا (٥) ، ترجح لدينا حقيقة نسبه الأفغانى .

* * *

الآن — وقد عرفنا موطن « السيد جمال الدين » ، وثبت لنا أنه أفغانى الأصل ، سنى المذهب ، ننتقل إلى الحديث عن حياته ، والعوامل التى كوّنت شخصيته ، ونعرض لجهوده فى مختلف البلاد التى زارها .

فقد عاش جمال الدين لا يعرف له وطناً معيناً ، وإنما اتخذ الشرق ميداناً لجهاده وكفاحه ولم تكن أفغانستان وإيران والهند ميداناً لنشاطه فحسب ، وإنما عرفته تركيا ومصر ولندن وباريس . . .

وقد حمل فى حياته لواء المعارضة ضد الاستعمار الأوروبى ، وضد ملوك الشرق المستبدين فأبعد عن تركيا ، وأكره على الخروج من الهند ، وطرد من إيران ، وأجبر على ترك مصر .

---

(١) محمد عبده : مقدمة الرد على الدهريين ، ص ٢ .

(٢) شكيب أرسلان : تعليقه فى كتاب « حاضر العالم الإسلامى » ، ج ١ ، ص ١١٩ .

(٣) أديب اسحق : ترجمته للسيد جمال الدين فى تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ الطبعة الأولى ، المنار ، ١٩٣١ ، ص ٣٩ .

(٤) عبد القادر المغربى : جمال الدين — ذكريات وأحاديث ، ص ٢٧ . والبينات ج ١ ، ص ١٥٠ .

(٥) السيد رشيد رضا : المنار ج ٨ ، ص ٣٨٩ ، تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ١ ، ٢٧

ولم يكن هذا الاضطهاد ليثنيه عن عزمه ، وإنما كان يزيده قوة وإيماناً برسالته ويدفع الناس إلى التمسك بمبادئه ، ومن قول جمال الدين فى ذلك : « إنى أعتقد أن السجن بطلب الحق من الظالمين العتاة « رياضة » ، والنفى فى ذلك السبيل سياحة ، والقتل شهادة »(١) .

فما هى العوامل التى كوّنت شخصيته ، والظروف التى أدت إلى ظهوره ؟ ؟ ومتى تبلورت آراؤه فى الإصلاح ؟ ؟ واكتمل نضوجه السياسى ؟ ؟

إننا بعد دراستنا للسيد جمال الدين ، نستطيع أن نقسم مراحل حياته إلى ثلاث فترات بارزة ، لكل منها خصائصها وسماتها المتميزة .

المرحلة الأولى :

وهى مرحلة الإعداد والتكوين ، وفيها تلقى قدراً كبيراً من الثقافة والمعرفة على أيدى أساتذة من أهل العلم والأدب ، واكتسب خبرة عظيمة بتنقله بين مختلف بلاد الشرق ، واشتراكه فى الأحداث التى مرت بها . وتمتد هذه الفترة من مولده فى بلاد الأفغان حتى خروجه منها بعد اشتراكه فى الحرب بجانب « محمد أعظم » سنة ١٨٦٩ م وفى هذه الفترة الأولى من حياته ، نستطيع أن نتعرف على العوامل البارزة التى كوّنت شخصيته :

فهو رجل شريف النسب ، عظيم المكانة ، نال قسطاً وافراً من العلم ، وجاب كثيراً من الأقطار ، ودرس أخلاق الجماعات والشعوب .

ولذلك كان للوراثة والنشأة الأولى أثرهما فيما طبع عليه من عزة النفس ، ومن استعداد لتولى أعظم المناصب ، والقيام بجلائل الأعمال ، وعظائم الأمور .

فيتولى الوزارة وهو فى سن السابعة والعشرين ، ويناصر أميراً يتوسم فيه الخير ، ويعمل على تثبيته للإمارة ، ثم تعمل السياسة الإنجليزية على تفريق الكلمة ، وإشعال نار الفتن فى بلاد الأفغان ، فيكون لذلك أكبر الأثر فى الاتجاه السياسى للسيد جمال الدين .

---

(١) جمال الدين الأفغانى : خاطرات جمال الدين ، بيروت ، ١٩٣١ ، ص ٢٣ .

المرحلة الثانية :

بدأ يعمل على تحقيق أهدافه ولكن على نطاق ضيق ، وكانت شخصيته العلمية فيها أكثر وضوحاً من شخصيته السياسية .وكان يسعى فى هذه الفترة إلى نشر التعليم على نطاق واسع ، وتكييف الدين الإسلامى ليتلاءم مع مقتضيات العصر ، وإشراك الشعب فى الحكم ، ومحاربة الحكم الاستبدادى ، ومقاومة الاستعمار الأجنبى .

وفى هذه الفترة لاقى « السيد » كثيراً من ألوان الاضطهاد بعد أن بدأت ميوله السياسية فى الظهور ، فأخرجته الحكومة الإنجليزية من الهند ومصر ، ووُجد له خصوم كثيرون من رجال الدين أمثال — حسن أفندى فهمى — فى تركيا ، والشيخ عليش فى مصر . فرموه بالإلحاد والخروج على قواعد الدين ، وتمتد هذه الفترة حتى خروجه من الهند قاصداً لندن وباريس سنة ١٨٨٣ م .

المرحلة الثالثة :

وهى التى انتقلت فيها دعوته من الحيز الضيق إلى الميدان الدولى ، ولم تعد رسالته قاصرة على بلد شرقى معين ، وإنما جعل الشرق كله ميداناً لكفاحه وجهاده ، فدعا فى « لندن وباريس » إلى إنشاء « جامعة إسلامية » تضم مختلف بلاد الشرق الإسلامى ، وتسعى إلى تخليصها من السيطرة الأجنبية ، وأصدر جريدة«العروة الوثقى»وضمنها آراءه فى الجامعةالإسلامية،والرابطة الشرقية والمسألة المصرية والسودانية والهندية،وكانت توزع فى جميع بقاع العالم الإسلامى لمن يطلبها دون مقابل . واستعمل إلى جانب الجريدة رسلا متخفين يذهبون إلى الأقطار المختلفة ، مزودين بالتعاليم التى لا يستطيع نشرها فى الجريدة . وقد أحدثت جهوده الدولية النشيطة هزة عنيفة فى العالم الإسلامى مما جعل السلطان « عبد الحميد » يسعى إلى الاستفادة بنشاطه ، وإعادة الخلافة إلى سابق عهدها ، ليستطيع وقف اعتداء الغرب المسيحى على الدول الإسلامية .

ونعرض فيما يلى لهذه المراحل الثلاث بشىء من التفصيل .

المرحلة الأولى
(١٨٣٨ — ١٨٦٩ م)

ولد « السيد جمال الدين الأفغانى » سنة (١٨٣٨ م — ١٢٥٤ ﻫ) فى « أسعدآ باد » بالقرب من « كنر » من أعمال « كابل » عاصمة الافغان ، ووالده « السيد صفدر » (وقد حرّف هذا الاسم من كتبوا ترجمته بالعربية فقالوا صفتر) ، ... من سادات « كنر » ويتصل نسبه « بالسيد على الترمذى » المتحدث المشهور (٨٩٢ م) ، ويرتقى إلى « الحسين بن على بن أبى طالب » حفيد الرسول ، ومن هنا جاء التعريف عنه « بالسيد جمال الدين الحسينى الأفغانى » .

ولأسرته منزلة عالية فى بلاد الأفغان ، لنسبها الشريف ، ومكانتها الاجتماعية والسياسية إذ كانت لها الإمارة والسيادة على جزء من البلاد الأفغانية تستقل بالحكم فيه ، إلى أن وقع نزاع بينها وبين « دوست محمد خان » أمير الأفغان وقتئذ ، فانتزع منها الإمارة وأمر بنقل والد « السيد جمال الدين » وبعض أعمامه إلى مدينة « كابل » عاصمة الأفغان ليكون تحت نظره ، وكان جمال الدين إذ ذاك صبياً فى الثامنة من عمره ، فلما انتقل به أبوه إلى كابل ، انصرف إلى تربيته وتعليمه على ما جرت به عادة الأمراء والعلماء فى بلاده . فتزود « السيد جمال الدين » فى تلك الفترة بقدر كبير من الثقافة ، ودرس — علوم اللغة العربية — من نحو وصرف ومعان وبيان ، كما درس — علوم الشريعة — والتصوف والتاريخ وكان ميالا بطبعه إلى دراسة — الفنون العسكرية — حتى أنه كما يقول جورج كوتشى :

« استرعى الأنظار منذ حداثة السن بذكائه النادر ، وميله الواضح إلى كل ما له صلة بالفنون العسكرية » (١) .

وبعد أن أتم دراسة هذه العلوم ، أراد أن يتزود بقسط أكبر من الثقافة والمعرفة ، وهفت نفسه إلى البحث والاطلاع فقرر أن يغادر وطنه ، ويترك أسرته ذاهباً إلى الهند .

---

(١) مصطفى عبد الرازق : مقدمة مجلة العروة الوثقى ، المكتبة الأهلية ببيروت ، ١٩٣٣ ، ص ٣ .

ذهابه إلى الهـــند :

كانت أرقى بكثير من بلاد الأفغان ، فأقام بها سنة وبضعة أشهر ، يدرس العلوم الحديثة فنضج فكره ، واتسعت مداركه . وكان « السيد جمال الدين » ينتهز الفرص التي تمكنه من الانتقال إلى مدن الهند وربوعها متعرفاً أحوالها ، ومستطلعاً أخبارها ، إذ كان يمل البقاء في مكان واحد لأنه بطبعه ميال إلى الرحلات والأسفار ، واستطلاع أحوال الأمم والجماعات ، ودرس أخلاق الشعوب ، ثم قصد بعد ذلك إلى الأقطار الحجازية . . .

فى الحجاز : :

ذهب « السيد جمال الدين » إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، بعد أن رسم لنفسه خطة سفر تمكنه من زيارة أنحاء الجزيرة العربية ، ودراسة أحوالها من الناحية الجغرافية والسياسية وقضى عاماً يتنقل بين مختلف البلاد ، ويتعرف أحوالها ، وعادات أهلها ، حتى وافى « مكة المكرمة » سنة (١٨٥٧ م — ١٢٧٣ هـ) .

وهناك فى مكة المكرمة ، تجتمع وفود الحجاج الآتية من مشارق الأرض ومغاربها ، وهناك أمام الكعبة المقدسة يتعارف المسلمون على اختلاف الألسنة والأجناس ، ويتباحثون فى الشئون الإسلامية ويتداولون الرأى فى مواطن ضعف المسلمين ، يملأ صدورهم إيمان عميق يدفعهم لإصلاح العالم الإسلامى ، والنهوض به .

وفى هذا المؤتمر العظيم ، كانت قلوب قادة اليقظة الإسلامية ، وأبطالها — كمحمد بن عبد الوهاب ، ومحمد بن السنوسى ، وجمال الدين الأفغانى — تشعر بجلالة الواجب الإسلامى المقدس ، وتتقد من خطورة المشهد ، وروعة المحفل ، غيرة على الإسلام والمسلمين (١) .

فمن المعروف أن صاحب دعوة الوهابيين — محمد بن عبد الوهاب —

---

(١) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى ، (الترجمة العربية) ، جـ ١ ، ص ٧ .

أقام بالمدينة المنورة فترة قبل أن ينشر دعوته فى الدرعية ، وكذلك فعل « السيد محمد على السنوسى » فقد قصد مكة المكرمة لأداء فريضة الحج ، وطلب العلم ، وأقام بها مدة أنشأ بها أولى زواياه (١٨٤١ م — ١٢٥٧ ﻫ) ، وكذلك فعل « السيد جمال الدين الأفغانى » ، فنبتت لديه فكرة تكوين « جامعة إسلامية » تضم مختلف بقاع العالم الإسلامى ، ولكنها لم تظهر إلا فى وقت متأخر . وبعد أن أتم فرائض الحج ، عاد إلى بلاد الأفغان .

عودته إلى أفغانستان :

انتظم فى خدمة الحكومة على عهد الأمير « دوست محمد خان » وسار فى جيشه ولازمه فى حصار وفتح « هراة » التى كان يحتلها ابن عم الأمير وصهره « أحمد شاه » ولما توفى محمد خان عام (١٨٦٤ م — ١٢٨٠ ﻫ) وقع خلاف بين الأمير الجديد « شير على » وبين اخوته الثلاثة ، وتنازع الاخوة الأربعة فيما بينهم ، فانضم السيد جمال الدين إلى « محمد أعظم » أحد الاخوة الثلاثة لما توسمه فيه من الخير ، واشتدت الحروب الداخلية ، واستمرت فترة طويلة انتهت بانتصار « محمد أعظم » وفوزه على اخوته ، فعظمت منزلة « السيد » لديه ، وجعله كبير وزرائه ، وهو حينذاك فى السابعة والعشرين من عمره ، وصار يلجأ إليه فى مهام الأمور ، وكاد يحسن تدبيره يستتب الأمر للأمير ، بيد أن الأصابع الأجنبية ، لم تزل تعبث بمصير الأفغان ، فما لبثت الحروب أن تجددت ، إذ كان « شير على » يسعى لاسترجاع سلطته ، والإنجليز يؤيدونه ويساعدونه بأموالهم ودسائسهم ، ليجعلوه من أوليائهم وصنائعهم ، وأغدق « شير على » الأموال على الرؤساء الذين كانوا يناصرون الأمير « محمد أعظم » فبيعت أمانات ، ونقضت عهود ، وجددت خيانات » (١) .

فوجد « محمد أعظم » نفسه وحيداً ليس حوله إلا ابن أخيه « عبد الرحمن » وكبير وزرائه « جمال الدين » ولذلك لم يجد خيراً من تجنب هذا الصراع المخفق ، فغادر بلاده إلى إيران ، حيث مات بعد أشهر فى مدينة نيسابور .

(١) الشيخ محمد عبده : مقدمة الرد على الدهريين ، ص ٦ .

أما « السيد جمال الدين » فقد بقى فى « كابل » لم يمسسه الأمير بسوء «احتراماً لعشيرته وخوف انتقاض العامة عليه ، حمية لآل البيت النبوى » (١).

ولقد أثارت أعمال الإنجليز وأساليبهم السياسية التى كانت موجهة ضد الحريات ما كان يكنه « جمال الدين » فى نفسه من العداء والبغض للسياسة الإنجليزية خاصة، والمطامع الاستعمارية الأوروبية عامة . ولقد لازمه هذا الكره طول حياته ، وكان له مبدأ راسخاً يصدر عنه فى أعماله وآرائه وحركاته السياسية » (٢) .

فأخذ يبث فى الشعب الأفغانى مبادىء الوطنية ، وروح الحرية ، مما ألّب عليه الأمير « شير على » ، فلما أدرك « السيد جمال الدين » ما يضمره له الأمير استأذنه فى الحج ، فأذن له على شرط أن لا يمر ببلاد إيران كيلا يلتقى فيها « بمحمد أعظم» (٣) فسار إلى بلاد الهند سنة (١٨٦٩ م — ١٢٥٨هـ) وبذلك تنتهى المرحلة الأولى من حياته . .

❋ ❋ ❋

المرحلة الثانية

(١٨٦٩ — ١٨٨٣ م)

ذهابه إلى الهند :

لم يشأ « السيد جمال الدين » الظهور فى الهند بمظهر يلفت النظر إليه فبعث إلى أحد أصحابه من تجار الأفغان هناك لينزل عليه ضيفاً على أبسط الحالات ، ولكنه ما كاد يصل إلى الحدود الهندية حتى رأى مندوبى الحكومة يستقبلونه استقبالا رسمياً حافلا ولم ير بين ذلك الجمهور من المستقبلين أحداً من معارفه، وخصوصاً التاجر الذى استضافه فقابل تلك الحفاوة بقوله : « مأرب ، لا حفاوة من كريم » (٤) .

(١) الشيخ محمد عبده : مقدمة الرد على الدهريين ، ص ٧ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل جـ ٢ القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ١٢٩ .

(٣) Charles Adams : Islam and Modernism in Egypt : Oxford University, 1933, p. 5, E. G. Browne : The Persian Revolution, p. 5.

(٤) جمال الدين الأفغانى : خاطرات جمال الدين ، بيروت ، ١٩٣١ ، ص ٣٠ .

وشكر « السيد » رجال الحكومة على احتفائهم به ، واستقبالهم له ، وطلب منهم أن يسمحوا له بالذهاب إلى صديقه الأفغانى ، فأخبروه أن الحكومة قد أعدت له مكاناً لائقاً لا يمكن أن يتخلف عنه لسواه فاستجاب لدعوتهم لعلمه أن الأمر فى يد الحكومة لا فى يده، ثم سأله رجال الحكومة عن الزمن الذى يريد أن يقيمه فى الهند ، فأخبرهم أنه لا يريد الإقامة أكثر من شهرين ، فقبلت الحكومة ذلك .

كان للإنجليز فى هذه الفترة نفوذ متفوق فى الهند ، إذ بدأ استعمارهم لها منذ سنة ١٦٢٣ م حينما عجزوا عن مقاومة الاستعمار الهولندى فى أندونيسيا .. فجاءت إلى الهند أول وكالة تجارية إنجليزية وأقامت فى ثغر سورات وأخذ الإنجليز يمتدون ويقيمون لهم مراكز تجارية أخرى على السواحل الهندية ، وكانت مراكزهم الرئيسية فى بومباى على الساحل الغربى ، وفى مدراس على الساحل الشرقى ، وفى كلكتا فى إقليم البنجاب ، وتحولت سياسة شركة الهند الشرقية الإنجليزية من الناحية التجارية إلى الناحية الاستعمارية .

وفى سنة ١٧٧٣ م أصدرت الحكومة الإنجليزية قراراً بمقتضاه جعلت حاكم بنغال من قبل الشركة حاكماً عاماً للممتلكات البريطانية فى الهند ثم خطت خطوة استعمارية كبرى فى سنة ١٧٨٤ م بأن أصدرت قراراً آخر بتعيين وزير للهند تساعده هيئة من الخبراء فى شئونها وأعطى له حق الإشراف التام على النشاط الذى تقوم به الشركة من الناحية التجارية ومن الناحية الاستعمارية . . . وأصبح من اختصاص الحكومة الإنجليزية تعيين الحاكم العام للهند . وتعيين كبار موظفى الشركة . . . . وبذلك أصبحت الشركة مؤسسة تجارية ، بينما تولّت الحكومة الإنجليزية الجانب العسكرى والجانب السياسى . . .

وفى سنة ١٨٥٧ م قام أهالى الهند بثورة على الحكم الإنجليزى ، ودامت الثورة عدة شهور ،وكاد الثوار ينجحون فى أمنيتهم ، لكن الإنجليز استطاعوا أن يفتكوا بالأهالى وينكلوا بالثائرين . ثم تتابعت النكبات على الأهالى ،

ولا سيما المسلمون منهم لأنهم هم الذين كان بيدهم لواء الثورة وكانوا فى طليعة الثوار فى كل مكان .

ومن أجل ذلك عمل الإنجليز على محاربة المسلمين وتذرعوا لذلك بمختلف الوسائل . كانت هذه حالة الهند عندما وفد إليها «جمال الدين» ، فتأثر بالأحداث التى مرت بها ،كما أن أهل الهند وفدوا إليه ليقتبسوا من علمه ، ويستفيدوا بآرائه ، ويستمعوا إلى أحاديثه . . فنقمت الحكومة منه اتصاله بهم وخاصة لأن الهند كانت لا تزال تضطرم بالفتن بعد ثورة سنة ١٨٥٧ ، ولم يكن يخفى على الحكومة الإنجليزية أن فى أحاديث « السيد جمال الدين» ودروسه دافعاً قوياً للثورات. فجاءه أحد مندوبى الحكومة وعنده عدد كبير من العلماء والعظماء وأفراد الشعب ، وطلب منه أن يبرح الهند لأن حالة البلاد لا تسمح ببقائه ، فأراد الحاضرون أن يحتجوا على مندوب الحكومة ، ويقفوا فى وجهه ، لكن «السيد جمال الدين» هدأ ثورتهم وطلب إليهم السكوت ليستمعوا إلى كلمته التى جاء فيها :

« إننى ما أتيت إلى الهند لأخيف حكومة بريطانيا العظمى ! ! ولا أنا على استعداد لأحدث شغباً عليها ، ولا لأنتقد شيئاً من أعمالها ، ولكن تخوفها من زائر أعزل مثلى ، ومصادرتها لزائرين هم أضعف منى يسجل على حكومة بريطانيا وهن عزمتها ، وضعف شوكتها ، وقلة عدلها ، وعدم أمنها من حكمها ، وإنها فى حقيقة حكمها لهذه الأقطار الشاسعة الواسعة أضعف بكثير من شعوبها » (١) .

ثم قال :

« يا أهل الهند — وعزة الحق ، وسر العدل ، لو كنتم وأنتم تعدون بمئات من الملايين ذباباً لكان طنينكم يصم آذان بريطانيا العظمى ، ويجعل فى آذان كبيرهم جلاد ستون وقراً » .

وهكذا أتاحت هذه الفرصة المجال للسيد جمال الدين ليهاجم السياسة

---

(١) جمال الدين الأفغانى : خاطرات جمال الدين ، ص ٣١ ، ٣٢ .

الإنجليزية ، وليبين لأهالى الهند الطريق العملى لنيل الاستقلال ، ولقد كان لزيارة جمال الدين للهند أثر كبير فى آرائه السياسية ، فكان فى أحاديثه وكتاباته — فيما بعد — **يضرب الأمثال بما حل بالهند ويطالب العالم الإسلامى أن يتجنب الأخطاء التى وقع فيها الهنود .**

وفى اليوم التالى أبعدته الحكومة الإنجليزية عن الهند ، فتركها قاصداً مصر .

مجيئه إلى مصر :

وفد جمال الدين إلى مصر للمرة الأولى وكان ذلك فى أوائل عام ١٨٧٠ م ولم يكن يريد البقاء بمصر طويلا لأنه كان ينوى الذهاب إلى الحجاز حيث يجتمع المسلمون ، وتتلاقى وفود الحجاج من مشارق الأرض ومغاربها ، ولكن أهل مصر حينما سمعوا بقدومه ، أخذوا يترددون عليه فى بيته ، وفى الأزهر ، واتصل به كثير من الطلبة وتلقوا عنه بعض دروسه فى المنطق والفلسفة .

ولم يطل بقاء جمال الدين فى مصر هذه المرة إذ وصلته دعوة من السلطان عبد العزيز للذهاب إلى تركيا ، وكان قد سمع بدعوته ومكانته بين المسلمين ، فأراد أن يستفيد بجهوده ، ولذلك لبى جمال الدين دعوة السلطان ، وكان قد مكث فى مصر أربعين يوماً .

ذهابه إلى تركيا :

ذهب السيد جمال الدين إلى تركيا (سنة ١٨٧٠ م — ١٢٨٧ هـ) ، فرحبت به الحكومة التركية خير ترحيب ، وأكرم السلطان عبد العزيز وفادته ، والتف حوله كبار رجال الدولة من العلماء والأدباء والأعيان ، وفى طليعتهم « على باشا » الصدر الأعظم .

وكما يقول الشيخ محمد عبده : « نزل منه منزلة الكرامة ، وعرف له الصدر الأعظم فضله وأقبل عليه بما لم يسبق لمثله ، وهو مع ذلك بزيه الأفغانى ، قباء وكساء ، وعمامة عجراء ، وحومت عليه لفضله قلوب الأمراء والوزراء ، وعلا ذكره بينهم ، وتناقلوا بالثناء على علمه ودينه وأدبه » . (١)

وما هى إلا شهور ستة حتى عين عضواً فى مجلس المعارف ، فحاول

---

(١) جورجى زيدان : مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر ، جـ ٢ ، ص ٥٧ ، ٥٨ .

إصلاح مناهج التعليم وتعميمه وتوسيع نطاقه ، وقد اصطدمت محاولة جمال الدين الإصلاحية بمقاومة شيخ الإسلام « حسن أفندى فهمى » لأنها كانت تمس شيئاً من رزقه ، فأضمر له السوء وكان لا يظهر رأى للسيد جمال الدين فى الصحف أو فى المحافل حتى يبادر إلى نقده .

وفى شهر رمضان من تلك السنة ، رغب إليه مدير « دار الفنون » أن يلقى فيها خطاباً للحث على الصناعات ، فاعتذر إليه بضعفه فى اللغة التركية ، ولكنه ألح عليه لإلقاء الخطاب ، فكتبه قبل إلقائه ، وعرضه على وزير المعارف ، ومشير الضابطية ، وأحد أعضاء مجلس المعارف ، فاستحسنه كل منهم ، وأطنب فى مدحه . فلما كان اليوم المعين لإلقاء الخطاب ، ذهب كثيرون من رجال الحكومة ، وأهل العلم لسماعه وقد شبه جمال الدين الأمة بجسم حى ، والصناعات بأعضاء ذلك الجسم وقال :

« كما أنه لا حياة للجسم بدون الأعضاء ، كذلك لا حياة للأمة بدون الصناعات ، ثم شبه الملك بالمخ الذى هو مركز التدبير والإرادة ، والحدادة بالعضد ، والزراعة بالكبد ، والملاحة بالرجلين ، ومضى فى تعداد سائر الصناعات والأعضاء حتى أتى عليها جميعها ببيان ضاف مبيناً أهمية كل منها » .

ثم قال :

« هذا ما يتألف منه جسم السعادة الإنسانية ، ولا حياة لجسم إلا بروح — وروح هذا الجسم إما « النبوة » وإما « الحكمة » ولكن الفرق بينهما أن النبوة منحة إلهية لا تنالها يد الكاسب ، بل يختص الله بها من يشاء من عباده ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، أما الحكمة فمما يكتسب بالفكر . . . »(١)

فلم يرق هذا الخطاب شيخ الإسلام ، لما كان فى نفسه من الحقد عليه ، فرماه بالإلحاد ، وأوعز إلى بعض الصحف وبعض الوعاظ فى المساجد ، أن يذكروا فى مقالاتهم وخطبهم أن جمال الدين قد زعم أن النبوة صنعة .

فقام علماء تركيا ، وخطباء مساجدها يردون على « جمال الدين » ويسفهون قوله ، فساور جمال الدين غضب شديد « وأشار بعض أصحاب

(١) جمال الدين الأفغانى : خاطرات جمال الدين ، ص ٣٤ ، ٣٥ .

السيد عليه بأن يغض على الكريهة، ويلزم السكون ، والزمن كفيل باضمحلال هذه الإشاعة ، وتلاشى أثرها ، لكن جمال الدين كان عصبياً دموياً ، فى مزاجه حدة ، فلج فى مخاصمة شيخ الإسلام ، وطلب محاكمته » (١)

وانقسم الرأى العام بصحفه ومجالسه فريقين : منهم من يؤيد جمال الدين، ومنهم من يؤيد شيخ الإسلام ، فسعى شيخ الإسلام لدى السلطان حتى أصدر أمراً بإبعاد جمال الدين عن تركيا .

وقبل مبارحته تركيا ، أتاه وفد من العلماء يعلنون له أسفهم ، وعدم رضاهم ، فكانت هذه المقابلة مناسبة أخيرة له ، بسط فيها شيئاً من تعاليمه ، وكان أحد زائريه قد تطرف فى حملته على شيخ الإسلام ، فحمل على الدين نفسه ، فاستنكر جمال الدين منه ذلك وألقى خطبة جاء فيها :

« السلطة الزمنية بمليكها أو سلطانها ،تستمد قوتها من الأمة ، لقمع أهل الشر ، وصيانة حقوق العامة والخاصة ، وتوفير الراحة للمجموع بالسهر على الأمن ، وتوزيع العدالة المطلقة . . أما إذا أودعت هذه السلطة بيد رجل جاهل عات ، اكتنفه قوم من فاسدى الأخلاق ، مجهولى الأعراق ، يلعبون بالمسلط كيف يشاؤون ، ثم يحتجون على الشعب بقولهم :

« مشيئة الملك قانون المملكة » . . . هذا القول مما يجب على الأمة وقوفها تجاهه، وأن تقاومه بكل ما لديها من قوة (٢) .

من هذه الكلمات يمكن أن نتبين هدف جمال الدين ، فهو يرى أن إصلاح الحكومة لا يكون إلا عن طريق الشعب ، كما بين من قبل فى حديثه لأهالى الهند ، أن الاستقلال لا يمكن الحصول عليه إلا عن طريق الكفاح .

وهو بذلك قد أظهر ميله السياسى ، بعد أن كانت دروسه وأحاديثه من قبل قاصرة على الناحية العلمية ، إلا أننا نرى أن صفته العلمية ظلت أبرز وأظهر من صفته السياسية . ويرى البعض أن إقامته فى تركيا كان لها

(١) مصطفى عبد الرازق : مقدمة العروة الوثقى ، ص ٥ .
(٢) جمال الدين الأفغانى : خاطرات جمال الدين ، ص ٣٧ .

أثر كبير فى نفوس الأتراك إذ التف حوله عدد كبير من الشباب ، ممن تلقوا عنه مبادئه الحرة ، وآراءه السياسية (١) .

ويقول مستر بلنت :

« إن سعى العثمانيين فى تحويل حكومتهم إلى دستورية ، قد ينسب إلى شيء من تأثير جمال الدين فقد أقام فى عاصمتهم يحاورهم ، ويخطب فيهم »(٢)

مجيئه إلى مصر (للمرة الثانية) :

بعد أن ترك جمال الدين تركيا ، عاد إلى مصر للمرة الثانية ، فوافاها فى (أول مارس ١٨٧١ م — المحرم ١٢٨٨ هـ) ، فرحب رياض باشا بقدومه إذ كان قد التقى به فى الآستانة ، وأجرى عليه راتباً شهرياً تقديراً لعلمه ، واعترافاً بمكانته .

استقر المقام بالسيد جمال الدين فى مصر بعد أن جاوز الثلاثين من عمره بعامين ، وبعد أن تنقل فى معظم بلاد العالم الإسلامى ، وخبر عادات أهلها ، ودرس تاريخها ، واشترك فى الحوادث التى مرت بها ، فنضجت أفكاره السياسية ، وتبلورت آراؤه فى الإصلاح ، ولذلك كانت السنوات التى مكثها فى مصر من أعظم سنى حياته ، وأكبرها أثراً لا فى تاريخ مصر وحدها بل فى تاريخ العالم الإسلامى بأكمله ، وكانت دروسه فى أول الأمر قاصرة على الناحية العلمية ثم اتجه إلى الناحية السياسية ، فكان له أثر كبير فى نهضة مصر السياسية والدينية والأدبية (٣) .

وبعد تولية « الخديو توفيق » سعت الدول الأوروبية إلى إبعاد جمال الدين عن مصر ، فأصدرت الحكومة بلاغاً رسمياً بتاريخ (٢٦ أغسطس ١٨٧٩ م — ٨ رمضان ١٢٩٦ هـ) ذكرت فيه أن جمال الدين رئيس جمعية سرية من الشبان ، وحذرت الناس من الاتصال به ، وأصدرت أمراً بإبعاده عن البلاد .

---

(١) Osman Amin : Muhammad Abduh : Essai Sur ses Idèes Philosophiques et Religieuses, Le Caire, 1944, p. 5.

(٢) عبد القادر المغربى : ذكريات وأحاديث ، ص ٢٩ .

(٣) راجع الفصل الرابع : أثره فى مصر .

ذهابه إلى الهند (للمرة الثالثة) :

اتجه جمال الدين إلى الهند ، وكان ذهابه إليها للمرة الثالثة . فقد سبق أن زارها مرتين : ففي المرة الأولى ، ذهب إليها للدراسة وتلقى العلم ؛ أما الثانية ، فجاء إليها بعد هزيمة « محمد أعظم » وانتصار « شير على » ، وفى هذه المرة حينما وصل إلى الهند مبعداً عن مصر ، نزل فى ميناء « بوشهر » ، ثم انتقل إلى « حيدر آباد » وفى هذه المدة ألف كتابه المشهور « الرد على الدهريين » . وقد ألفه باللغة الفارسية ثم نقله الأستاذ الإمام إلى العربية بمساعدة « عارف أبى تراب » تابع السيد جمال الدين . وقد دعاه إلى تأليف هذه الرسالة أن كثيرين من مسلمى الهند ، بدأوا يعتنقون تعاليم « النيشرية » ، وقد وجد الإنجليز أن هذه الوسيلة هى أقرب الوسائل للوصول إلى غرضهم وبسط نفوذهم وسلطانهم فى الهند لأن انتشار تعاليم النيشرية من شأنه أن يضعف وحدة المسلمين ، فكانت رسالة جمال الدين فى الرد على الدرهريين وتفنيد مزاعمهم ، وضمنها كثيراً من الأدلة والبراهين ، فجاءت دليلا على عمق تفكيره وغزارة مادته وإن كان البعض يرى « أنها لا تدل على مقدرة عقلية فائقة » (١).

وكان جمال الدين يرى أثناء إقامته بالهند أن من واجب الدولة العثمانية أن ترسل بعثات من العلماء إلى أهالى الهند ليفقهوهم فى الدين ، وليعلموهم قواعد الإسلام ، ومن قوله :

« فقبائل الهند لا يعرفون من أحكام دينهم -دين الإسلام- إلا جواز أكل لحم البقر . . مثل هؤلاء يجب علينا أن ننشر بينهم تعاليم ديننا ، وهذا بالطبع أقرب وأوجب من نشره بين غير المسلمين » (٢) .

ويقال أيضاً إن السيد جمال الدين ألف كتاباً عن الخلافة ، كان نصيبه المصادرة (٣) .

---

(١) H.A.R. Gibb, Modern Trends in Islam Chicago, 1946, p. 29.

(٢) عبد القادر المغربى : جمال الدين الأفغانى ؛ ذكريات وأحاديث ، ص ٧٢ .

(٣) S.G. Wilson : Modern Movements among Moslems, p. 71.

وحينما قامت الثورة العرابية فى مصر يقال إن السيد جمال الدين لم يسعه إلا أن يشارك مصر فى ثورتها ، فحرض مسلمى الهند على القيام بثورة داخلية بقصد إشغال إنجلترا عن ثورة مصر خدمة لإخوانهم المصريين .

فلما فوجىء الإنجليز بهذه الثورة التى لم يكن يتوقعوها ، وشعروا بخطر السيد جمال الدين فى مقر الثورة ومركزها ، أبعدوه إلى كلكتا كى لا يتصل بأحد ، وشددوا عليه الرقابة ، وأحاطوه بالجواسيس ، ثم أفرج الإنجليز عنه بعد أن دخلت جيوشهم مصر على أثر إخفاق الثورة العرابية وسمحوا له بمغادرة الهند ، ففكر فى الذهاب إلى لندن .

وفى ذلك الحين ، سمع أن أناساً تناولوه بالذم فى حضرة الخديو توفيق وكان « عبد الله باشا فكرى » من بين الحاضرين ، ولم يدافع عنه ، فأرسل إليه كتاباً جاء فيه :

« إنك مع علمك بواقع أمرى ، وعرفانك بسريرتى وسرى ، أراك ما ذدت عن حق كان واجباً عليك حمايته ، ولا صنت عهداً كانت عليك رعايته ، وكتمت الشهادة وأنت تعلم أنى ما أضمرت للخديو ولا للمصريين شراً ، ولا أسررت لأحد فى خفايا ضميرى ضراً ، وتركتنى وأنياب النذل اللئيم « فلان » حتى نهشنى نهش السبع الهرم العظام ، ضغينة منه على السيد إبراهيم اللقانى ، وإغراء من أعدائى . . . » (١) .

وهكذا نرى أن جمال الدين وإن كان قد نفى من مصر ، إلا أنه ظل على صلة بأهلها . . وسوف نرى فى المرحلة الثالثة من حياته ، أن المسألة المصرية كانت من أهم الموضوعات التى شغلت تفكيره ، وكان من أغراضه الرئيسية التى يسعى إلى تحقيقها « تنبيه الأذهان إلى خطر الاحتلال ، وإثارة الوعى القومى فى مصر ضد الإنجليز » .

❋ ❋ ❋

---

(١) جماعة من الأدباء : المنتخب ، جـ ٢ ، ص ٥٢٦ .

المرحلة الثالثة

(١٨٨٣ — ١٨٩٧ م)

انتهت المرحلة الثانية من حياة « السيد جمال الدين » ، وبدأ عهد جديد فى تاريخ حياته. فبعد أن كانت دعوته قاصرة على مصر وحدها ، أو الهند بمفردها ، اتسع نطاق الدعوة ، وانفسح مجال التفكير والعمل ، فجعل البلاد الإسلامية كلها مجالا لدعوته ، وميداناً لنشاطه .

وبعد أن كان يدعو إلى تحرير البلاد الإسلامية من الاستعمار الأجنبى بإثارته للشعور القومى، أصبح يدعو إلى التعاون الوثيق بين مختلف البلاد الإسلامية لتظهر الجامعة الإسلامية إلى حيز الوجود ، وتتحقق وحدة العالم الإسلامى ، ولتستطيع الدول الإسلامية أن تعمل مشتركة على التخلص من السيطرة الأجنبية على اختلاف مظاهرها .

وهكذا تطورت دعوة السيد جمال الدين ، فرأيناها فى بداية المرحلة الثانية من حياته قاصرة على الإصلاح الدينى ، ثم انتقلت فى ختام تلك المرحلة إلى الإصلاح السياسى . . أما فى المرحلة الثالثة فقد شملت الناحيتين — الدينية والسياسية معاً — لأن الجامعة الإسلامية إنما تعتمد إلى حد كبير على وحدة الدين ، وتعمل على التخلص من السيطرة الأجنبية — سياسية كانت أو اقتصادية .

رحل السيد جمال الدين من كلكتا قاصداً إنجلترا ، وقد ذكر (١) البعض أنه سافر فى ذلك الوقت إلى أمريكا ليتجنس بالجنسية الأمريكية ، غير أن ذلك أمر مشكوك فى صحته ، إذ ليس من المعقول أن يتنكر « السيد » لوطنه وبلاده لنفيه المتكرر من هذه البلاد وهو الذى يعتبر النفى سياحة ، فمن قوله :

---

(١) S.G. Wilson : Modern Movements among Moslems, p. 72; M.Blunt : Secret history of the British Occupation of Egypt, London, 1907, p. 128.

« إنى أعتقد أن السجن بطلب الحق من الظالمين العتاة « رياضة » والنفى فى ذلك السبيل سياحة ، والقتل شهادة ، وهى أسمى المراتب » (١) .

فكيف يضيق السيد جمال الدين بهذا المنفى ، ويحاول أن يتنكر للبلاد التى طالما جاهد من أجلها لمجرد خروجه من منفى إلى منفى آخر ؟ ؟

كما أن « الشيخ محمد عبده » لم يشر إلى ذلك (٢) فى ترجمته للسيد جمال الدين ، وكذلك المستر براون(٣) وهو صديق شخصى للسيد جمال الدين .

كما أن « جمال الدين » حينما خرج من الهند قاصداً أوروبا ، كتب إلى الشيخ « محمد عبده » كتاباً من بور سعيد يخبره فيه بعزمه على السفر إلى لندن ، ومما جاء فيه قوله (٤) :

« وأنا — الآن — فى « برط السعيد » أذهب إلى « لندرة » . إن أخبار العالم وحوادثه كانت قد انقطعت عنى مدة سبعة أشهر ، ولهذا لا أدرى مستقر العارف — الآن — أخبره بسفرى ، والتفصيل فى مكتوب آخر يصلك من « لندرة » « إن شاء الله » .

وهكذا يتبين لنا أن « السيد جمال الدين » ذهب إلى لندن بعد مغادرته الهند ، ولم يتوجه إلى أمريكا كما يزعم البعض . . . ولسنا نعرف كثيراً عن أعمال « السيد » فى لندن خلال هذه الزيارة الأولى للعاصمة الإنجليزية ، خاصة وأنه لم يقم بها سوى أياماً قلائل « كما ذكر الشيخ محمد عبده » (٥) .

وبعد أن ترك « السيد جمال الدين » مدينة لندن ، سافر إلى باريس ، وظل بها ثلاث سنوات ، فماذا كانت جهود « السيد » فى باريس خلال هذه

---

(١) محمد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين ، ص ٢٣ .

(٢) الشيخ محمد عبده : مقدمة الرد على الدهريين ، ص ١٤ .

(٣) E. G. Browne : The Persian Revolution, Cambridge, 1910.

(٤) الشيخ رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ١ ، الطبعة الأولى ، المنار ، ١٩٣١ ، ص ٢٨٤ . والمقصود بالعارف هنا هو تابعه أبو تراب .

(٥) الشيخ محمد عبده : مقدمة الرد على الدهريين ، ص ١٤ .

الفترة ؟ ؟ وما برنامجه الذى رسمه لنفسه ؟ ؟ ولماذا اختار مدينة باريس بالذات ليجعلها مركزاً لنشاطه ، وميداناً لعمله ؟ ؟

فى باريس :

ذهب « السيد جمال الدين » إلى باريس ليصدر جريدة تعبر عن آراء « جمعية العروة الوثقى » وهى جمعية إسلامية تكوّنت فى ذلك الحين ، وكان القائمون بها جماعة من أهل مصر والهند ، سعوا إلى إعادة الحكم الإسلامى ، ودعوة الأمم إلى الاتحاد والتضامن ، ومقاومة الاستعمار فى الهند ومصر ، وأخذوا ينشرون الدعوة بين المسلمين الذين يفدون إلى مكة فى موسم الحج ، ثم حاولوا نشر أفكارهم بوسيلة أخرى ، فاختاروا أن تكون لهم جريدة «تصدر بلسان عربى ، فى مدينة حرة كمدينة باريس ليتمكنوا بواسطتها من بث آرائهم ، وتوصيل أصواتهم إلى الأقطار القاصية ، تنبيهاً للغافل ، وتذكيراً للذاهل ، فرغبوا إلى السيد جمال الدين الحسينى الأفغانى أن ينشىء تلك الجريدة ، بحيث تتبع مشربهم ، وتذهب مذهبهم »(١) .

فالسيد جمال الدين إنما انتقل إلى باريس ليقوم بإنشاء تلك الجريدة التى تعمل على مناهضة الاستعمار ، وتنبيه الأذهان إلى الخطر المحدق بهم ، ومهاجمة السياسة الإنجليزية فى الشرق عامة وفى مصر خاصة ، وإثارة خواطر أهل مصر والهند حتى لا يستسلموا للمستعمرين الإنجليز .

وقد كان الشيخ محمد عبده — فى ذلك الحين — فى منفاه بمدينة بيروت ، وكان على صلة بالسيد جمال الدين فكتب إليه رسالة يعبر فيها عن حالته ، ويصف له ما حل بمصر بعد الاحتلال ، ويبين له أنه ما زال مقيماً على العهد ، سالكاً السبيل الذى رسمه له « السيد » ، ومما جاء فيها قوله (٢) :

« وها نحن سالكون فى سننك وعلى سننك ، وكنا كذلك ولا نزال ، إلى انقضاء الآجال ، ولولا أطفال لنا رضع ، ونساء لنا طوع ، أبينا لهم الذل ،

(١) مجلة العروة الوثقى : خاتمة المقالات (العدد الأول) ، ص ٤٢ ، ٤٣ .
(٢) الشيخ رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، الجزء الثانى ، ص ٥٩٩—٦٠٣ .

وأنفنا لهم الضيم ، فأتينا بهم إلى هنا — إلى حيث أقمنا — لكنت أول من تلقاك فى مدينة باريس » .

ولذا لم يلبث « السيد جمال الدين » إلا قليلا ، حتى بعث للشيخ محمد عبده ، ليوافيه فى باريس ، وليعملا معاً فى « جريدة العروة الوثقى » وليكون المحرر الأول لها ، فأجاب الشيخ محمد عبده أستاذه ، وسافر إلى باريس فى أوائل عام ١٨٨٤ م .

جمعية العروة الوثقى :

أخذ « السيد جمال الدين » والشيخ محمد عبده يعملان معاً على تنظيم « جمعية العروة الوثقى » ، وبث الدعوة لها فى مختلف الأقطار الإسلامية ، فقد كان هدف الجمعية والمجلة، إيقاظ الشرق وحثه على النهوض وتحريره من الاستعمار ، وتأسيس الحكومات الدستورية فيه ، وتحقيق الإصلاحات التى تقتضيها حالة العصر فى بلاد الإسلام ، وقد وضع الشيخ محمد عبده صيغة القسم الذى يرتبط به أعضاء الجمعية جاء فيه :

« أقسم بالله العالم بالكلى والجزئى ، والجلى والخفى ، والقائم على كل نفس بما كسبت ، الآخذ لكل جارحة بما اجترحت ، لأحكمن بكتاب الله فى أعمالى وأخلاقى بلا تأويل ولا تضليل . . ولأدعون لنصرته . . أقسم بالله . . لأبذلن ما فى وسعى لاحياء الإخوة الإسلامية . . » (١) .

ومن هذا القسم يتبين لنا أن الهدف الأسمى للجمعية :

هو العمل بكتاب الله ، والدعوة لنصرة دين الله ، وتقوية الروابط بين المسلمين . .

وقد وضعا للجمعية نظاماً سرياً دقيقاً ، وجعلا لها فروعاً فى مختلف البلاد الإسلامية ، وكل جماعة تنضوى تحت لواء الجمعية ، إنما تكوّن لنفسها عقداً خاصاً ، ويتكون (٢) العقد من ثلاثة يقسمون اليمين المعهود ، وكل

---

(١) الشيخ رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، جـ ١ ، ص ٢٨٧ .
(٢) المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢٨٤ — ٢٨٧ .

واحد منهم مكلف بدعوة الناس إلى عقده والارتباط به مع الاحتراس التام ، ولا تصدر الثقة بمن يريد الانضمام إلى العقد إلا بعد اتفاق أفراد الجماعة على اختياره وعلى أهل العقد أن يرسلوا رسلا إلى نواحي الوطن الذى يعيشون به ، وإلى المواطن المستعدة لقبول الدعوة متى أمكنهم ذلك ، ومن استحق باستعداده الدخول فى العقد فعليه أن يقدم رسما مالياً أقله مائة فرنك وأوسطه مائتان وأكثره ثلاثمائة ، ويجتمع أهل العقد فى كل أسبوع مرتين ، وعلى كل عضو أن يؤدى آخر كل جلسة مقداراً من النقود على حسب استطاعته قليلا أو كثيراً ، يضعه فى صندوق صغير له فوهة ضيقة ، ولا يستثنى من ذلك أحد . . . .

ولقد بذل « الشيخ محمد عبده» جهوداً عظيمة فى نشر مبادىء الجمعية والاتصال بأعضائها ، فلا يكاد يسمع عن عقد جديد حتى يتصل بأفراده ، ويصف إليهم طريقة الدعوة ، وجمع الأعضاء، من ذلك قوله لأحد الأعضاء يبين له الطريقة التى يتبعها لضم عضو جديد إلى الجماعة :

« وادخل إليه ابتداء من طريق لا يعرفه ، وتلطف له فى القول ، وإن شئت أطلعته على شىء من مقالات العروة الوثقى ، فإذا انتهيت به إلى ما يعرف ، وآنست فيه الميل والرضاء ، فإما أن يكتب إلىّ ، وإما أن يستعد لتلقى كتاب منى ، ثم سراع إلى بالخبر . . . » (١) .

لقد كانت « جمعية العروة الوثقى » تنفق على الجريدة ، لتوزع مجاناً على جميع من يطلبونها ، ومن هنا جاء اهتمام « السيد جمال الدين » والشيخ محمد عبده بتنظيم فروع الجمعية ، والعمل على زيادة أعضائها . . .

جريدة العروة الوثقى :

صدر العدد الأول من الجريدة فى (٥ جمادى الأولى من عام ١٣٠١هـ — الموافق ١٣ مارس من عام ١٨٨٤ م (وكان السيد جمال الدين مديراً للجريدة ، والشيخ محمد عبده محرراً لها ولذلك جمعت مقالاتها بين روح « السيد جمال الدين» وقلم «الشيخ محمد عبده» فجمعت بين قوة المعنى ورصانة اللفظ ،

---

(١) الشيخ رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ٢ ، ص ٥٥٩ .

وكان يقوم بالترجمة من الصحف الإنجليزية رجل فارسى اسمه (١) « مرزا محمد باقر » تعلم فى مدارس الهند الإنجليزية وهو صغير ، فتنصر وسمى « ميرزا يوحنا » وكان السيد جمال الدين قد عرفه من قبل فى ثغر « بوشير » فى إيران ، وكان يقول الأشعار فى هجاء الرسول ، وكان مسلمو تلك الجهات لا يقدرون على معارضته خشيه شره ، وحماية الإنجليز له ، ثم جعل يتردد على « السيد جمال الدين » من وقت إلى آخر ، فلما تمادى فى أقواله وطعنه فى الرسول ، نهاه «السيد» أن يذهب إلى داره ، فلم يكترث « ميرزا » لقوله . . . فهيأ السيد جماعة من الأفغان بالهراوى الضخمة أمرهم بضربه وطرده ، فلما ذهب السيد إلى باريس ، وأصدر جريدة العروة الوثقى ، وافاه بها « ميرازا باقر » وأخبره برجوعه إلى الإسلام ، وأظهر استعداده للعمل لخدمة الإسلام والمسلمين ، وعرض على « السيد » رغبته فى العمل بجريدة « العروة الوثقى » فكلفه بالترجمة عن اللغة الإنجليزية التى كان يتقنها نثراً ونظماً .

والقارىء لمقالات العروة الوثقى يرى أنها كانت تعمل فى سبيل الجامعة الإسلامية ، وتوحيد قوى المسلمين ، كما كانت تعمل على إثارة المصريين والهنود على الحكم الإنجليزى ، وتدعوهم إلى المطالبة بحقوقهم كاملة ، وعدم التفريط فيها ، وكانت تحارب الأمراض الاجتماعية التى ظهرت فى دول العالم الإسلامى كالوهم . . والجبن . . وقد لخصت الجريدة أغراضها فى أول عدد لها وأهمها (٢) :

أولا : إفهام الشرقيين واجباتهم التى كان التفريط فيها موجباً لسقوطهم ، وتوضيح الطرق التى يجب سلوكها لتدارك ما فات .

ثانياً : إفهامهم كذلك أن الأمل فى النجاح قريب ، وإزالة ما حلَّ بهم من اليأس .

---

(١) E.G. Browne : A year amongst Persians p. 12—15.

(٢) جمال الدين الأفغانى : العروة الوثقى ، ص ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ .

ثالثاً : دعوة المسلمين كافة إلى التمسك بالأصول التى كان عليها آباؤهم وأسلافهم ، فلا يصلح آخر هذا الأمر إلا بما يصلح به أوله . . .

رابعاً : الدفاع عما يُرمَى به الشرقيون عموماً ، والمسلمون خصوصاً من التهم وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون فى المدنية ما داموا متمسكين بأصول دينهم .

خامساً : إخبار الشرقيين بما يهمهم من حوادث السياسة العامة والخاصة .

سادساً : تقوية الروابط والصلات بين الأمم الشرقية . . وتمكين الألفة بين أفرادها ، وتأييد المنافع المشتركة بينهم . . .

وقد كانت أغلب مقالات الجريدة تتعلق :

بالجامعة الإسلامية .

والمسألة المصرية . . .

فمن قول السيد جمال الدين بشأن **الجامعة الإسلامية** (١) :

« إذا تصفحنا تاريخ كل جنس ، واستقرينا أحوال الشعوب فى وجودها وفنائها ، وجدنا هذه سنة الله فى الجماعات البشرية ، **حظها من الوجود على مقدار حظها من الوحدة** ، ومبلغها من العظمة على حسب تطاولها فى الغلب .

وما أهلك الله قبيلا إلا بعد ما رزئوا بالافتراق ، وابتلوا بالشقاق » .

ويرى أن دول الغرب لم تتمكن من السيطرة على بلاد العالم الإسلامى إلا لعدم وجود رابطة تجمع بينهم ، وتوحد بين آمالهم ، فمن قوله :

« كل هذه الرزايا التى حطت بأقطارنا ، ووضعت من أقدارنا ما كان قاذفنا ببلائها ، ورامينا بسهامها ، **إلا افتراقنا وتدابرنا والتقاطع الذى نهانا الله ونبيه عنه** » (٢) .

ويقول أيضاً :

« وليس على المسلمين فى استرجاع مكانتهم الأولى والصعود إلى مقامهم

(١) العروة الوثقى : ص ١٥٩ . (٢) العروة الوثقى : ص ١٦٥ .

الأول ، إلا أن يجمعوا كلمتهم ، ويتعاونوا على ما يقصدون من إعزاز ملتهم » (١) :

وكان يبدأ مقالاته بآيات من كتاب الله ، وأحاديث الرسول ، معظمها يدعو إلى الاتحاد ، ويحض على ترك المنازعات بين المسلمين ، من ذلك قوله فى فاتحة إحدى المقالات :

« واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » (آل عمران : ١٠٣) (٢)

وقوله « إذا أراد الله بقوم خيراً جمع كلمتهم » (٣) .

وقوله « وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » (الأنفال : ٤٦) (٤) .

وقوله « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » (٥) .

فهذا هو المبدأ العام الذى كان يدعو إليه « جمال الدين » .

أما طريقة تكوين الجامعة الإسلامية فسوف أبينها فيما بعد . . .(٦).

أما سياسته إزاء المسألة المصرية فقد كانت قائمة على تنبيه الأذهان ، وإثارة الوعى القومى لدى المصريين ليقاوموا الاحتلال ، كما كان يطالب الدولة العثمانية بالسعى لاسترداد مصر باعتبارها صاحبة الحق الشرعى فيها ..(٧) ، كما انتهز فرصة قيام الثورة المهدية ودعا المسلمين إلى مساعدة المهدى وتأييده ، وكان يرى فى دعوته خلاصا لمصر والبلاد الإسلامية من الاحتلال... وقد شغلت المسألة المصرية جانباً كبيراً من تفكير « السيد » وجريدته ، ولا عجب فى ذلك فقد أقام « السيد » فى مصر فترة تعتبر من أخصب سنى حياته وأقواها أثراً فى تكوينه السياسى ، كما أنه كان يضرب الأمثال بالمسألة المصرية حتى لا تقع دولة شرقية فيما وقعت فيه مصر ، ولتكون عبرة لمختلف دول العالم الإسلامى .

---

(١) العروة الوثقى : ص ١٨٣ .
(٢) العروة الوثقى : ص ٨٥ .
(٣) العروة الوثقى : ص ٢١٥ .
(٤) العروة الوثقى : ص ١٤٦ .
(٥) العروة الوثقى : ص ١٥٨ .
(٦) راجع الفصل الثانى : ص ٦٤ .
(٧) راجع الفصل الرابع : ص ١٤١ .

ولقد أحس بعض ساسة الإنجليز بحملة « العروة الوثقى » وأرادوا التفاهم مع القائمين بها ، فبعثوا إلى « السيد جمال الدين» فى ذلك ، فذهب فى أول الأمر للتفاهم بشأن ثورة المهدى، وقابل اللورد سالسبورى إلا أنهما لم يصلا إلى إتفاق .

وفى المرة الثانية ذهب الشيخ محمد عبده ليتفاهم معهم بشأن المسألة المصرية ، فذكر « السيد جمال الدين » الأسباب التى دعته إلى أن يبعث بالشيخ محمد عبده إلى لندن فقال :

« رأينا أن يذهب الشيخ محمد عبده « المحرر الأول لهذه الجريدة » إلى « لندرة » إجابة لدعوة من يرجى منهم الخير لملتنا ، ومن يؤمل فيهم صدق النية (١) « إشارة إلى مستر بلنت » (٢) .

قابل الشيخ محمد عبده بعض رجال السياسة الإنجليزية ، وجرت بينه وبينهم محادثات طويلة ، ومن هذه المحادثات ما نشر إذ ذاك فى الجرائد الإنجليزية ، كجريدة البال مال جازيت وجريدة التروث التى يحررها النائب لابوشير وجريدة التيمس، واكتفى السيد جمال الدين بذكر محادثات كانت بين الشيخ محمد عبده ووزير الحربية الإنجليزية لورد « هرتنكتون » خلاصتها أن وزير الحربية سأل الشيخ محمد عبده (٣) :

ألا يرضى المصريون أن يكونوا فى أمن وراحة تحت سلطان الحكومة الإنجليزية وهى خير من حكومة الأتراك ؟ ؟

فأجابه الشيخ محمد عبده بأن المصريين قوم عرب وكلهم مسلمون إلا قليلا ، وفيهم من محبى أوطانهم مثل ما فى الشعب الإنجليزى ، فلا يخطر ببال أحد منهم الميل إلى الخضوع لسلطة من يخالفه فى الدين والجنس .

ولما أخبره الوزير أن معظم المصريين متأخرون ، وأنهم لا يفرقون بين الحاكم الأجنبى والحاكم الوطنى أجابه الشيخ محمد عبده بأن مقاومة الأجنبى

(١) العروة الوثقى : ص ٤٧٤ .

(٢) Osman Amin : Muhammad Abduh; op. cit., p. 13.

(٣) العروة الوثقى : ص ٤٧٥ ، ٤٧٦ .

شيء فطرى ، طُبعت عليه النفوس البشرية وليس فى حاجة إلى الدرس والمطالعة ، كما أن المسلمين لا يصلون من الجهل إلى الدرجة التى يتصورها الوزير . . .

كما أن أرض مصر قد انتشرت فيها العلوم من زمن محمد على ، وقد علق السيد جمال الدين على ذلك بقوله :

« أين العلماء الأذكياء ؟ ؟ ؟ أين الجهلة الأغبياء ؟ ؟ ؟ أين الأباة الأعلياء؟؟

أين السفلة الأدنياء ؟ ؟ ؟ لىرى كل واحد منهم منزلة الشرقيين عند رجال الحكومة الإنجليزية،فهم يعتقدون أن الأمم الشرقية والأمة المصرية فى درجة الحيوانات السائمة ، والدواب الراعية . . . الخ (١) .

وقد أخذت الجريدة هذا الحديث وسيلة للتهييج وإثارة الشعور حتى ضاقت الجرائد الإنجليزية بحملات السيد جمال الدين ، وأخذت تنادى بضرورة وقفها ، ومنعها عن الصدور . فرد عليهم السيد قائلا :

« ولكن فلتعلم الحكومة الانجليزية ، أننا لا يعجزنا بث أفكارنا فى البلاد الشرقية ، سواء كان بهذه الجريدة أو بوسيلة أخرى ، إذا دعا الحال ، فإن أنصار الحق كثيرون » (٢) .

وكانت الجريدة توزع فى مختلف بلاد العالم الإسلامى ، كما اهتمت الجرائد الهندية بترجمة مقالاتها ونقلها إلى اللسان الهندى وخاصة جريدة « أخبار دار السلطنة » التى نطبع فى كلكتا وجريدة « مشير قيصر » التى تطبع فى « لكهنو » (٣) .

موقف الحكومات من الجريدة :

خشيت الحكومة الإنجليزية خطر الجريدة فى مصر والهند ، فأمرت بمنعها من الدخول ، وانعقد مجلس النظار المصرى فى القاهرة ، واهتم بالبحث فى شأن « العروة الوثقى » ثم أصدر قراره إلى نظارة الداخلية المصرية ،

(١) العروة الوثقى : ص ٤٧٧ .
(٢) العروة الوثقى : ص ٣٤٠ .
(٣) العروة الوثقى : ص ٣٤٠ .

قاضياً عليها بأن تشدد فى منع الجريدة من دخول الأقطار المصرية (١) « حفظاً للنظام العمومى » .

وقد علقت جريدة « العروة الوثقى » على هذا القرار بقولها : « وبلغنا أن الجريدة الرسمية بعد نشرها صورة الأوامر التى أعلنت أن كل من توجد عنده « العروة الوثقى » يغرم مبلغاً من خمسة جنيهات مصرية إلى خمسة وعشرين جنيهاً (٢) .

أما نحن فلا نظن أحداً من النظار المصريين له رأى اختيارى فى هذا القرار ، بل لا نتوهم فى المستوى على كرسى الخديوية ميلا إلى مثل هذا الحكم » .

إلى أن قالت :

« فلا غرابة فى صدور مثل هذا الجور منها ، غير أننا نعلن أن همم الرجال لا تقعدها أمثال هذه المظالم ، وليس يعجزنا إدخال هذه الجريدة فى كل بقعة تحوطها السلطة الإنجليزية الظالمة ، ذلك بعزائم أولى العزم الذين قاموا بإنشاء العروة الوثقى » .

وظلت الجريدة تصدر بعد ذلك حتى أقيمت فى سبيلها العقبات ، واشتدت عليها المراقبة ، واستحال وصول الأعداد إلى أصحابها إلا فى القليل النادر ، ولذلك احتجبت الجريدة وسافر الشيخ محمد عبده إلى بيروت ، بينما بقى « السيد جمال الدين » فى فرنسا(٣) ، وقد أحدثت جريدة « العروة الوثقى » ـ خلال هذه الفترة القصيرة ـ أثراً كبيراً فى العالم الإسلامى .

ولذلك يقول الشيخ رشيد رضا :

« سمعت أستاذنا الشيخ حسيناً الجسر — عالم سوريا الوحيد فى الجمع بين العلوم الإسلامية ، ومعرفة حالة العصر السياسية والمدنية ، يقول : « ما كان أحد يشك فى أن جريدة العروة الوثقى ستحدث انقلاباً عظيماً فى العالم الإسلامى لو طال عليها الزمان »(٤) .

---

(١) الوقائع المصرية ، عدد ١٥ مايو سنة ١٨٨٤ .

(٢) العروة الوثقى : ص ٣٩٣ — ٣٩٥ .

(٣) Osman Amin : Muhammad Abduh, op. cit., p. 14.

(٤) الشيخ رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، جـ ١ ، ص ٣٠٤ .

ويقـــول :

« سمعت محمد بك على المؤيد يقول : كنت فى بغداد فى عهد صدور العروة الوثقى ، وكانت ترسل إلى الزعيم العربى الأكبر فى العراق — السيد سلمان الكيلانى — نقيب السادة الأشراف وكان يقول :

كلما جاء عدد منها يوشك أن تقع ثورة من تأثير هذه الجريدة قبل أن يجىء العدد الذى يليه :

رأى رينان فى السيد جمال الدين :

بقى « السيد جمال الدين » فى فرنسا ، متنقلا بين مدنها ، وكاتباً فى صحفها ، وفى ذلك الحين ألقى « رينان » محاضرة عن علوم العرب ومدنيتهم قال فيهـا :

- « إن الإسلام لا يشجع على العلم ، والبحث الحر ... » فرد عليه جمال الدين رداً علمياً دقيقاً مما جعل « رينان » يتنازل عن كثير من آرائه ويقول عن « السيد جمال الدين » :

«تعرفت بالشيخ جمال الدين من نحو شهرين ، فوقع فى نفسى منه ما لم يقع لى إلا من القليلين وأثر فىّ تأثيراً قوياً ، والشيخ جمال الدين نفسه خير دليل يمكن أن نسوقه على تلك النظرية العظيمة التى طالما أعلناها وهى :

« أن قيمة الأديان بقيمة من يعتنقها من الأجناس » .

وقد خيل إلىّ من حرية فكره ، ونبالة شيمه وصراحته — وأنا أتحدث إليه — أنى أرى أحد معارفى من القدماء وجهاً لوجه ، وأنى أشهد ابن سينا ، أو ابن رشد ... »(١) .

وهكذا شهد له الغربيون والشرقيون بالعلم والفضل حتى ذاع صيته ، وعُرف اسمه فى كثير من بلاد العالم ، وخاصة فى بلاد العالم الإسلامى .

(١) Osman Amin : Muhammad Abduh : po cit., P. 5,
E. Renan : Article dans le Journal des Débats, Paris 19 Mai 1883.

وقد سمع عنه « الشاه ناصر الدين » الفارسي ، فأرسل إليه برقية يدعوه فيها إلى إيران ، فرحل إليها السيد سنة ١٨٨٦م .

فى إيران :

أراد الشاه « ناصر الدين » أن يستعين « بالسيد جمال الدين » فى حكم البلاد ، فعينه وزيراً للحربية ، وأطلق يده فى شئون الجيش ينظمها كما يشاء ، وكان يقال :

« إن الشاه لم يكن يقطع برأى من أمور الدولة إلا بعد الرجوع إليه »(١) . وكان السيد جمال الدين طوال مدة إقامته فى إيران يدعو الشعب إلى الاشتراك فى الحكم ، ويطالبه بتغيير النظم والأوضاع القديمة ... فاصطدمت هذه الآراء السياسية الحرة مع نزعة الشاه ناصر الدين الاستبدادية ورغبته فى السيطرة على كل شئون البلاد ، ولذلك تنكر له الشاه مما دعا « السيد جمال الدين » إلى أن يستأذنه فى الرحيل . . فرحل السيد إلى « سان بطرسبورج » بروسيا .

فى روسيا :

أقام « السيد جمال الدين » بروسيا ثلاث سنوات من سنة ١٨٨٦ إلى سنة ١٨٨٩ . . ولسنا نعرف الكثير عن حياة « السيد » خلال هذه الفترة ، ولكن الذى أعتقده أنه **أراد أن يقنع القيصر الروسى بالزحف على الهند** لطرد الإنجليز معتمداً فى ذلك على مساعدة « الدولة العثمانية » ودولة أفغانستان ، وإيران .

وقد سبق له أن جاهر بهذا الرأى فى جريدة العروة الوثقى(٢) كما أنه عمل على إصلاح حال المسلمين الروس وعددهم نحو ثلاثين مليوناً ، وكانوا يعاملون فى عهد القياصرة معاملة جائرة ، وقد عرف عنه أنه سعى عند القيصر فى طبع المصحف وبعض الكتب الدينية لمسلمى الروس ، فأذن له فى ذلك .

---

(١) المخزومى : ص ٥٧ .

(٢) انظر مقال : المسألة المصرية دولية ، بالعروة الوثقى من ص ٣٣٨ — ٣٩٢ .

ومما يروى عنه أن القيصر الروسى سأله عن سر خلافه مع الشاه فقال له « جمال الدين » : « إنه الحكومة الشورية .. أدعو إليها ولا يراها .. » .

فقال القيصر :

« الحق مع الشاه ، فكيف يرضى ملك أن يتحكم فيه فلاحو مملكته» ؟؟ .

قال السيد :

« أعتقد يا جلالة القيصر أنه خير للملك أن تكون ملايين رعيته أصدقاء من أن يكونوا أعداء يترقبون له الفرص »(١) .

وهكذا كان جمال الدين صريحاً فى أحاديثه مع الحكام حتى ولو كان فى حديثه ما يغضبهم . وقد خشى القيصر أن تنتشر آراؤه بين المسلمين الروس ، فأوعز إلى رجاله بإخراجه من « روسيا » دون أن يسيئوا إليه ، فعزم على السفر إلى باريس .

فى ميونخ :

أراد جمال الدين أن يزور معرض باريس سنة ١٨٨٩م ، وفى أثناء سفره من روسيا نزل بميونخ فى ألمانيا وتقابل مع الشاه ناصر الدين ، فطلب منه الشاه أن يعود معه إلى إيران ليجعله رئيس وزرائه ، فرفض السيد جمال الدين ، إلا أن الشاه أخذ يلح فى دعوته حتى قبل الذهاب معه .

فى إيران (للمرة الثانية) :

ذهب جمال الدين إلى إيران للمرة الثانية ، فاستقبله الناس استقبالا عظيماً ، واعتبروه زعيمهم المعبر عن أمانيهم فعمل جمال الدين على إصلاح أحوال البلاد ، وسن القوانين الإصلاحية المختلفة ، ولكن الشاه خشى من هذه الإصلاحات فبدأ يتنكر للسيد جمال الدين ، فلما أحس جمال الدين بهذا التغيير استأذن الشاه فى السير إلى مقام شاه عبد العظيم ، واتخذ مقره الجديد مركزاً لدعوته الإصلاحية الكبرى ، فوفد عليه عدد كبير من أبناء الأمة الإيرانية ليتلقوا مبادئه فى السياسة . فلما أحس الشاه بالخطر ،

---

(١) محمد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين ، ص ٥٨ .

أرسل خمسمائة جندى مسلحين قبضوا على جمال الدين وأبعدوه إلى البصرة .
ومما قاله جمال الدين :

« إن ذلك اللئيم أمر بسحبي وأنا متحصن بحضرة عبد العظيم عليه السلام فى شدة المرض على الثلج إلى دار الحكومة بهوان وصغار وفضيحة لا يمكن أن يُتصَوَّر دونها فى الشناعة »(١) .

وقد أثرت هذه الحادثة تأثيراً عظيماً فى نفس السيد جمال الدين ، فأخذ يصف الشاه بأقبح الصفات وينعته « بالمجرم والخائن البليد والصعلوك الدنىء النسب ، والوغد الخسيس الحسب » إلى غير ذلك من الألفاظ التى تعبر عن حقده على الشاه ، كما حرّض علماء الدولة على مقاومة الشاه ، والقضاء على الامتيازات التى حصلت عليها الدول الأجنبية ، فكان لدعوته أثر كبير فى إلغاء عقد امتياز الدخان الذى حصلت عليه إحدى الشركات الإنجليزية .

فى لندن :

حينما شفى السيد جمال الدين سافر إلى لندن وأخذ يطعن فى الشاه ورجال دولته وساهم فى إخراج مجلة شهرية اسمها « ضياء الخافقين » تصدر بالعربية والإنجليزية ، تحدث فيها عن مساوىء الحكم فى إيران ، واستبداد الشاه ، فلما أحس ناصر الدين بالخطر الذى يتهدده ، أرسل سفيره فى لندن إلى جمال الدين يسترضيه بما شاء من الأموال ولكنه رفض قائلا :

« والله لا أرضى إلا أن يُقتل الشاه وتبقر بطنه ، ويوارى فى القبر »(٢) .

ويقول الأمير شكيب أرسلان : « إن الشاه ناصر الدين لما أعيته الوسائل فى استرضاء جمال الدين بعث إلى السلطان عبد الحميد الثانى يرجوه استقدام السيد إليه ، ووضعه تحت مراقبته ، وقد صادفت هذه الفكرة هوى لدى السلطان عبد الحميد خصوصاً وأنه خشى أن ينضم إلى حزب تركيا الفتية . كان جمال الدين قد اجتمع فى باريس ببعض رجال

(١) خطاب جمال الدين إلى كبير المجتهدين : تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ١ ص ٦١ .

(٢) E.G. Browne : The Persian Revolution p. 24.

الحزب وأطلعوه على خطتهم فى إصلاح أحوال الدولة العثمانية، فراقه مذهبهم، وشجعهم على عملهم .

وبينما كان جمال الدين فى لندن ، ورد عليه كتاب من « المابين الهمايونى » بواسطة رستم باشا سفير تركيا بدعوته إلى الآستانة ، فاعتذر أولا ، ثم ورد عليه كتاب آخر بتكرار دعوته ، فلبى الطلب وذهب إلى الآستانة سنة ١٨٩٢م .

فى تركيا (للمرة الثانية) :

كانت هذه هى المرة الثانية التى يذهب فيها جمال الدين إلى تركيا ، فاستقبل استقبالا حافلا وقربه السلطان إليه ، وأنزله منزلا كريماً فى قصر بحى « نشان طاش » من أفخم أحياء الآستانة ، وأجرى عليه راتباً وافراً ، وكان السلطان عبد الحميد يعمل على الاستفادة بجهوده فى سبيل الجامعة الإسلامية ، إلا أن جمال الدين لم يرغب فى أن تكون الجامعة الإسلامية أداة يسخرها السلطان لتحقيق أغراضه(١) .

لم يلبث السلطان عبد الحميد إلا قليلا ، حتى أساء الظن بمقاصد السيد جمال الدين ، واستمع إلى الوشايات والدسائس التى كان يروجها كثيرون من الحاسدين .

ومما أخاف السلطان عبد الحميد أن الشاه ناصر الدين قتل بيد أحد تلاميذ جمال الدين ، وأنه عندما طـَعن َ طعنته قال : « خذها من يد جمال الدين »(٢) .

ورُوى عن جمال الدين أنه لما بلغه ذلك قال كلمات تدل على الإعجاب بالقاتل ، ولذا خشى منه السلطان على حياته ، فضيق عليه فى مقابلاته ، ومنع زيارته إلا بإذن ، وحدث فى ذلك الحين أن وفد **الخديو عباس حلمى الثانى** إلى تركيا ، فطلب جمال الدين من السلطان أن يسمح له بمقابلته

(١) راجع الفصل الثانى الخاص بحركة الجامعة الإسلامية .
(٢) انظر الفصل الخاص بأثر جمال الدين فى فارس .

فرفض ، وبينما كان « جمال الدين » يتنزه يوماً فى الكاغدخانة « وهو محل نزهة مشهور » قابله الخديو ، ودعاه إلى زيارة مصر ، فاستغل الجواسيس الفرصة وأقبلوا على كتابة التقارير ، ورفعها إلى السلطان عبد الحميد ، زاعمين له أن السيد جمال الدين قد تعاهد مع الخديو على أن يؤسس له دولة عباسية ، وطلب تأميناً من الخديو أن لا يكون جزاؤه على أن يحقق هذا الأمر مثلما كان جزاء أبى مسلم الخراسانى من العباسيين ، ووضعوا بيتين من الشعر نسبوهما إلى « جمال الدين » هما :

شاد الخلافة فى بنى العباس ــ عباس لكن نعته السفاح
ولأنت خــير مملك ستشيدها ــ بالبشر يا عباس يا صفاح(١)

فاستدعى السلطان جمال الدين وسأله فقال :

« إن الأمر بسيط ، فقد كتبت التقارير أننا كنا وحدنا وليس معنا ثالث ، فمن سمع هذا القول ؟ . وانتهى الأمر باقتناع السلطان ، إلا أنه ظل متخوفاً من « السيد جمال الدين » حتى أن السيد حينما طلب من « السلطان » أن يسمح له بالرحيل من الآستانة رفض ، لأنه كان يخاف منه فى الخارج أكثر مما يخافه فى الداخل .

وبلغ التضييق على جمال الدين فى تركيا حده الأقصى ، حتى كان « السيد جمال الدين » يردد دائماً قول أبى الطيب المتنبى :

وما فى طبــــه أنى جــــواد ــ أضر بجسمه طول الجمام

ويقال إن السيد اتصل(٢) بمستشار السفارة الإنجليزية ليساعده على مغادرة البلاد ، فقبل المستشار . فلما بلغ السلطان الخبر ، أرسل إليه أحد حجابه يستعطفه أن لا يمس كرامته إلى هذا الحد ، ولا يلتمس حماية أجنبية ، فثارت فى نفسه الحمية والأنفة ، وأخبر مستشار السفارة بأنه عدل عن السفر . وظل « السيد » بالآستانة حتى أصيب بمرض « السرطان » .

(١) المخزومى : خاطرات جمال الدين ص ١٢٨ .
(٢) شكيب أرسلان : تعليق حاضر العالم الإسلامى ، ج ١ ص ٢٠٤ .

مرضه ووفاته :

شاعت الإشاعات المختلفة حول موت السيد جمال الدين ، **وتواترت** الروايات على أن جمال الدين مات شبه **مقتول** ، وتدل الملابسات **والقرائن** على ترجيح هذه الرواية ، فقد ذكر **الأمير** « شكيب أرسلان » — وكان كثيراً ما يزور السيد جمال الدين فى **أواخر أيامه** — « أنه حينما ظهر فى فمه مرض السرطان ، صدرت الأوامر السلطانية بإجراء عملية جراحية يتولاها الدكتور « قبورزاده اسكندر باشا » كبير جراحى القصر السلطانى ، فأجرى له العملية الجراحية فلم تنجح ، وما لبث إلا أياماً قلائل حتى فاضت روحه ، ومن هنا تقوّل الناس فى قصة هذا السرطان ، وهذه العملية الجراحية ، لقرب عهد المرض بتغير السلطان على السيد ، وما كان معروفاً من وساوس عبد الحميد، فقيل إن العملية الجراحية لم تُعمل على الوجه اللازم لها عمداً ، بحيث انتهت بموت المريض » .

ويقال أيضاً : إن أحد أطباء الأسنان واسمه « جارح » كان له دخل كبير فى موته إذ استمالته « نظارة الضابطة » — إدارة الأمن العام — بالمال ، وطلبت منه أن يتخلص من « السيد » **فظل يعالج أسنانه حتى ظهر فى** فكه السرطان .

وقد روى أحد موظفى قصر السلطان عبد الحميد « **بأنهم كانوا يرون** (جارحاً) بعد موت السيد جمال الدين حزيناً كئيباً كاسف البال ، واجم الوجه ، مما جعلهم يشتبهون بأن يكون ذا يد فى إفساد الجرح بعد العملية ، أو فى توليد المرض نفسه من قبل ، بوسيلة من الوسائل » (١) .

وكانت وفاة « السيد جمال الدين » فى صبيحة يوم الثلاثاء (٩ مارس سنة ١٨٩٧م) . وقد أمر السلطان عبد الحميد بأن يدفن جثمان « **السيد** » فى غير احتفال فى مقبرة المشايخ بالقرب من « نشان طاش » **وأن تصادر أوراقه وتركته** ، كما أصدر أمراً سلطانياً إلى الصحف فى البلاد التابعة للدولة

---

(١) شكيب أرسلان : حاضر العالم الإسلامى ، جـ ١ ، ص ٢٠٤ .

العثمانية بألا تكتب فى شأنه شيئاً . ولم يشيّع نعشه إلا نفر قليل من أصدقائه.

وظل مدفنه مجهولا منسياً ما يقارب الثلاثين سنة حتى اهتدى إليه المستشرق الأمريكى المستر « كراين » فى سنة ١٩٢٦م بعد جهد كبير ، فبنى على قبره تركيبة جميلة من الرخام ، وأحاطها بسور من حديد ، وكتب على أحد وجوه التركيبة اسم « السيد » وتاريخ ولادته ووفاته ، وفى وجه آخر كتابة تركية معناها :

«أنشأ هذا المزار الصديق الحميم للمسلمين فى أنحاء العالم الخير الأمريكانى شارلس كراين سنة ١٩٢٦ » .

وفى سنة ١٩٤٤م ، نقل رفات « السيد » إلى موطنه وتألفت لجنة من كبار الأدباء والأحرار فى بغداد لاستقبال جثمانه ، فلما وصل الجثمان إلى بغداد ، احتفلت به الحكومة العراقية والشعب العراقى احتفالا عظيما ، وألقيت الخطب والقصائد فى تعديد مناقبه ، والإشادة بذكره والتنويه بفضله ، ثم نُقل الجثمان بطائرة خاصة إلى بلاد الأفغان .

وهكذا انتهت حياة عظيم من عظماء العالم الإسلامى ، قضى حياته متنقلا بين أرجائه ، وداعياً إلى إحيائه ، فكان لآرائه وتعاليمه أكبر الأثر فى نهضة العالم الإسلامى الحديث .

* * *

الفصل الثاني

جمال الدين الأفغاني
وحركة الجامعة الإسلامية



جمال الدين الأفغانى وحركة الجامعة الإسلامية

تعتبر حركة الجامعة الإسلامية من أهم الحركات السياسية التى ظهرت فى العالم الإسلامى خلال القرن التاسع عشر ، إذ أحدثت فيه نتائج بعيدة المدى ، عظيمة الأثر ، وكان لها أكبر الفضل فى نمو الوعى السياسى ، وازدياد اليقظة الدينية فى مختلف أرجائه :

وقد فسرت هذه الحركة إذ ذاك تفسيرات مختلفة ، وتضاربت الآراء حول مبعث هذه الفكرة ، والقائمين بها ، والأهداف التى تسعى إلى تحقيقها . وكان لها أنصارها الذين يؤيدونها ويدافعون عنها ، كما وجد لها خصوم هاجموها فى قوة وعنف حتى لايتسع نطاقها ، ويستفحل خطرها .

اعتبرها المسلمون عاملا من عوامل وحدتهم ، ووسيلة لمقاومة التدخل الأجنبى بكافة صوره ، بينما اعتبرها الأوروبيون وسيلة للقضاء على سلطانهم ونفوذهم فقال بعضهم « إنها حركة رجعية ، تنظر إلى الوراء ، وتستلهم الأفكار التى ترجع إلى القرون الوسطى »(١) وقال آخرون : إنها تنطوى على خطر كبير بالنسبة لأوروبا عامة ، والمسيحية خاصة « فهى تدعو إلى التعصب المذهبى والتفرقة بين العناصر الإسلامية » (٢) وإنها ستبعث روح التعصب ، وتغذى عناصر الحقد والكراهية بين المسلمين والمسيحيين على السواء .

كما بالغ بعض المؤرخين الأوروبيين فادعوا أنها « تحرض طبقات العامة وتهيجها ، وأن العالم المتمدين سيرى من أخطار الجامعة الإسلامية ومصائبها أشد مما رأته أوروبا من المتبربرين فى القرون الوسطى » (٣).

---

(١) فيليب حتى : الإسلام فى نظر الغرب ، ترجمة الدكتور إسحق موسى الحسينى ، بيروت ، ١٩٥٣ ، ص ١١ .

(٢) تقرير لورد كرومر عن سنة ١٩٠٦ ، وله ترجمة وتعليق بجريدة المؤيد ، بتاريخ ١٤ ابريل سنة ١٩٠٧ عن كتاب تونس والقوى العظمى ، ص ٢٩٤ ،

Bryce: International relations. P : 23.

(٣) بهجت وهبى : مقال عن الجامعة الإسلامية فى مجلة القرن التاسع عشر الإنجليزية عن : أدب المقالة الصحفية ج ٥ ، ص ٢٦ .

ورغم مقاومة الكتاب ورجال السياسة الأوروبيين لهذه الحركة التي تهدف إلى توحيد العالم الإسلامي ، فقد استمرت في سيرها المنتظم حتى بلغت أوجها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وأصبحت قوة فعالة لها أثرها في معظم بلاد العالم الإسلامي .

ويرجع الفضل الأكبر في ظهور الجامعة الإسلامية بهذا المظهر القوى إلى جهود « السيد جمال الدين الأفغاني » الذي استطاع أن يقوم بدعاية دولية منظمة في مختلف أنحاء العالم الشرقي والغربي على السواء .

كما كان للروح العدائية التي سادت الدول الأوروبية الكبرى في ذلك العهد أثر واضح في استجابة الشعوب الإسلامية لدعوة جمال الدين ؛ ذلك أن دول أوروبا وجدت في أملاك الدولة العثمانية فريسة سهلة لأطماعها وتكشفت نواياها في مؤتمر برلين الذي عقد لتسوية مشاكل الدولة العثمانية في البلقان سنة ١٨٧٨م .. فبعد أن كانت السياسة الأوروبية قائمة على الدفاع عن الدولة العثمانية كقوة ضرورية لحفظ التوازن الدولي في بداية هذا القرن ، أصبحت في السنوات الأخيرة منه قائمة على تمزيق أوصالها ، والاستيلاء على أجزائها الواحدة بعد الأخرى (١) .

وقد صرح بزمارك مراراً بأنه لا يرثى لحال مسيحيي هذه الدولة أو مسلميها على السواء ، فمصير هذه الدولة كما قال مرة متهكماً لا يدعوه لأن يبذل في سبيله دم جندي بروسي واحد ، وأن كل ما يهمه في هذه الأزمة المستحكمة المعقدة المصاعب هو أن يضع نفوذه العظيم في خدمة أصدقائه وليست الدولة العثمانية واحداً منهم (٢) .

ولذا أخذ الضغط الأوروبي يشتد ويقوى ويتحول من ضغط إلى نفوذ فعلي ، واحتلال عسكري ، فاحتلت إنجلترا جزيرة قبرص سنة ١٨٧

(١) راجع : Tunis and the Great Powers : p. 204, p. 216.

(٢) محمد مصطفى صفوت : الاحتلال الإنجليزي لمصر ، ص ١٢٠ عن الوثائق الألمانية .

واستولت فرنسا على تونس سنة ١٨٨١ ودخلت القوات الإنجليزية مصر سنة ١٨٨٢ ، وأضحى النفوذ الأوروبى يحيط بقلب العالم الإسلامى . . (١) .

كانت شعوب الشرق ترى هذا الخطر الذى يهدد كيانها من جانب الدول الأوروبية ، ورأت كل منها مصيرها المحتوم ، فكان من الطبيعى أن تتجه هذه الشعوب نحو الدعوة إلى التضامن ضد هذا الخطر المشترك لتكون كما قال — جمال الدين — « كحلقة فى سلسلة واحدة إذا اهتز أحد أطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر » (٢) .

فهذه الظروف التى أحاطت بالعالم الإسلامى ، والمحن التى توالت عليه ساعدت جمال الدين الأفغانى على أداء رسالته ، وجعلت الناس يحلمون بالوحدة الإسلامية ، وعصر الإسلام الذهبى ،« وكان من نتائجها إيقاظ الشعور بالوحدة الإسلامية ، وتقويته إلى حد لم يسبق له مثيل حتى ذلك الحين ... (٣).

* * *

ومما يمكن أن نلاحظه أن دعوة جمال الدين إلى الجامعة الإسلامية لم تكن أولى الدعوات التى قامت فى العالم الإسلامى ، بل سبقتها حركات إصلاحية ، ودعوات دينية وسياسية . فقد أخذ العالم الإسلامى يتطور تطوراً عظيما ، وتنفعل قواه الباطنية إنفعالا كبيراً منذ بداية القرن الثامن عشر . (٤)

وترجع نهضة العالم الإسلامى إلى الضعف الشديد ، والركود الشامل

---

(١) راجع L. Stoddard :Le nouveau Monde de l' Islam Paris, 1933. p. 384.
كمال الغال : ميثاق جامعة الدول العربية ، دار الفكر العربى ، ١٩٤٨ ، ص ١٧

(٢) العروة الوثقى : ص ٩٤ .

(٣) Gibb : Whither Islam, 1932, 44.

(٤) Lothrob stoddard : Le nouveau monde de L, Islam, p. 27.

الذى غشى بلاد الشرق سواء ماكان منها فى نطاق الدولة العثمانية أو خارجاً عنها ،وكان الضعف والركود اللذين ألمّا بالعالم الإسلامى صورة واضحة لما كان يعتمل فى قلب العالم العثمانى من خمول وانحطاط . . . ففى الوقت الذى نهضت فيه أوروبا فى السياسة والعلم والاقتصاد نتيجة للثورة الفرنسية والتقدم العلمى والانقلاب الصناعى ، كانت عوامل الضعف والانحلال تعتمل فى كيان العالم الإسلامى وتقضى على دعائم حضارته العريقة . . .

وكان لهذا التدهور صداه فى نفوس المصلحين فقامت الدعوة الوهابية فى بداية القرن الثامن عشر ثم تبعتها السنوسية فى شمال إفريقية والمهدية فى السودان ؛ كما قام كثيرون من رواد الإصلاح ودعاته من أمثال السيد أحمد خان والسيد أمير على فى الهند ومدحت باشا فى تركيا وخير الدين باشا فى تونس ومليكم خان فى إيران .

فهذه الحركات الإصلاحية المتعددة اتخذت مظاهر مختلفة ، وصوراً متباينة ولكنها كانت جميعاً ترمى إلى النهوض بالعالم الإسلامى .

فدعوة جمال الدين إلى الجامعة الإسلامية لا يمكن أن ينظر إليها مستقلة عما عداها لأنها كانت تطوراً طبيعياً للحركات الإصلاحية السابقة ، واستجابة لليقظة الإسلامية التى عمت البلاد الإسلامية، وهذا مما دعا بعض المؤرخين إلى اعتبار السيد جمال الدين « منظماً لحركة الجامعة الإسلامية لا موجدها » (٣) .

ويمكن أن نقسم مراحل تطور العالم الإسلامى إلى أدوار ثلاثة .

الدور الأول — وهو مايمكن أن نطلق عليه « دور اليقظة الإسلامية » أو مرحلة « البعث الإسلامى ». وفى هذا الدور انبعثت الحركة الوهابية من قلب الجزيرة العربية مطالبة بإصلاح العقيدة الإسلامية ، والرجوع بالدين إلى أصوله الأولى ، والابتعاد عن البدع الدخيلة . . . فكان لهذه الحركة

---

(١) ويلفرد كانتول سميث : الإسلام فى نظر الغرب ، ص ٤٢ .

أثر كبير فى نفوس المسلمين إذ بعثت فيهم روحاً جديدة ، وأحدثت يقظة فى مختلف أرجاء العالم الإسلامى .

الدور الثانى : وهو ما يمكن أن نطلق عليه « دور النهضة الإسلامية». وفى هذه المرحلة قام كثيرون من دعاة الإصلاح فى معظم بلاد العالم الإسلامى ، وكان بعضهم متأثراً بالدعوة الوهابية مثل السيد أحمد فى الهند ، والإمام الشوكانى فى اليمن .

وكان البعض الآخر متأثراً بالحضارة الغربية التى بدأت تتسرب إلى البلاد الإسلامية ، مثل السيد أحمد خان والسيد أمير على ومدحت باشا ومليكم خان ، وغير هؤلاء كثيرون ، كما تأسست الطرق الدينية المختلفة مثل السنوسية والقادرية والتيجانية والشاذلية .

فكأنه وجد فى هذه المرحلة تياران متعارضان أحدهما يطالب بالعودة إلى القديم ، والرجوع إلى جوهر الدين الإسلامى ، والآخر يطالب بالأخذ بمدنية الغرب .

ولم يكن هذا بالأمر الغريب ، فإن الدعوة إلى الإصلاح الدينى لم تكن تكفى وحدها إزاء طغيان الغرب ، وتفوق حضارته ، وكان من الضرورى أن تصاحبها دعوات أخرى تدعو إلى الأخذ بدعائم الإصلاح العادى ؛ ويمكن أن نجد لهذه الدعوات الإصلاحية شبهاً فى التاريخ فقد قامت النهضة الأوروبية على إصلاح تعاليم الكنيسة ، وتنقية المسيحية من الشوائب التى علقت بها ، ثم تبعتها النهضة العلمية والثورة الاقتصادية التى كان لها أثرها فى تفوق أوروبا المادى وتقدمها فى ميدان الحضارة .

ومما هو جدير بالذكر أن هذه الحركات الإصلاحية التى ظهرت فى العالم الإسلامى ، لم تكن قد اتخذت طابعاً عاماً ، فهى متفرقة من حيث الزمان والمكان ، محدودة بحدود البلاد التى ظهرت فيها .

وقد أحدثت هذه الحركات الإصلاحية المتفرقة ما يمكن أن نسميه بدور « النهضة الإسلامية » .

الدور الثالث : وهو الذى تطورت فيه التيارات الفكرية، والحركات الإصلاحية ، حتى اتخذت صورتها الأخيرة التى عرفت باسم « الجامعة الإسلامية » .

وفى هذا الدور ظهر — جمال الدين الأفغانى — وارتفع صوته فى مختلف بقاع العالم الإسلامى ، ونادى بالرجوع إلى كتاب الله، مع الاستفادة من تفكير الغرب بالقدر الذى ينهض بالبلاد الإسلامية ، وتفسير الدين تفسيراً يتلاءم مع مقتضيات العصر ، وبذلك انتقل بالدعوة من الحيز الضيق الذى كانت محصورة فيه من قبل ، ولاءم بين مختلف التيارات التى ظهرت فى العالم الإسلامى ، فكانت حركته حركة شرقية إسلامية فيها إتجاه للغرب، ولكن فى إيمان بالشرق وتراثه ، ووحدة شعوبه وتقاليده .. (١) .

هذه هى الأدوار الثلاثة التى يمكن أن نرجع إليها تطور النهضة الإسلامية ...فلنتحدث عن هذه الاتجاهات المنتظمة فى سير الجامعة الإسلامية بشىء من التفصيل .

❊ ❊ ❊

دور اليقظة الإسلامية

قامت حركة البعث الإسلامى من قلب الجزيرة العربية — مهد الإسلام وموطنه الأصلى — فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر . وتدين هذه الحركة فى وجودها إلى الفقيه المعروف « محمد بن عبد الوهاب » الذى طالب بالرجوع بالدين الإسلامى إلى بساطته الأولى حيث التوحيد الصحيح والعزة الحقة .

لاحظ « محمد بن عبد الوهاب » أن الدين الإسلامى دخلته كثير من البدع التى لا تنتمى إليه فى شىء ، وأن العالم الإسلامى عدل عن التوحيد

---

(١) حسين فوزى النجار : السياسة الاستراتيجية فى الشرق الأوسط ، جـ ١ ، مكتبة النهضة ، ١٩٥٣ ، ص ٢٨٩ .

المطلق الخالص من كل شائبة إلى أن يشرك مع الله كثيراً من خلقه ، فأصبح للأولياء مقام كبير فى نفوس العامة والخاصة ، يحجون إلى أضرحتهم ويقدمون لها النذور ويعتقدون أنها قادرة على دفع الأذى ، وجلب الخير .

«وكان للقلوب تعلق شديد بهذه الأضرحة لطول الأمد عليها ، وكان الأفراد ينظرون إليها فى رهبة وقدسية أخذوها بالوراثة التى امتزجت بنفوسهم فى جميع أدوار حياتهم ، وليس فى الناس من يقوم بالإنكار على هذه البدع ، ، ولا من يرد الناس عنها إلى الدين الصحيح إما لتعلق بها ، وحرص عليها لأنها مورد رزق وسبيل رياسة ، وذلك شأن المتصوفة ، وسدنة المقابر والموظفين فى خدمتها ، وإما لجهل بحقيقة الإسلام وهذا شأن الغالبية العظمى من المسلمين (٢) .

رأى « محمد بن عبد الوهاب » ذلك أثناء إقامته فى الحجاز ، ورحلاته إلى كثير من بلاد العالم الإسلامى ، رأى أن التوحيد الذى هو مزية الإسلام الكبرى داخله كثير من الفساد ، وأوشك على الضياع فشغلت ذهنه فكرة التوحيد فى العقيدة مجردة من كل شريك ، وآلى على نفسه أن يدعو إلى الرجوع إلى جوهر الدين ...(٢). وكان فى ذلك متأثراً بتعاليم «ابن تيمية» الذى عاش فى القرن السابع الهجرى فى زمن السلطان الناصر ، واتبع منهجه فى الإصلاح ، فحمل على الفقهاء والمتصوفة وهاجم البدع والضلالات والتوسل بالأولياء والمشايخ والأضرحة (٣).

وقد اختار ابن عبد الوهاب لدعوته البيئة المناسبة لها وهى البيئة الصحراوية التى تميل إلى الزهد والتقشف بطبيعتها .

---

(١) محمد حامد الفقى : أثر الدعوة الوهابية فى الإصلاح والعمران فى جزيرة العرب وغيرها ، مطبعة النهضة ، ١٣٥٤ ﻫ ، ص ٣٨ .

(٢) S. Zwemer : The Mohammedan World of to-day, p. 106.

(٣) حسين فوزى النجار : السياسة الاستراتيجية فى الشرق الأوسط ص ٢٨٠ ، عبد المتعال الصعيدى : المجددون فى الإسلام من القرن الأول إلى الرابع عشر ، ص ٤٣٨ .

ويرى البعض « أنه باختياره بلاد العرب سواء كان ذلك عن قصد أو غير قصد إنما اختار نفس الميدان الذى اتخذه كثيرون من المصلحين الذين سبقوه والذين تبعوه ، كما أنه اختار منطقة منعزلة بعيدة عن متناول القوى السياسية المنظمة حيث يجد فيها حقلا خصيباً ، وتربة صالحة لبث تعاليمه ودعوته ، وحتى يتمكن من إقامة دولته الدينية لو هيىء له النجاح »(١).

ومما أدركه « ابن عبد الوهاب » أن رسالته الدينية لابد لها من سند سياسى يعززها لأن النظريات لاتنتصر بقوتها وصدقها فحسب ، بل بما يؤيدها من قوى مادية وسياسية ، فتحالف مع أمير الدرعية « محمد بن سعود » وبهذا التحالف اكتسب مكانة أدبية عالية ، ومنزلة اجتماعية رفيعة ، وقوة حربية لايستهان بها ، وأخذت دعوته فى الانتشار السريع داخل الجزيرة العربية . . وفى عام ١٧٩٢ م توفى محمد بن عبد الوهاب وكان حليفه قد توفى قبل ذلك بثلاثة وثلاثين عاماً ، فخلفه ابنه عبد العزيز . . .

وفى عهد « عبد العزيز » وعهد ابنه « سعود » استطاعت القوى التى حركتها التعاليم الجديدة أن تخرج من نجد لتنازع الخليفة العثمانى وتهدد سلطانه» (٢) .

فاتجهت حملات الوهابيين إلى العراق ، وتمكنت من الوصول إلى أبواب بغداد ، وأخذ الدعاة الوهابيون يتسربون إلى المدن العراقية يخطبون على المنابر لنشر دعوتهم ، واجتذاب الناس إلى مبادئهم ، فلقيت الدعوة القبول من الكثيرين ، وانهالت على جيوشهم أفواج من المتطوعين . . . وفى عام ١٨٠١ م قامت جيوش الوهابيين بأخطر ماقامت به نحو العراق من حملات ، « فهاجمت كربلاء مركز الشيعة ، واستباحت حرمة أماكنها المقدسة وخاصة قبر الحسين » (٣) .

---

(١) Gibb : Modern Trends in Islam, Chicago, 1946, p. 26.

(٢) Antonius : The Arab awakening, Londor, 1938, p. 22.

(٣) Longrigg : Four centuries of Modern Iraq, p. 312

وكان من نتائج هذه الغزوات المتكررة على العراق زيادة نفوذ الوهابيين ، واتساع نطاق دعوتهم ، حتى روى سائح فرنسي « أن الناس لايتحدثون فى بغداد إلا عن الوهابيين » (١) .

اتجه الوهابيون بعد ذلك نحو مكة والمدينة وغزوا بلاد الشام وهددوا دمشق وحلب ، وأعلنوا خروجهم على خلافة الأتراك ، (٢)حينئذ أدرك العثمانيون خطر هذه القوة الجديدة الفتية وخشوا على نفوذهم وسلطانهم الذى أوشك أن ينهار فى البلاد العربية وخاف السلطان أن يظهر بمظهر الضعف والعجز أمام العالم الإسلامى وهو الذى يحرص على أن يكون خليفة المسلمين ، « سلطان البرين والبحرين وخادم الحرمين الشريفين » .

فقام بمحاربة الدعوة ، وحرص على أن يشوه مبادئها فى نظر المسلمين واستعان بمحمد على والى مصر فى ذلك الحين ، فلم يمض إلا وقت قصير حتى تغلب «محمد على » على قوة الوهابيين السياسية ،وبذلك أسدل الستار على الدعوة السياسية ، وتأخر قيام الدولة قرابة مائة عام إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى حيث نجح عبد العزيز آل سعود فى إقامة مملكة سعودية وهابية فى نجد والحجاز .

« إلا أن خاتمة هذا الدور السياسى — الذى انتهى بحروب محمد على — كان فاتحة الدور الدينى ، وما فتىء الوهابيون منذ قضى على قوتهم السياسية يبثون روح الحركة الدينية فى مئات الألوف من الحجاج الوافدين كل عام إلى مكة والمدينة من كل قطر من أقطار العالم الإسلامى » (٣) .

ويجمع معظم المؤرخين (٤) الذين كتبوا عن الدعوة الوهابية على أنها

---

(١) Ibid , p. 302.

(٢) راجع كتاب الملك سعود إلى السلطان العثمانى بكتاب الفقى : أثر الدعوة ، ص ٨٠ و ٨١

(٣) Stoddard : Le nouveau Monde de L' Islam, p. 33.

(٤) راجع حافظ وهبة : جزيرة العرب فى القرن العشرين ، Gibb : Modern Trends in Islam; Antonius : The Arab awakening; w.G. palgrave : Essays on Eastern questions; D.B. Macdonald : Muslim Theology p. 129, 130.

— وإن فشلت فى إعادة الدولة الإسلامية إلى سابق مجدها ، وتحقيق وحدة العالم الإسلامى تحت لوائها — ، إلا أن تعاليمها أثارت بعثاً دينياً فى مختلف أرجاء العالم الإسلامى كان له أثره فى سير الجامعة الإسلامية .

* * *

دور النهضة الإسلامية

أثارت الدعوة الوهابية بعثاً جديداً فى العالم الإسلامى، وسرت تعاليمها إلى اليمن والعراق والسودان وشمال إفريقيا وانتشرت كذلك فى بقاع نائية مثل نيجيريا وسومطرة (١) .

فظهر فى اليمن الإمام الشوكانى (٢) وسار على نهج ابن عبد الوهاب فى دعوته واجتهاده ، وأصبح له فى اليمن تلاميذ ومريدون ، وكانت دعوة « السيد أحمد » فى الهند دعوة وهابية خالصة (٣) ، فكان يدعو إلى إحياء نظام الإسلام الكامل ، وتنفيذ الشريعة فى الأرض ومحاربة البدع والخرافات ، « ومع أن حركته لم تنجح فى إقامة نظام الإسلام وتأسيس بنيان الحكومة الإسلامية الراشدة المنشودة فإنها نجحت فى إيقاظ الحمية الإسلامية ، وبعث الهمم الراكدة » (٤) .

وقامت على غرار الدعوة الوهابية الحركة المهدية فى السودان ، والسنوسية فى شمال إفريقية ، وبين هذه الحركات الثلاث تشابه فى الدوافع والمقصد والسبيل مما يجعلها جميعاً مظهراً لفكرة واحدة وإن تباعدت فى الزمان والمكان . أراد **المهدى** كما أراد « ابن عبد الوهاب » أن يرتد إلى الإسلام الأول فيطرح كل مظهر للحضارة الأوروبية ؛ ووقف المهدى موقف العداء من الحكم المصرى التركى كما فعل ابن عبد الوهاب من قبل مع الدولة العثمانية .

أما **السنوسى** « فما كان يريد غير العبادة ، واقتفاء أثر السلف الصالح

---

(١) Gibb : Modern Trends in Islam p. 27, 30.

(٢) عبد المتعال الصعيدى : المجددون فى الإسلام من القرن الأول من ص ٤٧٢ — ٤٧٥ .

(٣) Stoddard : Le nouveau Monde de l' Islam, p. 33.

(٤) الندوى : نظرة إجمالية فى تاريخ الدعوة الإسلامية فى الهند ، ص ٥٣ .

ودعوة إخوانه ومريديه إلى الدين القديم الصحيح ، وإرشاد عباد الله لما فيه سعادتهم فى الدين ، ولا ينشر دعوته بحد السيف ، بل طريقته إلى ذلك التعليم والهداية والإرشاد ، ثم لم يكن من مقاصده مناوءة الخلافة أو التعرض لها » (١) .

والسنوسية تشبه الدعوة الوهابية إلى حد كبير ، فهما تدعوان إلى الرجوع بالدين إلى أصوله الأولى ، وتفهم روح الإسلام فهماً صحيحاً قائماً على تعاليم القرآن والسنة ، إلا أن الوهابية كانت تناوىء الخلافة العثمانية فى تركيا ، بينما كانت السنوسية ترى فى الخلافة « سياجاً يحيط بالعالم الإسلامى ، ويدفع عنه عدوان المعتدين » .

ويذهب كثير من الكتاب الأوروبيين إلى أن السنوسيين أعلنوا عداءهم للسلطان العثمانى « حتى أن أحدهم نسب إلى السنوسيين قولهم على لسان سيدى الأخضر بن مخلوف :

الترك والنصارى إنى أقاتلهم معاً ، وأضربهم ضربة واحدة » (٢)
ولكن الواقع التاريخى يكذب هذا الرأى ، فلم يكن من رأى السيد السنوسى الخروج على سلطان الخلافة ولا الانفصال بإمارته عن الدولة العثمانية ، ويعلق الأمير شكيب أرسلان على ذلك بقوله :

« كون السنوسى ناصب السلطان العداء هو خبر من الأخبار تهافت على تصديقه كثير من الأوروبيين ، والحقيقة أن سيدى محمد بن على السنوسى وولده المهدى وجميع السادة السنوسية كانوا موالين للسلطان ومؤيدين للدولة العثمانية باعتبار أنها ملجأ للإسلام وبأن السلطان هو أكبر ملوك المسلمين » (٣) .

---

(١) محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ، دار الفكر العربى ، ١٩٤٨ ، ص ٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٦٧ .
(٣) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى ، ص ٧١ .

ويقول فى موضع آخر :

« . . . وإن السيد السنوسى لم يكن إلا داعياً مرشداً ، وأنه كان يدعو الله دائماً بتأييد الدولة العثمانية وتوفيق الحضرة السلطانية » (١) .

ولم تكن الحركة فى مبدئها « إلا طريقة من الطرق الصوفية » (٢) .

ولكن أهميتها جاءت عن طريقين .

الأول : مراكز التبشير ونشر الدعوة السنوسية (٣) فقد كان مؤسس الطريقة السيد محمد على السنوسى دائب الحركة والنشاط ، منكباً على العبادة ، عاملا على نشر طريقته ، يؤسس الزوايا ويجمع حوله الإخوان والمريدين والأتباع ، ويضع أنظمة السنوسية التى كفلت لها اتصال الحياة والبقاء ثم متابعة الذيوع والانتشار من بعده « وكان من أثر ذلك أن قام المبشرون السنوسيون الذين خرجتهم زوايا الصحراء وهم يعدون بالألوف المؤلفة يجوبون البلاد الوثنية مبشرين بالوحدانية داعين إلى الإسلام » (٤) .

ونجحت دعوة السنوسيين فى هذه الجهات لدرجة أن صارت جمعيات المبشرين الأوروبيين المنبثين فى القارة الإفريقية كلها تجد فى الدعوة السنوسية خصماً عنيداً لاقبل لها على التغلب عليه مع ما أوتيت من قوة ومال وتأييد كبير من جانب دول أوروبا .

أما الطريق الثانى الذى زاد أهمية الحركة السنوسية فهو « انتشار الطريقة من برقة وتحولها فى عهد السيد المهدى السنوسى الذى خلف أباه فى سنة ١٨٠٩ من حركة دينية صرفة إلى حركة نظامية تكاد تفرض لها سيادة إقليمية فى بعض المناطق » (٥) .

---

(١) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى ، ص ١١٣ .

(٢) The Sanusiyyah Fraternity : The Islamic Review, January, 1954.

(٣) محمد رفعت : التيارات السياسية فى حوض البحر الأبيض، لجنة البيان العربى ، ١٩٤٩ ، ص ٢١٤ .

(٤) حاضر العالم الإسلامى : ج ١ ، ص ١٣١ .

(٥) محمد رفعت : التيارات السياسية فى حوض البحر الأبيض ، ص ٢١٤ .

وهكذا نجحت السنوسية فى أن تقيم فى ليبيا مذهب دين ،ودعائم إمارة، فكانت بذلك من أهم الحركات التى تجاوبت بها أرجاء العالم الإسلامى. « وكان نجاحها فى شمال وغرب إفريقيا لا يضاهيه إلا نجاح الوهابية فى إيقاظ الروح الإسلامى الصحيح ، والتمهيد لليقظة الإسلامية الكبرى فى بلاد الاسلام » (١) .

وإذا راعينا أن خطة السنوسى التى كان ينوى القيام بها بعد اكتمال العدة « إنما هى افتتاح جميع البلاد الإفريقية ثم سائر الأقطار الإسلامية ، وجعل العالم الإسلامى من أقصاه إلى أدناه مملكة واحدة على رأسها خليفة واحد، وهذه المملكة يرتبط بعضها ببعض بالجامعة الإسلامية الكبرى»(٢) لأدركنا أهمية السنوسية فى سير الجامعة الإسلامية .

وإلى جانب الحركات الدينية التى تجاوب بها العالم الإسلامى خلال هذه الفترة ، ظهر عدد كبير من المصلحين الذين نادوا بالأخذ عن حضارة الغرب ، حتى تصل البلاد الإسلامية إلى ما وصل إليه الغرب من تقدم مادى ملموس،فقام فى الهند السيد أحمد خان والسيد أمير على، وظهر مدحت باشا فى تركيا ، وخير الدين باشا فى تونس ، ومليكم خان فى إيران .

* * *

كان السيد أحمد خان فى السنوات بين **١٨٥٨** و **١٨٩٨** م محور السياسة الإسلامية فى الهند ، وكان السيد أحمد مفكراً كبيراً ، ومصلحاً من الرعيل الأول استطاع أن يجمع المسلمين حوله فى شبه أمة تتطلع إلى مستقبل مجيد ، وكرّس حياته لخدمة المسلمين بعد أن رأى بعينيه الأحداث المؤلمة التى جرت أثناء ثورة ١٨٥٧م،وكان أول من طالب بنشر التعليم فى عالم تسوده الرجعية والتعصب،إذ كان التقليد السائد بين مسلمى الهند الامتناع عن دخول المدارس الأجنبية ، ومقاطعة الوظائف فى ظل الحكم الإنجليزى مع أن الهندوكيين أقبلوا عليها واحتلوا كثيراً من وظائف الدولة،ولذلك كتب فى سنة ١٨٦٧ يقول :

---

(١) حسين فوزى النجار : السياسة الاستراتيجية فى الشرق الأوسط ، ص ٢٨٢ .
(٢) حاضر العالم الإسلامى ، ج ١ ، ص ١١٠ .

« يجب علينا أن ندرس الكتب العلمية الغربية وإن كان مؤلفوها ليسوا بمسلمين ، وكان فيها ما يخالف القرآن الكريم وأن نأخذ ما أخذه العرب فى أوائل عهدهم فإنهم حينما بدأوا يقيمون حضارتهم لم يترددوا فى دراسة كتب فيثاغورس وغيره من فلاسفة اليونان»(١).

ولم يكتف السيد أحمد بدعوة المسلمين إلى دراسة الكتب الأوروبية(٢) بل أنشأ جمعية أدبية علمية فى « عليكرة » كان الغرض منها نشر الآراء الحديثة فى التاريخ والاقتصاد والعلوم وترجمة أهم الكتب الإنجليزية فى هذه الموضوعات إلى اللغة الأوردية ، ثم أنشأ بعد ذلك ، «كلية عليكرة»(٣) سنة ١٨٧٥م على النظام الحديث للتعليم العالى والدراسات الجامعية وقد أراد منها عدة أغراض أهمها :

تعليم المسلمين الثقافة الأوروبية والإسلامية (٤) من غير تعصب ولا جمود ، والاهتمام بالحالة الاجتماعية والخلقية للطلاب ، والعناية بتربية عقولهم وأبدانهم .

ويرى البعض (٥) أن من بين الأهداف التى سعى إلى تحقيقها بإنشاء كلية عليكرة هو « أن تكون الخطوة الأولى نحو تحقيق الجامعة الإسلامية التى كان يحلم بها » .

ولم تلبث هذه الكلية أن خرجت قادة الرأى والفكر الذين كانت البلاد فى حاجة إليهم ، كما نجحت فى خلق جيل جديد من المسلمين فى الهند يجمع بين الثقافة الإسلامية والأوروبية ويعمل على النهوض بمسلمى الهند فى دينهم ودنياهم .

❋ ❋ ❋

---

(١) Stoddard : Le nouveau Monde de L' Islam, p. 40.

(٢) محمد حسن الأعظمى : القائد الأعظم وقصة الباكستان ، دار الكتاب العربى ، ص ٣٣.

(٣) محمد حسن الأعظمى : فى الهند وقصة الباكستان ، ج ١ دار الفكر العربى ، ص ٣١٤ ، ٣١٥ ، مسعود الندوى : نظرة إجمالية فى تاريخ الدعوة الإسلامية فى الهند والباكستان ، ص ٥٨

(٤) Gibb : Modern trends in Islam, p. 58.

(٥) رسالة الباكستان : العدد ١٢٣ السنة السادسة ، « الجهاد فى سبيل تأسيس الباكستان — من ١٨٥٧—١٩٤٧ » ، ص ١٥

وإلى جانب السيد أحمد ظهر فى الهند مصلح آخر هو **السيد أمير على**، كان من المشتغلين بالتاريخ ، والعلوم الإسلامية (١) ، وله مؤلفات كثيرة نشر معظمها باللغة الإنجليزية وقد اهتم السيد أمير على بشئون المسلمين السياسية والدفاع عن مصالحهم أمام الحكومة الإنجليزية وأمام الهندوكيين فيقول فى إحدى خطبه :

« إن المسلمين فى الهند لهم حقوق سياسية واضحة أمام الحكومة ، وأمام الهندوكيين ، فما لم تجب هذه المطالب أخشى أن تنقلب مطالبهم إلى عصبية حادة ، إن مطالبهم حقة وهم لايطلبون غير ما فيه العدالة».

وكان فى كثير من الأحيان يلقى مقاومة شديدة من جانب المحافظين الإنجليز ومع هذا سار فى طريق الإصلاح يؤلف الجمعيات ، ويوحد صفوف المسلمين ، فأسس فى سنة ١٨٧٩ الجمعية المحمدية القومية (٢) للدفاع عن حقوق المسلمين ، وتحديد الوضع السياسى لهم .

❋ ❋ ❋

ومن بين المصلحين الذين ظهروا خلال هذه الفترة : **مدحت باشا** فى تركيا ، قاوم مدحت استبداد السلطان عبد العزيز ومن بعده السلطان عبد الحميد الثانى ، وطالب بالحم الدستورى الذى يحقق الحرية لأفراد الشعب ، وتمكن فى عهد السلطان عبد العزيز من القيام بكثير من الإصلاحات المدنية ، وسوى بين مختلف الأجناس الموجودة فى الدولة ، ولكن السلطان عبد العزيز لم يلبث أن ضاق بسياسته فعزله من الوزارة .

ولما تولى **السلطان** عبد الحميد الحكم جعله رئيساً لوزرائه ، ومنح

(١) رسالة الباكستان : العدد ١٢٤ ، السنة السادسة ، « الجهاد فى سبيل تأسيس الباكستان» ص ١٥ ؛ Stoddard : Le nouveau Monde de L' Islam, p. 41.

(٢) رسالة الباكستان : العدد ١٢٤ السنة السادسة ص ١٥ .

البلاد دستوراً فى ديسمبر ١٨٧٦م ولم يمض وقت طويل حتى تخلى عن الحكم الدستورى ، وترك الدستور معلقاً (١) ، وعزل مدحت ونفاه إلى أوروبا ثم دبر مؤامرة للتخلص منه .

❋ ❋ ❋

وفى تونس نادى **خير الدين باشا** بالاقتباس من حضارة الغرب، وألف عدة كتب كان أهمها — الإصلاحات الضرورية للدول الإسلامية — وكان يقصد من ورائها أن يضع أمام المسلمين صورة لنهضة أوروبا وطريقة الحكم فيها يقتبس المسلمون منها ما يصلح لهم وحتى يثير عندهم الرغبة فى الاقتداء بهم والعمل على منوالهم وكان من رأيه أن التمسك بالدين لا يمنع من النظر فيما عند الأمم الأخرى والأخذ بأحسنه فيما يتعلق بالنواحى الدنيوية .

❋ ❋ ❋

وفى إيران ظهر «**مليكم خان**»، وكان يقاوم الاستبداد الداخلى ممثلا فى حكم الشاه ناصر الدين ورئيس وزرائه (٢).

وكانت كتاباته كلها تدور حول سوء الحالة فى إيران ، والمطالبة بالحكم الدستورى .

❋ ❋ ❋

هذه هى الحركات الإصلاحية المختلفة التى ظهرت فى المرحلة الثانية، وليس من العسير علينا أن ندرك أنها كانت متفرقة من حيث الزمان والمكان ، محدودة بحدود البلاد التى ظهرت فيها ، وإن كانت جميعها ترمى إلى النهوض بالعالم الإسلامى .

---

(١) راجع موقف السلطان عبد الحميد من دستور مدحت فى :

Ma'avie M. Bereketullah : Le khalifat, p. 3.

Antonius : The Arab awakening, p. 62, 63.

(٢) راجع الفصل الخاص بأثر جمال الدين فى إيران .

Sykes : Persia, Oxfo rd, 1922, p. 143.

وليس من شك فى أن روح الإصلاح على اختلاف صورها ومظاهرها قد تغلغلت فى العالم الإسلامى ، وأثرت فى سير الجامعة الإسلامية .

❋ ❋ ❋

دور الجامعة الإسلامية

استطاعت الدول الأوروبية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر أن تحتل كثيراً من بلاد العالم الإسلامى ، فتمكنت فرنسا من السيطرة على تونس سنة ١٨٨١م وكانت قد احتلت من قبل بلاد الجزائر سنة ١٨٣٠ ، كما استطاعت إنجلترا أن تدخل مصر ، وتقضى على الثورة التى تزعمها أحمد عرابى سنة ١٨٨٢ .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فبعد أن كانت كل من إنجلترا وفرنسا تعمل على بقاء تركيا قوية حتى تستطيع مواجهة الخطر الروسى تغيرت نظرة الدولتين إلى المسألة الشرقية ، وتكشفت نواياهما بعد مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ م وأخذتا تعملان على تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية ، وتشجيع القوميات المختلفة فى بلاد البلقان على الانفصال عن تركيا..وأصبح مصير الدول الإسلامية مسألة اتفاق بين الدول الكبرى ، حينئذ أدرك قادة العالم الإسلامى أن الخطر يحيط بالبلاد الإسلامية من كل جانب وأنه لابد من وجود رابطة إسلامية تكون أداة للمقاومة ،ووسيلة للتخلص من السيطرة الأوروبية ، وبذلك اتجهت « النهضة الإسلامية اتجاهاً عاماً شاملا ،وتطورت الدعوات الإصلاحية فى صورة منظمة يمكن أن نطلق عليها اسم « الجامعة الإسلامية » وقد حدث هذا التغيير على يد « السيد جمال الدين » الذى يعتبر إمام هذا التطور الجديد ورائده .

كان « جمال الدين » يختلف عن غيره من المصلحين الذين سبقوه فقد كانت حركاتهم الإصلاحية محدودة بحدود البلاد التى ظهروا فيها ،ولكنه انتقل بدعوته من الحيز الضيق الذى كانت محصورة فيه من قبل ، وجعل العالم الإسلامى بأجمعه ميداناً لنشاطه ودعوته ، كما أن الحركات الإصلاحية التى سبقته كانت تدعو إما إلى العودة إلى القديم — كما حدث فى الوهابية والسنوسية

— وإما إلى الأخذ عن حضارة الغرب — كما حدث فى دعوة السيد أحمد خان فى الهند ومدحت باشا فى تركيا — إلا أن جمال الدين لاءم بين مختلف الاتجاهات ، ونظر إلى الجامعة الإسلامية نظرة واسعة الآفاق ، وأدرك أن العالم الإسلامى فى حاجة إلى فهم حقيقة الدين الإسلامى كما هو فى حاجة إلى الاقتباس من حضارة الغرب بما يتلاءم مع روح العصر ، فكانت حركته — كما قلت من قبل — « حركة شرقية إسلامية فيها اتجاه للغرب ولكن فى إيمان بالشرق وتراثه ووحدة شعوبه وتقاليده » (١)

وتختلف الدعوة إلى الجامعة الإسلامية عن الدعوة الوهابية فى الاتجاه ، فقد كانت تعاليم الوهابية دينية خالصة ؛ ولكن جمال الدين « فلسف تعاليم الوهابية ، وركزها على أسس اجتماعية وسياسية ، واتجه بها اتجاهاً دنيوياً فيه معنى الإصلاح الاجتماعى والسياسى » (٢)

وكان جمال الدين يختلف عن السنوسى منهاجاً ، فجمال الدين انكب على السياسة وشئونها ، بينما انصرف السنوسى إلى علوم الدين وترقيتها .

كما أن جمال الدين أدرك خطر السيطرة الغربية أكثر من غيره من المصلحين فهو يرى « أن الغرب مناهض للشرق ، والروح الصليبية لم تبرح كامنة فى الصدور كما كانت فى قلب بطرس الناسك ، والدول الأوروبية لاتزال تنظر إلى الإسلام نظرة الحقد والعداء والتعصب الدينى الممقوت ، وهى تحاول بكل الوسائل القضاء على كل حركة يحاولها المسلمون للإصلاح والنهضة » (٣) ؛

ومما نلاحظه أيضاً أن دعوة جمال الدين إلى الجامعة الإسلامية متعددة الجوانب ، متشعبة النواحى (٤) وكان يميزها اتجاهان بارزان ... أحدهما سياسى والآخر اجتماعى .

---

(١) حسين فوزى النجار : السياسة والاستراتيجية فى الشرق الأوسط ، جـ ١ ، مكتبة النهضة ، ١٩٥٣ ، ص ٢٨٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٨٩ .

(٣) Lothrob Stoddard : Le nouveau Monde, p. 64.

(٤) Gibb : Modern trends in Islam, p. 30.

فالاتجاه السياسى يرمى إلى تكوين وحدة إسلامية يكون غرضها المباشر التخلص من السيطرة الغربية ،أما الاتجاه الاجتماعى فيبدو واضحاً فى إحياء تعاليم الإسلام وتفسير الدين تفسيراً جديداً يوافق حاجات العصر ، والإقبال على حضارة الغرب مع الاحتفاظ بروح الشرق ومقوماته .

* * *

دعوته إلى الجامعة الإسلامية :

دعا السيد جمال الدين إلى تكوين جامعة إسلامية فى المرحلة الثالثة من حياته (١٨٨٣ – ١٨٩٧ م) ، بعد أن تبلورت آراؤه فى الإصلاح ، واتسعت أمامه آفاق التفكير . . وقد حاول جمال الدين أن يشرح لنا دعوته فى الإصلاح ، ويبين منهجه الأسمى فى حياته فقال إنه نظر فى أول الأمر إلى العالم بأجمعه ، وحاول أن يوحد بين أجزائه ، فوجد أن الناس يختلفون فى الدين ، فتناول الأديان الثلاثة ، وبحث فيها بحثاً دقيقاً مجرداً عن كل تقليد ، منصرفاً عن كل تقيد ، فوجد بعد طول البحث أن الأديان السماوية الثلاثة على تمام الاتفاق فى المبدأ والغاية وإذا نقص فى الواحدة شىء من أوامر الخير استكملته الثانية ، ولهذا فكر فى أن يتحد أهل الأديان الثلاثة مثلما اتحدت الأديان فى جوهرها وغايتها ، فيسير العالم بهذا الاتحاد خطوة نحو السلام . ولكنه حينما اختلط بالناس وجد أن أهل الدين الواحد ينقسمون إلى فرق وشيع وطوائف وأن أى رجل يجرؤ على مقاومة الاختلاف سيلقى مقاومة كبيرة من جانب المتجرين فى الدين ، ولذلك تخلى عن آرائه حول توحيد الأديان ، واتجه إلى الشرق – إلى بلاد الأفغان والهند وجزيرة العرب والعراق والشام وكل دولة من دول الإسلام فى الشرق – فوجد أن من أكبر عوامل ضعف هذه الدول « انقسام أهلها ، وتشتت آرائهم ، واختلافهم على الاتحاد ، واتحادهم على الاختلاف » (١)

يحاول جمال الدين بذلك أن يبين لنا أنه كان يهدف منذ قيامه بدعوته

(١) محمد المخزومى : خاطرات جمال الدين ، ص ٨١ – ٨٥ .

الإصلاحية إلى تكوين وحدة بين الدول الإسلامية بعد أن عجز عن تكوين وحدة عالمية، ولكن بالرجوع إلى المقالات التى كتبها جمال الدين فى مختلف مراحل حياته (١) ، يتبين لنا أن دعوته العامة إلى الجامعة الإسلامية لم تظهر إلا فى المرحلة الأخيرة من حياته ، وكان ذلك حينما أصدر جريدة العروة الوثقى فى باريس .

ولما كانت دعوته إلى الجامعة الإسلامية ذات مظهرين أحدهما سياسى والآخر اجتماعى فقد اهتم بوحدة العالم الإسلامى السياسية إلى جانب اهتمامه بالتجديد فى الدين .

فمن الناحية السياسية دعا جمال الدين إلى الوحدة الإسلامية ، وتمكين الألفة بين المسلمين ، وتقوية الروابط بينهم حتى يعودوا كما كانوا إخواناً متآلفين ، يجمعهم لواء دولة واحدة عظيمة (٢) .

« فالمسلمون لا يحتاجون فى صيانة حقوقهم إلا إلى تنبيه أفكارهم لمعرفة ما به يكون الدفاع ، واتفاق آرائهم على القيام به عند لزومه ، وارتباط قلوبهم الناشىء عن إحساس بما يطرأ على الملة من الأخطار (٣)

كان المسلمون أمة واحدة ، ولكن فرق شملهم ما بلى به أمراؤهم وحكامهم من الطمع والحرص « هؤلاء المفسدون الذين يرون كل السعادة فى لقب أمير أو ملك ولو على قرية لا أمر فيها ولا نهى ، هؤلاء الذين حولوا أوجه المسلمين عما ولاهم الله . . وخرجوا على ملوكهم وخلفائهم ، حتى تناكرت الوجوه ، وتباينت الرغائب » (٤)

كما ظهر هذا الضعف والانحلال « فى روابط الملة الإسلامية عند انفصال

---

(١) راجعت المقالات التى كتبها جمال الدين فى مختلف الكتب والصحف التى كانت تصدر حتى سنة ١٨٨٣ م فلم أجد فيها دعوة إلى الجامعة الإسلامية كما أن هذا المقال لم يكتب إلا فى الفترة الأخيرة من حياته حينما كان مقيما بتركيا .

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام : ج ٢ ، ص ٢٣١ — ٢٣٥ الجنسية والديانة الإسلامية .

(٣) العروة الوثقى : ص ١٥٣ ، من مقال الوحدة الإسلامية .

(٤) العروة الوثقى : ص ١٥٢ ، من مقال الوحدة الإسلامية ، تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ٢ ، ص ٢٨٢ .

الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة ،وقنع الخلفاء العباسيون باسم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم ،والتفقه فى الدين والاجتهاد كما كان الخلفاء الراشدون ... كثرت بذلك المذاهب ، وتشعب الخلاف من بداية القرن الثالث من الهجرة ، ثم انثلمت وحدة الخلافة ، فانقسمت إلى أقسام » (١)

وها نحن نرى أمراء المسلمين اليوم يطلقون أيدى الأجانب فى شئون حكوماتهم بل فى بيوتهم ، ويؤيدون حكم الأجنبى فى أعناقهم » (٢)

فعلى المسلم أن يأخذ بيد أخيه ،وأن ينظر إليه بما حكم الله فى قوله« **إنما المؤمنون إخوة**»فيقيمون بالوحدة سداً يحول عنهم هذه السيول المتدفقة عليهم من جميع الجوانب » (٣)

« وأن الميل للوحدة ، والتطلع للسيادة وصدق الرغبة فى حفظ حوزة الإسلام ، كل هذه صفات كامنة فى نفوس المسلمين قاطبة » (٤)

« وإن من أدرنة إلى بيشاور دولا إسلامية متصلة الأراضى ، متحدة العقيدة ، يجمعهم القرآن لا ينقص عددهم عن الخمسين مليوناً ، وهم ممتازون بين أجيال الناس بالشجاعة والبسالة ،أليس لهم أن يتفقوا على الذب والإقدام ، كما اتفق عليه سائر الأمم ؟؟ ولو اتفقوا فليس ذلك ببدع منهم ، فالاتفاق من أصول دينهم » (٥)

ثم يسأل الله تعالى «ثباتاً للمسلمين على أصول الاتحاد ، وقواعد الألفة وأن لا يميل بهم الهوى إلى جعل الاختلاف فى المسائل الثانوية سبباً فى حل الجامعة الإسلامية التى قوامها الإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر ،

---

(١) العروة الوثقى : ص٩١ ، من مقال انحطاط المسلمين وسكونهم ،تاريخ ،جـ ٢ ، ص ٢٥٣ والآية من سورة (الحجرات : ١٠) .

(٢) العروة الوثقى : ص ١٥١ ،من مقال الوحدة الإسلامية، تاريخ ،جـ ٢ ، ص ٢٨٣ .

(٣) العروة الوثقى : ص ١٥٦ ، من مقال الوحدة الإسلامية، تاريخ ،جـ٢ ، ص ٢٨٤ .

(٤) العروة الوثقى : ص ١٦٧ ، من مقال الوحدة والسيادة أو الوفاق والغلب .

(٥) العروة الوثقى : ص ١٥٤ ، من مقال الوحدة الإسلامية .

وأن لايجعلوا هذا الخلاف ذريعة العدو إلى محق ملتهم وإفساد ولايتهم ... والله يهدى من يشاء إلى سواء السبيل » (١)

أما من الناحية الاجتماعية فقد اتجه جمال الدين إلى التجديد فى الدين ، ودعوة المسلمين إلى الاقتباس من حضارة الغرب والواقع أنه كان لهذا الاتجاه أثر كبير فى نهضة العالم الاسلامى إذ كان من نتائج سيطرة الغرب على الشرق أن وقف المسلمون من الحضارة الغربية موقف العاجز المتردد ، فلم يحاولوا الاقتباس منها ، أو الاعتماد عليها « واعتقد الفقهاء أن مايعرفونه هم من العلم يكفى لكل شىء » (٢)

وكان من الخير لأوروبا أن يبقى الشرق على ماهو عليه من جهل فصارت تنظر بعين السخط إلى كل حركة يراد بها تنبيه المسلمين وإصلاح أحوالهم، كما كانت تنظر إلى الإسلام نظرتها إلى عقيدة بالية تقوم على الأوهام والخرافات وكانت ترى «أن الإسلام عبارة عن مجموعة من المبادىء صورت منذ أكثر من ألف عام لإدارة شئون جماعة فى حالة البداوة »(٣) وأن هذه المبادىء لاتصلح للنهوض بالمجتمع فى العصر الحديث .

وقد وجه الأوروبيون إلى الإسلام فى تلك الفترة حملات عنيفة من النقد والأكاذيب والمفتريات كما نشط المبشرون المسيحيون فى اتهام الإسلام بأنه — غير قابل للإصلاح والتجديد — (٤) .

وكان لهذه الحملات العنيفة أثر كبير فى قيام الحركات الإصلاحية التى تدعو إلى التجديد فى الإسلام ،والإقبال على الحضارة الغربية فى جرأة وثقة،

---

(١) العروة الوثقى : ص ٤٦١ .
(٢) الشرق الأوسط فى مؤلفات الأمريكيين : ص ٤٨ .
(٣) كرومر : كتاب مصطفى كامل ج ، ص ٢١ .
(٤) S.W. Zwemer : Arabia : The Cradle of Islam, Edimbourg 1900; The Mohammedan World of to-day, London 1906.

والاعتماد على العقل فى مختلف شئون الحياة، والتوفيق بين الدين والعلم (١) .

ومما يرويه الشيخ عبد القادر المغربى «أن السيد جمال الدين قال له بضرورة القيام بحركة تجديدية فى الدين أشبه بحركة مارتن لوثر مؤسس البروتستنتية فى أوروبا، تعنى باستئصال ما رسخ فى عقول العوام وبعض الخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها الحقيقى (٢) ..

ولذا اتجه جمال الدين بدعوته إلى التجديد فى الإسلام وطالب المسلمين بتحقيق نهضة دينية تلائم مقتضيات العصر الحديث وذلك «بأن تكون عقائد الأمة مبنية على البراهين القويمة والأدلة الصحيحة » (٣)

ويقول : « إن الدين يطالب المتدينين أن يأخذوا بالبرهان فى أصول دينهم، وكلما خاطب خاطب العقل ، كلما حاكم حاكم إلى العقل » (٤)

ويحارب التقليد الذى يعطل العقول عن أداء وظائفها العقلية ويقودها إلى العجز الذى يقعد بها عن تمييز الخير من الشر(٥) ثم يطالب بأن يكون فى كل أمة طائفة يختص عملها بتعليم سائر الأمة ، وطائفة أخرى تقوم على النفوس تتولى تهذيبها وتثقيفها . .

ويرى أن من عوامل ضعف الجماعات الإسلامية اعتقادها أن باب الاجتهاد مسدود فيقول :

« مامعنى أن باب الاجتهاد مسدود؟؟ وبأى نص سد باب الاجتهاد ؟ ؟ »

ثم يطالب المسلمين بالاجتهاد فى أمور دينهم فيقول :

---

(١) Cromer : Vol. II, London, 1908;
Gibb : Modern Trends in Islam, p. 106.
Wilfred Cantwell Smith : Modern Islam in India, (Lahore 1943) p. 69.

(٢) عبد القادر المغربى : جمال الدين ، ذكريات وأحاديث ، ص ٣٢ .

(٣) جمال الدين الأفغانى : الرد على الدهريين ، ص ١١١ .

(٤) جمال الدين الأفغانى : الرد على الدهريين ، ص ١١٢ .

(٥) جمال الدين الأفغانى : الرد على الدهريين ، ص ١١١ .

« فمن كان عالماً باللسان العربى ، وعاقلا غير مجنون ، وعارفاً بسيرة السلف، وما كان من طرق الإجماع ،وما كان من الأحكام مطبقا على النص مباشرة ، أو على وجه القياس ،وصحيح الحديث،جازله النظر فى أحكام القرآن وتمعنها أو التدقيق فيها، واستنباط الأحكام منها ومن صحيح الحديث والقياس » (١)

ويحارب الرذائل مثل « القحة والسفه والبله والطيش والتهور والجبن والدناءة والجزع والحقد والحسد والكبرياء واللجاج والسخرية والغدر والخيانة والكذب والنفاق » (٢)

ثم يسأل الله أن يكشف عن البصائر ستار الأوهام حتى ترى الحقائق كما هى كيلا تضل وتشقى « فالوهم يمثل الضعيف قوياً،والقريب بعيداً ، والمأمن مخافة ، والموئل مهلكاً » (٣)

ويرى أن المسلمين بمقتضى أصول دينهم أبعد الناس عن الجبن(٤) «فمن يتوهم أنه يجمع بين الجبن وبين الإيمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فقد غش نفسه ، وغرر بعقله ولعب به هوسه ، وهوليس من الإيمان فى شىء » (٥)

وهذا الذى يعتقد بأن الأجل محدود والرزق مكفول، والأشياء بيد الله يصرفها كما يشاء ، كيف يرهب الموت فى الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته أوملته » (٦)

ويطالب أهل الشرق بالاقتباس من حضارة الغرب، والتزود بالمعارف والعلوم حتى يتخلصوا من سيطرة أوروبا التى فاقت الشرقيين بما وصلت إليه من علم ومعرفة . . فيقول :

---

(١) محمد المخزومى : خاطرات جمال الدين ، ص ١٧٧ .
(٢) العروة الوثقى : ص ١٣٧ الفضائل والرذائل وأثرها .
(٣) العروة الوثقى : ص ٢٤٩ الوهم .
(٤) العروة الوثقى : ص ٢٦٥ الجبن .
(٥) العروة الوثقى : ص ٢٦٧ الجبن .
(٦) العروة الوثقى : ص ١٢٢ القضاء والقدر .

« يا أبناء الشرق ..أفلا تعلمون أن سلطة الغربيين وسيادتهم عليكم إنما كانت بارتفاع درجتهم فى العلوم والمعارف »؟ ؟ (١)

❋ ❋ ❋

بهذا نرى أن دعوة جمال الدين إلى التجديد لم تكن خروجاً على تعاليم الدين — كما اتهمه البعض (٢) — وإنما كانت قائمة على الاعتماد على منطق العقل ، والبعد عن التقليد دون أدنى إهمال لسلطان القرآن والحديث .

والواقع «أن الإسلام لم يكن عقبة فى سبيل أى لون من ألوان المعرفة»(٣)

وهو لم يعرف حدوداً للثقافة منذ البداية ، فقد ورد فى الحديث النبوى « اطلب العلم ولو فى الصين » و « اطلب العلم من المهد إلى اللحد » بخلاف ما كان يراه كثير من الأوروبيين ومنهم رينان الذى قال« إن الإسلام لا يشجع على العلم والبحث الحر » (٤)

وقد رد عليه جمال الدين رداً علمياً دقيقاً جعله يتنازل عن كثير من آرائه.

ويمتاز جمال الدين عن كثير من المصلحين الذين سبقوه بأنهم كانوا ينسبون تأخر المسلمين إلى إهمالهم تطبيق الشريعة الإسلامية وبعدهم عن بساطتها الأولى ، أما جمال الدين فقد دعا المستنيرين من المسلمين إلى النظر فى حالتهم لتحقيق نهضة دينية تجديدية تلائم مقتضيات العصر الحديث ، وتبين لهم أن الإسلام إذا فهم على وجهه الصحيح يستطيع أن ينمو نمواً طبيعياً وأن يتقدم تقدماً يجمع بين المصالح المتجددة للحياة العملية وبين المطالب العالية للنفس الإنسانية » (٥)

❋ ❋ ❋

---

(١) جريدة مصر ، العدد ٤٢ ، إبريل ١٨٧٩ (دائرة المعارف) مقالات لم تنشر .

(٢) راجع خاطرات جمال الدين « موقفه فى تركيا » .

(٣) محمد حسن الزيات : « الإسلام والعلمانية » ، ص ٧٧ ؛
Lothrob Stoddard : op. cit., p. 38.

(٤) Osman Amin : Mohamed Abduh p. 5;
Charles Adams : Islam and Modernism. p. 9.

(٥) عثمان أمين : جمال الدين الأفغانى ، الكتاب م ١ ص ٦٨٧ .

أسس الجامعة الإسلامية :

بالغ كثير من المؤرخين فى تصوير الجامعة الإسلامية بصورة تثير الخوف فى قلوب الأوروبيين (١) ، فادعى بعضهم «بأنها محاولة عدائية من جانب الشعوب الإسلامية ضد المسيحيين » (٢) ، وادعى البعض الآخر « بأن الجامعة الإسلامية إذا تركت وشأنها فإنها ستؤدى إلى ضياع المدنية الحديثة التى هى ثمرة أعمال البشر فى القرون كلها » (٣) .

والواقع أن الجامعة الإسلامية — كما دعا إليها جمال الدين — لم تكن محاولة عدائية من جانب الدول الإسلامية ، ولم تكن قائمة على أساس التعصب الدينى أو الجنسى وإنما قامت لرد اعتداء الغرب على الشرق . ولقد كان جمال الدين يحارب التعصب فيقول :

« لاتجد لتأخرنا غير سببين أصليين هما : التعصب والاستبداد »(٤)

كما يؤكد أن الجامعة الإسلامية ليست جامعة جنسية فيقول :

« هذا ما أرشدنا إليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم إلى الآن ، لايعتدون برابطة الشعوب وعصبات الأجناس وإنما ينظرون إلى جامعة الدين » (٥)

ويقول : « وازع المسلمين فى الحقيقة شريعتهم المقدسة الإلهية التى لاتميز بين جنس وجنس » (٦)

وكان جمال الدين يرى أن وحدة العالم الإسلامى تقوم على روابط ثلاث :

---

(١) Malavie : M. Berketullah : Le Kalifat, P. 60.

(٢) Bryce : International Relations, 1922, P. 22,
M. Safwat : Tunis and the Great Powers p. 23,

(٣) الجامعة الإسلامية : عن مجلة القرن التاسع عشر ، أدب المقالة جـ ٥ ، ص ٢٦ .

(٤) جريدة مصر : العدد ٤٧ ، (مايو ١٨٧٩) ، مقال : (خطبته فى الإسكندرية) .

(٥) العروة الوثقى : ص ٥١ ، مقال الجنسية والديانة الإسلامية .

(٦) تاريخ الأستاذ الإمام : جـ ٢ ، من ٢٢٣ — ٢٢٧ العروة ص ٥ .

رابطة الدين ، ورابطة الحج ، ورابطة الخلافة .

ولذا طالب بأن تكون هذه الروابط هى الدعامات التى تقوم عليها الجامعة الإسلامية .

❋ ❋ ❋

١ – رابطة الدين: كان جمال الدين يرى أن رابطة الدين أولى الدعامات التى يمكن الاعتماد عليها فى بناء صرح الجامعة الإسلامية فالإسلام دين وجامعة، آخى بين المسلمين وجعلهم بنعمته إخواناً، فهو يسمو بهم فوق مستوى الأمم والعصبيات والأجناس ويدعوهم إلى الاتحاد بقوله: « **إنما المؤمنون إخوة**»، « لاعصبية فى الإسلام » .

وقد قضى الإسلام على نزعة العرب القبلية، وأحل محلها الشعور بالوحدة الدينية ، ولذا عمل جمال الدين على إحياء هذه الرابطة فيقول :

« وليس عليهم فى استرجاع مكانتهم الأولى والصعود إلى مقامهم الأول إلا أن يجمعوا كلمتهم ، ويتعاونوا على مايقصدون من إعزاز ملتهم، وذلك أيسر ما يكون عليهم من بعد تمكين الجامعة الدينية بينهم » (١)

« وإن للمسلمين شدة فى دينهم، وقوة فى إيمانهم، وثباتاً على يقينهم ،. وإن فى عقيدتهم أوثق الأسباب لارتباط بعضهم ببعض » (٢)

« وإن اتفقوا فليس ذلك ببدع منهم، فالاتفاق من أصول دينهم »(٣)

« وما هذا بغريب على المسلمين ، فإن رابطتهم الملية أقوى من روابط الجنسية واللغة، وما دام القرآن يتلى بينهم وفى آياته ما لا يذهب على أفهام قارئيه ، فلن يستطيع الدهر أن يذلهم » (٤)

فجمال الدين يطالب بإحياء الرابطة الدينية، ليستعيد المسلمون مكانتهم الأولى ، ويصعدوا إلى مقامهم الأول .

---

(١) العروة الوثقى : ص ١٨٣ .
(٢) العروة الوثقى : ص ٨٥ ، انحطاط المسلمين وسكونهم .
(٣) العروة الوثقى ـ ص ١٥٥ ، الوحدة الإسلامية .
(٤) العروة الوثقى : ص ٣٩ ، من فاتحة الجريدة .

٢ — **رابطة الحج :** الحج عامل أساسى لاتحاد المسلمين وتعاطفهم ، ففى كل عام يلتقى فى مكة عدد كبير من المسلمين من مختلف الأقطار(١)، ويجتمع المهتمون بالقضايا الإسلامية،ويتبادلون الآراء والأفكار فى القضايا التى تهم العالم الإسلامى .

وفى القرن الماضى كانت بلاد الحجاز قبلة كل قاصد علم يبغى التفقه فى أمور الدين ، والانقطاع للعبادة، كما كانت موطن التفكير الدينى الخالص، ومنبت كل دعوة وإرشاد حتى قيل « إن الدارس للثقافة العربية ليدهش من السرعة التى كانت تنتقل بها المعلومات بين أطراف العالم الإسلامى »(٢)

وذلك لأن الآراء والأفكار التى تفيض من هذه الأرجاء تبلغ فى فترة وجيزة آذان المسلمين فى أقصى زوايا العالم وقد قصد جمال الدين الأقطار الحجازية لأداء فريضة الحج،وظل بها نحو سنة فأدرك أهمية الحج فى تقوية الروابط بين المسلمين،ولذلك يقول: « إن العلماء العاملين لو وجهوافكرتهم لإيصال أصوات بعض المسلمين إلى مسامع بعض لأمكنهم أن يجمعوا بين أهوائهم فى أقرب وقت ، وليس بعسير عليهم ذلك بعد ما اختص الله من بقاع الأرض بيته الحرام بالاحترام ، وفرض على كل مسلم أن يحجه ما استطاع ، وفى تلك البقعة يحشر الله من جميع أجيال المسلمين — عشائرهم وأجناسهم — .

ثم يقول :

« وما هى إلا كلمة تقال بينهم من ذى مكانة فى نفوسهم تهتزلها أرجاء الأرض، وتضطرب لها سواكن القلوب،هذا ما أعدتهم له العقائد الدينية»(٣)

وهو يطالب العلماء والخطباء والوعاظ فى جميع أنحاء العالم الإسلامى بأن يرتبطوا معاً « ويجعلوا لهم مراكز فى أقطار مختلفة يرجعون إليها فى شئون

---

(١) Maréchal Lyautey : L' Islam et la Politique, p. 21.

(٢) الشرق الأوسط ص ٣٨ .

(٣) العروة الوثقى : ص ١٦٨ ، مقال : الوحدة والسيادة .

وحدتهم ، ويجمعوا أطراف الوشائج إلى مقعد واحد يكون مركزه فى الأقطار المقدسة وأشرفها بيت الله الحرام » (١)

بهذا نرى أن جمال الدين أدرك أهمية الحج فى تقوية الرابطة بين المسلمين ، وتوثيق الصلات بينهم ، وأراد الاعتماد على موسم الحج فى نشر الدعوة إلى الجامعة الإسلامية .

٣ — **الخلافة :** كان جمال الدين يؤمن بأهمية الخلافة فى جمع الكلمة وإعادة الوحدة بين المسلمين ، ولذلك أراد أن يعيد لها هيبتها ومكانتها القديمة حتى يستعيد العالم الإسلامى ماكان له من مجد وقوة ، فالخلافة نظام من أنظمة الحكم خاص بالإسلام يقول عنه السير توماس أرنولد «الخلافة نظام مستحدث وليد الظروف والأحوال التى نشأت على أثر ظهور الإسلام ، وبسط سيادة العرب على بلاد فارس ومعظم بلاد الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، والخليفة حاكم سياسى لاتتعدى وظيفته الدينية المحافظة على الدين» (٢)

ومنزلة الخليفة من الأمة فى نظر بعض الأوروبيين كمنزلة الرسول من المؤمنين (٣) ، له عليهم الولاية العامة والطاعة التامة ، وله حق القيام على شئون دينهم ودنياهم ، ولقد كان للخلافة شأن تاريخى عظيم ولا سيما فى أوائل عهدها ، فقد استطاعت أن توحد المسلمين تحت رايتها وظل الوضع على ذلك حتى ضعفت الدولة العباسية وظهرت دويلات مستقلة ، ونشأت خلافات متعددة فى بغداد ومصر والأندلس ثم انتقلت بعد ذلك إلى الدولة العثمانية ، وأصبح السلاطين يستعملون لقب الخلافة فى معاملاتهم الدولية مع المسيحيين ، وكان ذلك لأغراض سياسية غايتها أن يكون لهم شىء من النفوذ الدينى فى العالم الإسلامى .

أدرك جمال الدين أن الخلافة عامل من عوامل وحدة العالم الإسلامى فأراد إحياءها من جديد ، وكان ينعى على المسلمين اختلافهم وتفرقهم بعد أن كانوا يخضعون لخلافة واحدة ومن قوله :

---

(١) العروة الوثقى : ص ٩٤ ، مقال : انحطاط المسلمين وسكونهم وسبب ذلك .

(٢) Sir Thomas W. Arnold : The Caliphate, p. 11 .

(٣) Maréchal Lyautey : L' Islam la Politique, ... p. 19.

إسماعيل مظهر : وثبة الشرق ، ص ١٠ و ١٥ .

« كانت الملة كجسم عظيم قوى البنية ، صحيح المزاج ، فنزل به من العوارض ما أضعف الالتئام . ثم انثلمت وحدة الخلافة فانقسمت إلى أقسام: عباسية فى بغداد ، وفاطمية فى مصر والمغرب ، وأموية فى أطراف الأندلس، تفرقت بهذا كلمة الأمة ، وانشقت عصاها ، وانحطت رتبة الخلافة إلى وظيفة الملك » (١)

هذه نظرة جمال الدين إلى الخلافة وسوف نرى فيما بعد موقفه من الخلافة الإسلامية بصفة عامة، والخلافة العثمانية بصفة خاصة وإلى أى حد أثرت دعوته فى العالم الإسلامى .

* * *

كيف تتحقق الجامعة الإسلامية :

اعتقد كثير من المؤرخين (٢) أن جمال الدين كان يدعو إلى الجامعة الإسلامية تحت زعامة السلطان عبد الحميد الثانى ، فقد شرع السلطان عبد الحميد فى الدعوة للجامعة الإسلامية ، وإحياء الخلافة عندما كان جمال الدين فى أوج نشاطه وقوته ، كما أن جمال الدين قضى أيامه الأخيرة فى بلاط السلطان عبد الحميد مما دعا إلى الاعتقاد بأن هناك صلة كبيرة بين الحركتين .

وأرى أن هناك تعارضاً كبيراً بين ما كان يدعو إليه جمال الدين وما كان يراه السلطان عبد الحميد ، وكل ما فى الأمر أن السلطان عبد الحميد أراد أن يستغل دعوة جمال الدين لتعزيز مركزه ، وتأييد سلطانه ، وتثبيت نفوذه على العالم الإسلامى . .

ولنر إلى أى حد اتجه جمال الدين بدعوته ، ومدى اتفاقها مع سياسة الخلافة العثمانية .

* * *

كان جمال الدين فى أول أمره ينادى بأن تكون الجامعة الإسلامية تحت

(١) العروة الوثقى : ص ٩١ ، ٩٢ ، انحطاط المسلمين وسكونهم .
(٢) محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ، ص ٧ .

إمرة خليفة واحد ، دون أن يهتم ، بشخص ذلك الحاكم . إيرانياً كان أم أفغانياً ، تركياً كان أم مصرياً . فمن قوله :

« ولو أن حاكماً صغيراً بين قوم مسلمين- من أى جنس كان - تبع الأوامر الإلهية ، وثابر على رعايتها ، وأخذ الدهماء بحدودها ، وضرب بسهمه مع المحكومين فى الخضوع لها ، وتجافى عن الاختصاص بمزايا الفخفخة الباطلة ، لأمكنه أن يحوز بسطة فى الملك ، وعظمة فى السلطان ، وأن ينال الغاية من رفعة الشأن فى الأقطار المعمورة بأرباب هذا الدين »(١)

ويرى أن المسلمين لا يستنكرون الخضوع لحاكم مسلم - أياً كانت جنسيته - طالما كان صاحب الحكم محافظاً على قواعد الدين ، مدافعاً عن حقوق المسلمين فيقول :

« لهذا ترى العربى لا ينفر من سلطة التركى ، والفارسى يقبل سيادة العربى ، والهندى يذعن لرياسة الأفغانى ، ولا اشمئزاز عند أحد منهم ولا انقباض ، وأن المسلم فى تبدل حكوماته لايأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكالها ، وانتقالها من قبيل إلى قبيل ، مادام صاحب الحكم حافظاً لشأن الشريعة ذاهباً مذهبها » (٢) .

ثم اتجهت آمال جمال الدين نحو إيران فطالب بالقضاء على الخلافات المذهبية بين السنة والشيعة ليكون ذلك بداية لاتحاد الإيرانيين والأفغانيين «وكان يطالب الإيرانيين بأن يكونوا للوحدة الإسلامية دعامة ، كما كانوا للنشأة الإسلامية وقاية . فليس ببعيد على همم الإيرانيين أن يكونوا أول القائمين بتجديد الوحدة الإسلامية ، وتقوية الصلات الدينية » (٣)

فإذا اتحدت الدولتان فإن المسلمين فى بنجاب لن يتوانوا فى الاتحاد

---

(١) العروة الوثقى : ص ٥٢ ، مقال : الجنسية والديانة الإسلامية .

(٢) العروة الوثقى : ص ٥١ ، مقال : الجنسية والديانة الإسلامية .

(٣) العروة الوثقى : ص ٢١٦ ، مقال : دعوة الفرس إلى الاتحاد مع الأفغانيين .

معهم وكذلك جميع مسلمي الهند « فكل مسلم فى الهند شاخص ببصره إلى بنجاب ينتظر قدوم الإيرانيين إذا اتحدوا مع إخوانهم الأفغانيين»(١).

وسيكون هذا الاتحاد وسيلة لتخليص الهند بأكملها من السيطرة الإنجليزية خاصة « وأن الإنجليز فى ارتباك شديد بشأن المسألة المصرية ومتورطون باختلاف الدول عليهم ، ومعاكستها لمقاصدهم » (٢) .

ويطالب شاه إيران وملك الأفغان بالمبادرة إلى الاتحاد « فإن المبادىء بالعمل فى هذا المقصد الأسمى هو صاحب الفضل الأعظم بين المسلمين ويجنى ثمرته فى وقت قريب» (٣).

* * *

وحينما قامت ثورة محمد أحمد المهدى فى السودان اتجهت إليه آمال جمال الدين ، وكان يرى فى دعوته بعثاً جديداً للعالم الإسلامى، فيقول :

« إذا حل محمد أحمد وفى خرطوم سهل عليه جمع كلمة القبائل النازلة ما بين خرطوم وأسوان وتتصل أطراف جيشه ببلاد مصر العليا ، ولا يعدمون من العرب فى جهات الصعيد بل وفى الدلتا من يلتحق بهم»(٤).

ثم يبين أثر دعوة المهدى فى بلاد العالم الإسلامى المختلفة فيرى أن الاعتقاد بمحمد أحمد أخذ سبيلا فى قلوب الهنود « ففى الأخبار الواردة من الهند أن رجال الشرطة فى سملا وجدوا إعلانات ملصقة على جدران المدينة ومما كتب فيها إغراء المسلمين بإجابة دعوة محمد أحمد والقيام بنصرته » (٥) .

ويقول : « فإن القائم بهذه الدعوى لا يقف فى سيره عند غاية ،

(١) العروة الوثقى : ص ١٩ ، مقال : دعوة الفرس إلى الاتحاد مع الأفغانيين .
(٢) العروة الوثقى: ص ٢٢٠ مقال : دعوة الفرس إلى الاتحاد مع الأفغانيين .
(٣) العروة الوثقى : ص ٢٢٢ مقال : دعوة الفرس إلى الاتحاد مع الأفغانيين .
(٤) العروة الوثقى ص ٣٠٩ . (٥) العروة الوثقى ص ٣٥١.

ولا يقنع بملك ؛ وإنما يريد بسط دعوته فى أقطار العالم وإحياء الأوامر الإلهية التى جاء بها صاحب شريعة » (١) .

ويقول أيضاً :

« فقد علمت أن محمد أحمد لم يقم بدعوى الملك ، ولا طلب حق له فى الإمارة كان يرثه عن آبائه ، وإنما قام بدعوى لانهاية لأطرافها إلا عند حدود السطوة الإسلامية »(٢).

وكان جمال الدين يشعر فى بعض الأحيان بصعوبة تحقيق الجامعة الإسلامية تحت زعامة واحدة ، وربط البلاد الإسلامية برباط واحد فيطالب المسلمين « بأن يكون سلطانهم القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين وكل ذى ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع » (٣) .

بهذا نرى أن دعوة جمال الدين فى هذه الفترة لم تكن قائمة على تأييد سياسة السلطان عبد الحميد ، أو تثبيت مركزه ونفوذه فى بلاد العالم الإسلامى ، وكل ما كان يطالب به فى تلك الفترة أن تعمل تركيا على تحرير مصر من السيطرة الإنجليزية باعتبارها صاحبة الحق الشرعى فى الأراضى المصرية .

ولقد كانت جريدة العروة الوثقى تحمل إلى العالم الإسلامى آراء جمال الدين ، فلما توقفت الجريدة قضى جمال الدين حوالى ست سنوات (بين ١٨٨٦ — ١٨٩٢) متنقلا بين إيران ولندن وفى ذلك الحين أراد السلطان عبد الحميد الاستفادة بجهود جمال الدين ، فأرسل إليه سفير تركيا لدعوته ، إلا أن جمال الدين أخذ يعتذر ، والسفير التركى يكرر الدعوة والرجاء حتى قبل السيد جمال الدين الذهاب إلى تركيا .

* * *

(١) العروة الوثقى ص ٣٢٩ . (٢) العروة الوثقى ص ٣٣٠ .
(٣) العروة الوثقى ص ١٥٥ ، من مقال الوحدة الإسلامية .

كان السلطان عبد الحميد فى هذه الفترة يعمل على إحياء الخلافة، والدعوة إلى الجامعة الإسلامية حتى يدعم مركزه الدولى . فقد أحاطت الأخطار بالدولة العثمانية من كل جانب «فهى فى خطر قاتل من ناحية الروسيا التى ظلت سياستها عاملة على هدم ملك آل عثمان وهى مهددة بنظرية جلادستون رئيس الأحرار فى انجلترا الذى كان ينادى بتقسيم أملاك الدولة فى أوروبا، ويعمل لتأييد القوميات المسيحية فى البلقان وفى آسيا » (١)

كما نشطت فى ذلك الحين الدعوة إلى الجامعة الصقلبية لضم كل صقالبة أوروبا وذلك للتخلص من النفوذ الألمانى ، والسيطرة التركية وتحقيق آمال روسيا فى التفوق «وكان ذلك معناه قضاء على سيادة تركيا فى أوروبا، وتحديد لممتلكاتها فى الشرق والغرب على السواء » (٢)

حينئذ عمد السلطان عبد الحميد إلى تسخير قوة الدين فى تحقيق أغراضه وأراد أن يؤيد سلطته السياسية فى الدولة العثمانية بإعلان حقوقه وامتيازاته كخليفة للمسلمين .. (٣) وقرر ذلك فى دستور ١٨٧٦ إذ جاء فى المادة الرابعة أن السلطان العثمانى باعتباره خليفة للمسلمين له الحق فى الدفاع عن العقيدة الإسلامية (٤) .

ثم حاول إقناع الرأى العام بأن الخلافة والسلطنة شىء واحد وبأنه ظل الله فى أرضه ، وأمير المؤمنين ، وخادم الحرمين الشريفين ، فأرسل مبعوثيه إلى مصر وتونس والهند وأفغانستان وجاوة والصين لينبهوا المسلمين إلى أنه لا يزال هناك خليفة فى العالم الإسلامى (٥) .

كما أنه أحاط نفسه برهط من الفقهاء ورجال الدين ، وأنشأ معهداً

---

(١) محمد مصطفى صفوت : الاحتلال الإنجليزى لمصر ، ص ١٩ .

(٢) T. Arnold : The caliphate, p. 177.

M.M. Safwat : Tunis and the Grest Powers , p. 294.

(٣) Antonius : The Arab Awakening, p. 69.

(٤) Arnold : The caliphate, P. 173.

(٥) Arnold : The caliphate, p. 174.

دينياً لتخريج الدعاة(١)الذين مالبث أن بعث بجماعات كبيرة منهم إلى أقصى زوايا العالم الإسلامى ، وأنشأ خط سكة حديد الحجاز ليكون الاتصال بين البلاد الإسلامية سهلا ميسوراً ،... « وطبع آلاف النسخ من القرآن الكريم جرى توزيعها فى أنحاء البلاد » (٢)

وطبع عدداً كبيراً من الكتب يحمل الدعوة لسياسته ومما جاء فى أحدها : « لقد اجتمعت قلوب المسلمين حول عرش الخلافة ،ومالت العناصر الإسلامية إلى الانتقام من الصليبيين . . ولا يمكن تسكين ثائرة غضبهم إلا بواسطة تركيا ، ولا يمكن لأية حكومة القيام بعمل ما ، فكل الحكومات الإسلامية الأخرى أصبحت تحت حكم الصليب » (٣)

وكان السلطان عبد الحميد على الرغم من ذلك كله مستبداً ، فمنع السكان من أن يذكروا كلمات الحرية والدستور والبرلمان على ألسنتهم ، ومن كان ينطق بها كان يلقى به فى بحر مرمرة أوفى قاع البوسفور (٤)

وكان متخوفاً حذراً ، يخشى رعاياه بقدر ماكان يخشى الأجانب ، ولذلك كان يقمع كل فكرة جديدة ، ويرفض كل إصلاح «ويحيط الإمبراطورية كلها بشبكة من الجواسيس بحيث لم يكن ثلاثة يتحدثون فى أمر من الأمور إلا كان على مقربة منهم رابع يتولى نقل حديثهم إلى إدارة البوليس السرى » (٥)

وحينما كان يعلم أن فى أحد أطراف مملكته عالماً ينفع الناس بعلمه ، «كان يحتال عليه ليأتى به إلى الآستانة ليدفنه حياً ، ويجعله إلى الخمول بعد الشهرة ، فإن لم يستطع ذلك فلا أيسر من التقول عليه للحط من كرامته » (٦)

* * *

(١) Antonius : The Arab Awakening p. 71.

(٢) ألما وتلن : عبد الحميد ظل الله ، ترجمة راسم رشدى ، دار النيل للطباعة ، ١٩٥٠ ، ص ١٧٤ .

(٣) محمد صفابك : سياسة الأتراك والخلافة ، ص ٤٣ .

(٤) Malavie M. Bereketullah : Le Khalifat, p. 8.

(٥) Armstrong : The Grey Wolf, p. 31.

(٦) خطط الشام : ج ٣ ، ص ١٢٣ و ١٢٤ .

فى هذه الظروف وصل جمال الدين الأفغانى،وكانت دعوته إلى الجامعة الإسلامية قد انتشرت فى مختلف بقاع العالم الإسلامى ، فأراد السلطان عبد الحميد أن يستغله لتحقيق مآربه ، ويقال إنه بايعه بالخلافة. فيروى المخزومى عن جمال الدين قوله :

« إن ما رأيته من يقظة السلطان وشدة حذره وحسن نواياه واستعداده للنهوض بالدولة قد دفعنى إلى مد يدى له فبايعته بالخلافة والملك » (١) .

ورأى أن جمال الدين كان مضطراً إلى مبايعة السلطان عبد الحميد فهويعيش فى كنفه ، ويحيا تحت رعايته ، وماذا تجدى مبايعته للسلطان فى هذه الفترة،وهو كما يقول عن نفسه«كان كمن يعيش فى قصر من ذهب!!»

لقد توقفت دعوة جمال الدين منذ أن وصل إلى تركيا ، وأصبح نشاطه محدوداً إذ كان محاطاً بطائفة كبيرة من الجواسيس .

وكان من رأى جمال الدين أن ينشر السلطان عبد الحميد الثقافة العربية واللغة العربية فى تركيا،«ثم يترأس ذلك الملك ويعدل فى أهله ، ويجرى على سنن الرشيد أوالمأمون » (٢)

ولكن السلطان لم يقبل هذه الفكرة. فلما وجد جمال الدين أن السلطان لم يوافق على اقتراحه ، عرض عليه عرضاً آخر ، وهو ألا يأخذ بنظام المركزية فى الحكم وألا يجعل جميع ولايات الدولة خاضعة للسلطان خضوعاً مباشراً،فيترك لكل ولاية الحرية فى الحكم ويعين على كل منها خديوى مثل مصر تماماً ،ويكون الجميع تحت إمرة السلطان ،وطلب منه أن يبدأ بالبعيد منها والمطموع فيها مثل طرابلس الغرب فيجعلها خديوية ثم إلى ولايات بغداد فالبصرة فالموصل وهكذا ، وتأخذ كل خديوية فى تقوية نفسها بعد أن تتخلص من قيود المركزية القاتلة (٣) .

وطلب منه أن يعين حكاماً يثق فيهم من أفراد الأسرة والأمراء والوزراء

---

(١) محمد المخزومى : خاطرات جمال الدين ، ص ٦٧ .
(٢) محمد المخزومى : خاطرات جمال الدين ، ص ٢٣٦ و ٢٣٧ .
(٣) محمد المخزومى : خاطرات جمال الدين ، ص ٢٣٨ و ٢٣٩ .

المشهود لهم بالكفاءة والإخلاص (١) « فإذا صارت خديوية العراق. مثل خديوية مصر ثروة وانتظاماً لا شك فى أن إيران تسرع لمقام السلطنة العظمى للاتحاد معها ، ثم ما أسرع الأفغان للانتظام فى ذلك السلك ، سلك اجتماع كلمة دول الشرق الإسلامية تحت راية الخلافة العظمى والسلطنة العظمى » (٢)

ومتى تم ذلك فإن الهند ستسارع بالانضمام إلى الجامعة الإسلامية ، وينهض الشرق نهضة الرجل الواحد للتخلص من ربقة الاستعمار والمستعمرين ، ويرجع الشرق للشرقيين ...

إلا أن السلطان كان متردداً « وكانت تصرفاته ما زالت تصرفات طفل مذعور»(٣) ، فلم يقبل ما أشار به جمال الدين ولذا يقول عنه جمال الدين :

«كيف لا تذهب النفس حسرات ، وأكبر سلطان فى المسلمين هذا موقفه من الجمود عن قبول النصح ، وإصلاح الملك ، والمحافظة أو المطالبة بصريح حقه فى أجزاء سلطنته » (٤)

***

بهذا نرى أن دعوة جمال الدين كانت مغايرة لما كان يريده السلطان عبد الحميد ، فلم تكن سياسة السلطان عبد الحميد قائمة على تبنى آراء جمال الدين والعمل بها ، وإنما كانت – كما يقول جورج أنطونيوس – « محاولة من جانب الخليفة السلطان لتأييد سلطته الزمنية فى الدولة العثمانية » (٥) .

ويؤيد هذا الرأى الذى وصلنا إليه قول جمال الدين :

خلافة عظمى ، وإمامة كبرى !

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس

الخلافة !!.. كفالة الله فى خلقه – فأين أحلام أولئك العجزة من مقام الإمامة والخلافة ، وما تتطلبه من الشروط والصفات ؟؟ (٦) .

(١) محمد المخزومى : خاطرات جمال الدين ، ص ٢٤٠ .
(٢) محمد المخزومى : خاطرات جمال الدين ، ص ٢٤١ .
(٣) ألما وتلن : عبد الحميد ظل الله ، ص ١٧٥ .
(٤) محمد المخزومى : خاطرات جمال الدين ، ص ٢٤٢ .
(٥) Antonius : The Arab Awakening, p. 67.
(٦) محمد المخزومى : خاطرات جمال الدين ، ص ١٣٠ .

كان جمال الدين إذاً يفرق بين الدولة العثمانية وشخص السلطان عبدالحميد، فهو يؤمن بأن تركيا أقوى دولة فى العالم الإسلامى، وفى استطاعتها إحياء الخلافة الإسلامية، وإعادتها إلى أوج قوتها ومجدها، إلا أنه فى نفس الوقت لم يرض أن تكون الجامعة الإسلامية أداة يسخرها السلطان عبدالحميد لتحقيق أغراضه ومآربه الشخصية.

فقد قامت الخلافة فى عصرها الأول على نظام ديموقراطى صحيح، يحقق حرية الأفراد، أما السلطان عبد الحميد فمعروف بميوله الاستبدادية، وهذا يتنافى مع ما يدعو إليه جمال الدين من تحقيق الحرية لأفراد الشعب والقضاء على الحكم الاستبدادى.

* * *

مدى نجاح الجامعة الإسلامية :

بعد أن فرغنا من عرض التطورات التى مرت بها الجامعة الإسلامية، والأسس التى تعتمد عليها والجهود التى بذلها السيد جمال الدين لتحقيق هذه الجامعة، بقى علينا أن نبين إلى أى مدى نجح جمال الدين فى دعوته.

سبق أن بينت أن دعوة جمال الدين إلى الجامعة الإسلامية كانت تتميز باتجاهين: أحدهما اجتماعى، والآخر سياسى.

فمن الناحية الاجتماعية: كان يدعو إلى محاربة التقليد ويطالب بالتجديد فى الدين، وفهمه فهماً صحيحاً متمشياً مع روح العصر، ومقاومة الرذائل المنتشرة بين المسلمين كالجبن والحقد والحسد والكبرياء والكذب والنفاق.

وأرى أن دعوته إلى التجديد فى الدين لاقت كثيراً من النجاح، فقد خلف جمال الدين وراءه مدرسة تأخذ بتعاليمه، وتعتمد على آرائه، وكانت مدرسته هذه قوية الأثر، واضحة المعالم، وحسبنا دليلا على هذا أن أكثر من تصدوا للإصلاح الدينى والاجتماعى فى مصر والهند كانوا من تلاميذه أو من أصدقائه المتأثرين به، ونذكر على رأس هذه المدرسة التجديدية فى مصر: الشيخ محمد عبده، والشيخ محمد رشيد رضا (١).

---

(١) تشارلز آدمز: الإسلام والتجديد فى مصر، ترجمة عباس محمود، ١٩٣٥، ص ٢٤١.

والشيخ مصطفى عبد الرازق(١) ومحمد فريد وجدى(٢) ، كما قام فى الهند الشاعر محمد إقبال(٣) .

وتتميز مدرسة جمال الدين بالدعوة إلى تحكيم العقل ، والبعد عن التقليد دون إهمال لسلطان القرآن ، فكان لهذه المدرسة التجديدية أثرها الدينى الكبير فى أواخر القرن التاسع عشر ، وبداية القرن العشرين ، وكان لتلاميذ جمال الدين نشاط ملحوظ لفت أنظار الأوروبيين وخاصة المهتمين منهم بالدراسات الإسلامية .

ومما قام به جمال الدين أنه دافع عن الإسلام ضد أعدائه الذين رموه بشتى التهم ، وأضافوا إليه كثيراً من النقائص بدون علم ، فسار تلاميذه على طريقته ، وقام الشيخ محمد عبده بالرد على « جابرييل هانوتو —وزير الخارجية الفرنسية »(٤) ، وبالرد على فرح أنطون محرر مجلة الجامعة(٥).

وكان رده على هذين الخصمين قوياً ، كما كانت جريدتا اللواء والمؤيد فى مصر تعبران عن هذا الاتجاه أصدق تعبير وأحسنه (٦). وليس أدل على نجاح دعوة جمال الدين الدينية من أن المسلمين فى مختلف بقاع العالم الإسلامى كانوا يستشيرونه فى كثير من المسائل المتعلقة بالدين ، وقد دعاه ذلك إلى تأليف رسالة « الرد على الدهريين » رداً على أحد مدرسى الفنون الرياضية بمدينة حيدر آباد ، فكان لها أثرها فى الهند ، كما أن دعوته التجديدية فتحت السبيل لنهضة إسلامية واسعة النطاق فى الهند(٧) .

يقول الشاعر محمد إقبال :

« إن على المسلم اليوم عملا شاقاً ، عليه أن يعيد النظر فى الإسلام كله دون

---

(١) تشارلز آدمز : الإسلام والتجديد فى مصر ، ص ٢٤٥ .
(٢) تشارلز آدمز : الإسلام والتجديد فى مصر ، ص ٢٣٥ و ٢٣٦ و ٢٣٧ .
(٣) عثمان أمين : مجلة إذاعة باكستان — مقال — فلسفة إقبال ، ص ٢٧ .
(٤) الشيخ محمد عبده : الإسلام والرد على منتقديه ، المطبعة الرحمانية ، ١٩٢٨ ، ص٢٩—٤٩
(٥) الشيخ محمد عبده : الإسلام والنصرانية ، المنار ، ١٣٦٧ هـ ، ص ٩ — ٦٤ .
(٦) عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية ، ج ٣ ، دار الفكر العربى ، ١٩٥١ ، ص ١٨ .
(٧) The Islamic Review : Sep. 1954.

انقطاع عن الماضى»، وقد أدرك جمال الدين الأفغانى خطر العمل وسعته، وكان حرياً أن يكون حلقة حية بين الماضى والمستقبل بنظره الثاقب، ونفاذه إلى حقيقة تاريخ المسلمين، وتاريخ ثقافتهم، إلى ما أوتى من إدراك واسع يسرته له تجاربه فى الناس والأخلاق، فلو قصر جهاده الدائب على الإسلام من حيث هو نظام للعقائد والأعمال الإنسانية لكانت قواعد الفكر الإسلامى اليوم أقوى وأقوم» (١) فهذا الذى يقرره إقبال يبين لنا مدى نجاح جمال الدين فى دعوته إلى التجديد الدينى، والإصلاح الاجتماعى.

* * *

ومن الناحية السياسية : كان جمال الدين يطالب بأن تكون الجامعة الإسلامية غاية ووسيلة فى وقت واحد .. غاية تتحقق بها وحدة العالم الإسلامى، ووسيلة لتخليصه من السيطرة الأجنبية، ولذا كان يعمل على إثارة الوعى القومى إلى جانب دعوته الى الجامعة الإسلامية، ولم يكن هناك تعارض بين الدعوتين إذ أنه كان ينشد من دعوته إلى الجامعة الإسلامية أن تقوم فى الشرق أمم ناهضة قوية تستمد قوتها من مقوماتها القومية، وترتبط جميعاً فى نطاق الوحدة الإسلامية(٢).

«كما أن الوعى القومى كان فى بدايته عاماً لا يخرج عن نطاق التفكير الإسلامى فى شكل الدولة الإسلامية العامة التى تجمع المسلمين فى رباط واحد من الصلات والأهداف والاتجاهات وإن كانت لا تنكر أن تأخذ بمظاهر الدولة الحديثة فى الحكم والإدارة»(٣).

وأرى أن جمال الدين نجح إلى حد كبير فى إثارة الوعى القومى

---

(١) Muhammad Iqbâl : The Reconstruction of Religious thought in Islam p. 92 عن Modern Trends. p. 28,

الدكتور عبد الوهاب عزام : محمد إقبال، سيرته وفلسفته وشعره، ص ١١٥ و ١١٦ .

(٢) Gibb : Modern Trends in Islam p. 30.

راجع حديث جمال الدين للسلطان عبد الحميد فى نفس الفصل .

(٣) حسين فوزى النجار : السياسة الاستراتيجية فى الشرق، ص ٢٧٤ .

فى مختلف البلاد الإسلامية وخاصة فى مصر وإيران والهند، كما أن الدعوة إلى القومية فى مصر ظلت تسير فى نفس الاتجاه الذى أراده جمال الدين حتى أوائل القرن العشرين ، فلم تكن هناك تفرقة بين الدعوة الإسلامية والدعوة إلى القومية(١) ، وسوف نبين فيما بعد كيف نجح جمال الدين فى إثارة الوعى القومى فى كل من إيران ومصر .

❋ ❋ ❋

أما دعوته إلى توحيد العالم الإسلامى : فقد ظهر أثرها فى تقوية الشعور بالوحدة الدينية ، والتفاف المسلمين حول راية الخلافة العثمانية ،وكانت نظرة المسلمين إلى الأتراك تختلف باختلاف الأوضاع السياسية ، ففى البلاد التى خضعت للحكم الأجنبى — كما هو الحال فى الهند ومصر — قوى الأمل فى ظهور الجامعة الإسلامية وأصبح أمل المسلمين فى هذه البلاد أن يعمل الأتراك على تخليصهم من السيطرة الأجنبية .

فلم تكد فكرة الجامعة الإسلامية تبلغ الهند حتى هب المسلمون هناك يتعلقون بها فى حماس لم يكن أحد يتوقعه ، واقترنت الفكرة فى أذهانهم بالخلافة العثمانية .

وكذلك الحال فى مصر ، فقد بدأ التفاف المسلمين حول الخلافة العثمانية فى كثير من المناسبات وكان المصريون يرون أن مصلحتهم تدعو إلى مؤازرة تركيا ، والوقوف إلى جانبها .

أما البلاد التى ظلت خاضعة للأتراك كالعراق والشام والحجاز فقد سرت فيها الدعوة إلى الجامعة الإسلامية فاترة ضعيفة لأنها عانت الكثير من استبداد الأتراك وظلم السلطان .

ولم يبد أثر الجامعة الإسلامية قوياً واضحاً فيما بين سنة ١٨٧٨—١٩١١ إذ توقفت الحرب بين تركيا ودول أوروبا المسيحية، كما أن خلع السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٨ قد أوقف الدعوة إلى الجامعة الإسلامية كقوة تسند

---

(١) Cromer : Modern Egypt Vol. II, London, 1908, pp. 132,132.

الخلافة فى نزاعها مع الغرب الأوروبى وإن لم يقض على فكرة الجامعة الإسلامية كقوة روحية تجمع المسلمين فى العالم الإسلامى نحو غاية واحدة وهدف مشترك .

ثم بدت هذه القوة حينما أغارت إيطاليا على طرابلس الغرب سنة ١٩١١ فاشترك المسلمون فى الدفاع عنها ، وساهم الشعراء والكتاب فى مصر فى الدعوة إلى الالتفاف حول راية الخلافة ، وتمجيد قوة السلطان ...

يقول أحمد محرم (١) :

أولئك أبطال الخلافة تحتمى ... بأسيافها إن داهمتها العظائم
هم المانعوها أن يقسم فيئها ... وأن تستبى بيضاتها والمحارم

ويقول شوقى (٢) :

ياقوم عثمان والدنيا مداولة ... تعاونوا بينكم ياقوم عثمانا
كونوا الجدار الذى يقوى الجدار به ... فالله قد جعل الاسلام بنيانا

ويقول الكاشف (٣) :

إن الذى جعل الخلافة فيكم ... جعل المودة والمحبة فينا
إن إئتلاف قلوبكم وقلوبنا ... ليمد أيديكم إلى أيدينا

وفى سنة ١٩١٢ تألبت دول البلقان على تركيا ، وأعلنت عليها الحرب . لذلك وجه أحد مسلمى الهند للعالم الإسلامى هذا النداء :

« إننا ننادى الحكومة البريطانية بملء أفواهنا أن تقلع عن سياستها العدائية لتركيا إتقاء لانفجار بركان المئات من ملايين المسلمين » (٤) :

ولما انتهت الحرب بهزيمة تركيا أظهر المسلمون أسفهم لما حل بتركيا والإسلام ومما قاله شوقى فى قصيدة طويلة يندب فيها مجد الإسلام الزائل (٥) :

ياأخت أندلس عليك سلام ... هوت الخلافة عنك والإسلام

---

(١) الديوان : ج ٢ ، ص ١٨ — ٣٩ .
(٢) الديوان : ج ١ ، ص ٣٠٣ . (٣) الديوان : ج ٢ ، ص ٢٢ .
(٤) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى ، ج ١ ، ص ١٤٥ .
(٥) ديوان شوقى : ج ١ ، ص ٢٨٧ — ٢٩٥ .

نزل الهلال عن السماء فليتها طويت وعم العالمين ظلام

كان الشعور الديني قوياً حتى ذلك الحين فلم تكن تمر مناسبة إلا ويتحدث الشعراء والأدباء عن تركيا، ويظهروا ولاء المسلمين لها ،فهذا الشعور الديني القوى يؤيد نجاح دعوة جمال الدين إلى الوحدة الدينية ، ولذا يقول أحد الأوروبيين :

« إن العالم الإسلامى بات لايعترف بحدود أملاكنا الاستعمارية ، والعاقل الذى يريد اعتبار الحقيقة لايعجبه من ذلك أقل عجب مادامت الدعوة التى نشرها ورفع علمها جمال الدين فى المسلمين تسير سيراً سريعاً(١)

* * *

وبالرغم من هذا النجاح الذى لاقته دعوة جمال الدين إلى الجامعة الاسلامية فإننى أرى أن دعوته لم يتهيأ لها النجاح الذى كان ينشده ويرجوه . ويرجع ذلك إلى عوامل عدة أهمها :

أولا : لم يكن الحكام فى بلاد الشرق مخلصين لهذه الفكرة ، وإنما أرادوا استغلالها لتحقيق مصالحهم وأطماعهم الشخصية ، وليس أدل على ذلك من أن السلطان عبد الحميد الثانى وهو أقوى حاكم فى العالم الإسلامى فى ذلك الحين رفض أن يستجيب لرغبات جمال الدين فى الإصلاح ويتنازل عن سلطته الاستبدادية المطلقة حتى تتحقق الجامعة الإسلامية كما يريدها جمال الدين .

فجمال الدين كان يريد جامعة إسلامية تعتمد إلى جانب قوة الخليفة على قوة المسلمين وشعورهم بتحمل المسئولية والحرية ، ولذلك طالب الحكام بالتنازل عن حكمهم المطلق ، وسياستهم الاستبدادية ، إلا أن الحكام رأوا فى دعوته خطراً قد يهدد سلطانهم القائم على دعائم الاستبداد ، فقاوموا حركته ، ووقفوا فى وجهه »(٢) .

---

(١) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى ، ج ١ ، ص ١٦١ ، ١٦٢ .

(٢) Gibb : Whither Islam, p. 42 .

كان السلطان عبد الحميد يخشى جمال الدين بقدر ما كان يقدره ، فلم يترك له حرية الدعوة وحرية التنقل فى تركيا وأحاطه بعدد كبير من الجواسيس يحصون حركاته وسكناته .

ومما يروى أن السيد جمال الدين كان يركب عربته فى أصيل كل يوم ويذهب إلى متنزه الكاغدخانه ، ففطن إلى جاسوس كان يتبعه إلى هناك ماشياً ، فقال لحاشية السلطان :

« إنكم أعطيتمونى مركبة ، وجعلتم لى جاسوساً بغير مركبة ، فإذا أنا سرت بعربتى طفق يعدو ورائى وهو يلهث كالكلب ولايدركنى .. فهلا رحمتموه فأعطيتموه عربة ليدركنى أنى سرت »(١)

وكذلك وقف الشاه ناصر الدين عقبة فى سبيل الجامعة الإسلامية فقاوم السيد جمال الدين بعد أن استدعاه بنفسه لإصلاح الأحوال فى بلاده ، وطرده خارج الحدود الإيرانية وهو فى أشد حالات المرض .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن السياسة الأوروبية وقفت حائلا بينه وبين تحقيق رسالته ، فعمل الإنجليز على منع دخول جريدة العروة الوثقى بلاد الشرق ، وبذلك توقفت الجريدة التى كان من أهم أهدافها الدعوة إلى الجامعة الإسلامية « وتقوية الصلات بين الأمم الإسلامية ، وتمكين الألفة بين أفرادها ، وتأمين المصالح المشتركة بينهما »(٢) .

ثانياً : كانت فكرة الجامعة الإسلامية « عاطفة أكثر منها عقيدة »(٣) ، فلقد كان للنكبات التى توالت على العالم الإسلامى أثر كبير فى تقوية الشعور بالوحدة الدينية ، ولو نظرنا إلى العالم الإسلامى من نواحيه الجغرافية والاقتصادية والسياسية لأدركنا صعوبة قيام الجامعة الإسلامية من الناحية العملية ، وأكثر من هذا فإن البلاد الإسلامية تفتقر إلى عناصر أخرى من مكونات الوحدة ، فهى تتفاوت من حيث الجنس واللغة ، فاللغات التى يتحدثها أهل البلاد العربية وتركيا وإيران والهند كلها مختلفة

---

(١) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، جـ ١ ، ص هـ .

(٢) العروة الوثقى : المقدمة ، ص ٥٤ .

(٣) M.M. Safwat : Tunis and the great Powers, p. 294.

ومما لاشك فيه أن وحدة اللسان عنصر له أثره الكبير فى نمو الوحدة ، وقيام الجامعة الإسلامية ، ولذلك يمكن القول بأن وحدة العالم الإسلامى تقوم على أساس العاطفة الدينية أو بمعنى آخر أن « الجامعة الإسلامية قسمان : دينية وسياسية ، والدينية موجودة بوجود العقيدة الإسلامية ، والسياسية غير موجودة ، ولم توجد ، ولن توجد لعدم وجود الرابطة بين الأمم الإسلامية »(١) .

وقد أدرك السيد جمال الدين ذلك فقال :

« ولا ألتمس بقولى هذا أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصاً واحداً ، فإن هذا ربما كان عسيراً ، ولكنى أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذى ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع »(٢) .

ثالثاً : ظهر الوعى القومى فى مختلف البلاد الإسلامية منذ النصف الثانى للقرن التاسع عشر ، وأخذت الدول الإسلامية تعمل على تحقيق وجودها السياسى ، وكيانها الدولى ، وكان الوعى القومى فى أول أمره مختلطاً بالعاطفة الدينية ، فلم يظهر بصورة واضحة متميزة إلا فى وقت متأخر ، ولذا سارت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية مع فكرة القومية جنباً إلى جنب ، ولم يكن هناك تعارض بين الدعوتين ، إلا أن الدعوة إلى القومية أخذت تنفصل تدريجياً معتمدة فى ذلك على وحدة الجنس ، ورابطة اللغة . . ثم تبلورت بعد ذلك وأصبح أساسها الوطن والقومية الوطنية . . .

وبعد أن كانت الجامعة الإسلامية ذات أثر فعال فى دول العالم الإسلامى ، « تحورت وانقلبت بالتدريج إلى حركتين عنصريتين وهما : الوحدة الطورانية أو التركية . . . وحركة الوحدة العربية ، وكانت هذه الأخيرة موجهة ضد العثمانيين المسلمين بقدر ما هى موجهة ضد الغرب المسيحى » (٣) .

---

(١) المؤيد : العدد ٥٣٢٥ ، عن كتاب إبراهيم المويلحى ، ص ١٦ .

(٢) العروة الوثق : ص ١٥٥ .

(٣) سليمان حزين : مجلة الكاتب المصرى ، مجلد رقم ١ ، عدد ٤ يناير ١٩٤٦ الجامعة العربية ومقوماتها) ص ٥٣٨ .

ويمكن القول بأن الجامعة التركية كانت مناهضة للجامعة الإسلامية ، وتسعى إلى فصل تركيا عن العالم الإسلامى ، إذ كانت تعتمد على القومية التركية المحضة ، وتستمد أصولها من الروح التركية وحدها ، وقد أدى إلى ظهور القومية التركية ، وانفصالها عن الحركة الإسلامية عدة عوامل أهمها :

أولا : قيام حركات قومية فى القرن التاسع عشر — وخاصة فى بلاد البلقان — واتجاه كثير منها إلى مناهضة الدولة العثمانية ، ولقد كان للحملات الأوروبية أثر كبير فى نمو الحركة ، فكلما عملت دول أوروبا على اقتطاع أملاك الدولة العثمانية ، كلما ازداد الترك حباً لوطنهم ، وتفانياً فى سبيله ، ودفاعاً عنه ، وحرصاً على مستقبله .

ثالثاً : تقدم الدراسات التركية التى اهتمت بتاريخ الشعوب التركية ، ودعمت الصلة بين لغاتها ، وألقت ضوءاً على التاريخ المتقدم للترك ، وقد بدأت النهضة التركية كما بدأ غيرها فى دول أوروبا وذلك بإحياء الذكريات القومية التاريخية ، وبتجديد اللغة على مقتضى حاجات العصر (١) .

وخير من يمثل النزعة التركية الحديثة فى الأدب واللغة : «خالدة أديب» التى حضرت اجتماعاً طورانياً وسمعت ما ألقى فيه من الخطب ، وكتبت عقب ذلك تقول :

« بينما كنت أصغى لتلك الخطب ، شعرت أن روحى تحركت من أعماق نفسى ، وأدركت إلى أى حد تتأصل أمامى تركيا الحديثة فى وجود أجدادنا ، فقد وصلت إلى نغمات موسيقية منبعثة من دمنا الطورانى ، وحملتنى معها حتى أننى إلى هذه الساعة أشعر كأنى أسمعها » (٢) .

ثالثاً : كان السلطان عبد الحميد يقاوم الجامعة التركية لأنه كان يخشى من وراء ذلك أن يخسر سلطانه المستبد المطلق ،

---

(١) Revue du Monde Musulman 22 pp. 179—221.
عن دائرة المعارف الإسلامية : الجامعة الطورانية ، مجلد ٥ ص ٥٥٣ .

(٢) نقولا زيادة : العروبة فى ميزان القومية ، ص ٥٣ .

وكان يرى أن من شأن هذه الحركة أن تحول بينه وبين الوصول إلى غايته الكبرى وهى الجامعة الإسلامية ، فلما قامت ثورة ١٩٠٨ وقوى نفوذ رجال « تركيا الفتاة » أخذوا يتجهون اتجاهاً تركياً خالصاً ، وحينما قام مصطفى كمال بثورته صارت تركيا دولة قومية خالصة ، وبعدت عن العالم الإسلامى . وكما ظهرت القومية التركية ، ظهرت القومية العربية ، فلما كانت حدود العالم الإسلامى أوسع بكثير من حدود العالم العربى ، نشأت حركات وطنية فى البلاد العربية ترمى إلى التخلص من السيطرة الأجنبية والتركية معاً ، وهى بذلك ترمى إلى الانفصال عن الجامعة الإسلامية التى نادى بها السيد جمال الدين . . .

حقاً . . إنه لم يكن هناك تعارض بين الحركة العربية ، والحركة الإسلامية فى الأسس التى تقوم عليها الحركتان (١) إلا أن ظهور الجامعة العربية أدى إلى تحول فى سير الجامعة الإسلامية ، فبعد أن كان المسلمون ينظرون إلى تركيا على اعتبارها زعيمة العالم الإسلامى ، طالب العرب بخلافة عربية تقوم مقام الخلافة العثمانية . . .

ولقد ظهرت الدعوة إلى الجامعة العربية فى كتاب « أم القرى » للكواكبى الذى صدر بالعربية فى مصر سنة ١٨٩٨ م . . (٢) .

وبالرغم من أن الكواكبى تأثر بآراء جمال الدين (٣)، إلا أنه فرق تفريقاً واضحاً بين الحركة الإسلامية والحركة العربية ، فبينما اعتبر جمال الدين العالم الإسلامى كله ميداناً واحداً يجب توحيده ، كان الكواكبى يطالب بوحدة العالم العربى بشرط أن يكون الخليفة من قريش .

فهذه العوامل الثلاثة كان لها أثرها فى عدم ظهور الجامعة الإسلامية بالمظهر القوى الذى أراده السيد جمال الدين ، إلا أننا لا نستطيع أن ننكر الأثر الذى أحدثته الحركة فى تقوية الشعور بالوحدة الدينية ، وفى حركة

---

(١) محمد شفيق غربال : الهلال ، يناير ١٩٥٥ ، مقال الجامعة الإسلامية واتحاد العرب .
(٢) ساطع الحصرى : محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، ص ١٧٦ .
(٣) Antonius : The Arab Awakening p. 97.

التجديد التي فتحت السبيل لنهضة دينية واسعة النطاق في مختلف البلاد الإسلامية ، وكذلك في ظهور الحركات القومية التي لم تكن في بدايتها تتعارض مع حركة الجامعة الإسلامية . وسوف نرى فيما يلي ذلك من فصول ، مدى الأثر الذي أحدثه جمال الدين في تطور الحركات القومية ونموها وخاصة في مصر وإيران .

* * *

الفصل الثالث

أثر جمال الدين الأفغاني في إيران



أثر جمال الدين الأفغانى فى إيران

ذهابه إلى إيران :

توقفت جريدة العروة الوثقى فى أواخر عام ١٨٨٤ م، فرأى « جمال الدين » أن يتجول فى مختلف البلاد الإسلامية ، داعياً إلى تخليصها من السيطرة الأجنبية ، والاستبداد الداخلى وعاملا على تحقيق رسالته فى الإصلاح .

وفى ذلك الوقت استدعاه — الشاه ناصر الدين — ليذهب إلى إيران ، وقد يبدو غريباً أن يستدعى الشاه ناصر الدين — وهو المعروف بميوله الاستبدادية ، ونزعته للحكم المطلق — رجلا مثل — جمال الدين — له ماضيه فى مقاومة الحكم المطلق ومعارضة الحكام المستبدين . . ! !

ولعل السر فى ذلك يرجع إلى عاملين :

أولهما : رغبة الشاه — ناصر الدين — فى أن يكون له مركز ممتاز ، ومكانة ملحوظة فى العالم الإسلامى ، فهو إذ يدعو جمال الدين إليه — وهو الذى ضاق به بلاط السلطان عبد الحميد الثانى فى تركيا ، والخديو توفيق فى مصر . وخشيته السياسة الإنجليزية . فأوقفت نشاطه فى باريس — إنما يظهر لدول العالم الإسلامى أنه يكرم العلماء والمصلحين حينما يضيق بهم الملوك ، ويخشاهم رجال السياسة الإنجليزية . .

ثانيهما : كان الشاه « ناصر الدين » يعمل على تقوية الجيش فى بلاده منذ أن عاد من رحلته فى أوروباً سنة ١٨٧٨ م فطلب من حاكم القوقاز أن يرسل إليه عدداً من الضباط الروسيين ليقوموا بتدريب رجال الجيش فى إيران ، ولما كان « للسيد جمال الدين » ماض حربى ممتاز منذ أن كان زعيما للقواد فى جيش الأمير « محمد أعظم خان » فليس ببعيد أن يكون استدعاء « جمال الدين » خاصاً بتنظيم الجيش . . . يؤيد ذلك أن الشاه « ناصر الدين » فوض إليه أمر نظارة الحربية مع جعله مستشاراً له وقوله :

« هذا رجل العالم السياسى الحربى الجدير بأن يكون رئيس وزارة »(١).

وقد لبى « جمال الدين » دعوة الشاه ، إذ رأى فيها فرصة طيبة لتحقيق

(١) عبد القادر المغربى : ذكريات وأحاديث ، دار المعارف ، ١٩٤٨ ، ص ٨٠ .

آماله ، وبث آرائه وأفكاره فى نفوس الإيرانيين . وفى طريقه إلى طهران ، التقى بالأمير « ظل السلطان » ، وجعل يحدثه عن حالة البلاد الإسلامية ، وما حل بها من ضعف وتبعية للأجنبى ، كما حدثه عن جهاده فى باريس ، وخوف إنجلترا من نشاطه وحركته ، ومصادرتها جريدة العروة الوثقى ، فأعجب به الأمير « ظل السلطان » لفصاحة لسانه ، وقوة بيانه ، وشدة ذكائه ، ووجد فيه خير مرشد للشاه ورجال مملكته . . .

وحينما وصل إلى « طهران » يقال « إن الشاه استقبله بصدر رحب ، واحتفاء كبير مع ثناء وإطراء على فضله ، كما يروى أن الشاه لم يكن يقطع برأى من أمور الدولة إلا بعد الرجوع إليه » (١) .

والتف حوله جمهور كبير من الإيرانيين ، وبدأوا يتلقون عنه مبادئه فى السياسة ، وآراءه فى الإصلاح . .

وحينما أحس الشاه بالخطر الذى يحيط به ، تنكر « للسيد جمال الدين » وتغيرت سياسته معه ، فأدرك جمال الدين ما فى نفس الشاه ، واستأذنه فى الرحيل . . .

ولسنا نعرف الكثير عن جهوده خلال هذه الفترة ، وذلك لقصر المدة التى أقامها ، ولكن الذى لا شك فيه أن السيد جمال الدين استطاع خلال هذه الفترة المحدودة من الزمن أن ينشر دعوته الإصلاحية وخاصة بين الطبقات المتعلمة ، يؤيد ذلك خوف الشاه منه ، وتنكره له بعد أن دعاه بنفسه لقدوم البلاد . . .

كما أنه حينما عاد إلى إيران للمرة الثانية سنة ١٨٨٩ م ، يقال « إن الأهالى تلقوه باعتباره زعيمهم المعبر عن أمانيهم ، والمفصح عن آمالهم فى تحسين أحوال البلاد السيئة » (٢) .

وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه ، إذ ليس من المعقول أن يعتبره الأهالى زعيماً

---

(١) محمد المخزومى : خاطرات جمال الدين ، ص ٥٧ .

(٢) Charles Adams : Islam and modernism, p. 8.

من زعمائهم دون أن تكون آراؤه فى الإصلاح قد انتشرت بينهم ، ودون أن يكون نفوذه قد تزايد بين مختلف طبقاتهم . .

وإذا راعينا أن مقالات « جمال الدين » فى العروة الوثقى كانت تنقل إلى اللغة الفارسية(١) ،لأدركنا قوة الأثر الذى أحدثه جمال الدين بذهابه بنفسه إلى إيران .

* * *

بعد أن غادر السيد جمال الدين إيران ، التقى به الشاه ناصر الدين مرة أخرى فى مدينة « ميونخ » سنة ١٨٨٩ م ، فعرض عليه العودة إلى إيران .

ويبدو أن الشاه « ناصر الدين » كان ما يزال مصراً على ضم جمال الدين إلى حاشيته للاستفادة بعلمه وتجاربه ، معتقداً أن فى استطاعته إغراءه وتسييره وفق رغباته ، إلا أن جمال الدين رفض فى أول الأمر وأصر على مواصلة سيره إلى باريس لحضور معرضها العام ، ولكن الشاه اشتد فى الإلحاح عليه ، فاعتقد جمال الدين أن الشاه قد اقتنع بخطأ الموقف السابق الذى وقفه منه ، وأنه سيطلق يده هذه المرة فى شئون البلاد ، فنزل عند رغبته وعاد معه إلى طهران ...

يقول جمال الدين :

« جئت بطرسبورج ، فكثت فيها أكثر من أربع سنوات ، وفى خلال هذه المدة زارها الشاه ، وأحب الاجتماع بى ، فلم أرغب فى مقابلته ، ثم سافرت إلى ميونخ « من بلاد الألمان » فجاءها الشاه أيضاً وطلب مقابلتى فامتنعت ، فتوسط بيننا بعض كبار الرجال الألمانيين وغيرهم ، فاجتمعنا وطلب منى الذهاب إلى بلاده كى يجعلنى رئيس وزرائه فأبيت ، ولكن الشاه أخذ يلح على إلحاحاً شديداً ، فلم أجد مناصاً من إجابة طلبه ، والذهاب

---

(١) العروة الوثقى : ص ٢١٥ ، راجع مقالة « دعوة الفرس إلى الاتحاد مع الأفغان والتى جاء فيها :

« سرنا من الجرائد الفارسية صدقها فى خدمة أوطانها واعتدالها فى مشاربها ، وزادنا مسرة اهتمامها بترجمة بعض الفصول المهمة من جريدتنا ، ونقلها إلى اللسان الفارسى مماتظن فيه تنبيهاً لأفكار المسلمين ، واستلفاتاً إلى ما فيه خيرهم . . . الخ » .

معه إلى بلاده . . قال السيد « ومن جملة قول الشاه فى : هذا رجل العالم السياسى الحربى ، اللائق أن يكون رئيس وزارة يقوم فيها بتدبير الأمة »(١).

وهكذا نرى أن الشاه « ناصر الدين » أراد الاستفادة بجهود السيد جمال الدين لما له من خبرة فى أمور السياسة ، وشئون الحرب ، وقد لبى « جمال الدين » الدعوة بعد تردد طويل ، لاعتقاده أن بإمكانه أن ينجح هذه المرة فيما فشل فيه من قبل . . .

وما كاد « جمال الدين » يستقر فى طهران ، حتى بدأ نشاطه من جديد ، وقد استطاع خلال إقامته فى إيران أن يهيىء الأذهان للإصلاح ، ويمهد النفوس للثورة . .

وكانت رسالته تتلخص فيما يلى :

أولا : مقاومة الحكم المطلق والمطالبة بالحكم الدستورى .

ثانياً : مقاومة التدخل الأجنبى وإثارة الوعى القومى .

ثالثاً : دعوة الإيرانيين إلى الاتحاد مع الأفغانيين .

ولنحاول بعد ذلك أن نتحدث عن هذه النواحى الثلاث بالتفصيل ، لنرى أثره فى كل منها ، ومدى نجاحه فى إثارة الوعى القومى ، ومكانته بين المفكرين الإيرانيين . .

❋ ❋ ❋

---

(١) عبد القادر المغربى : ذكريات وأحاديث ، ص ٨٠ .

أولا : مقاومة الحكم المطلق

كانت البلاد الإيرانية تجتاز مرحلة حاسمة فى تاريخها ، فالشعب يئن من الضرائب المفروضة عليه، ويتطلع إلى عهد جديد تخف فيه وطأة الضرائب والمغارم ، والنفوس ثائرة على التدخل الأجنبى الذى بدأ يتغلغل فى كيان البلاد الاقتصادى ، فمن إنشاء بنك إنجليزى للإشراف على المالية ، إلى امتياز البحث عن البترول واستغلاله لقاء صفقة خاسرة للحكومة الإيرانية ، إلى احتكار للطباق . . .

كان الشعب الإيرانى يأمل أن تتحسن الأحوال بتولية الشاه ناصر الدين إلا أن الشاه لم يكن خيراً من ملوك الأسرة القاجارية السابقين ، ولم يكن مؤمناً بالنظام الدستورى بل كان فى خاصة نفسه من أنصار الحكم المطلق ، ولذا عمل السيد « جمال الدين » على مقاومة الأسرة القاجارية بصفة عامة ، وحكم الشاه ناصر الدين بصفة خاصة . .

ولم تكن الأسرة القاجارية على علاقة طيبة بالشعب، فظل معظم حكامها بعيدين عن ميدان الحياة الإيرانية لا يتصلون بالشعب ولا يتقربون إليه ولذا قيل عنها :

« إنها لم تستطع أن تمتزج بالإيرانيين مع طول حكمها للبلاد »(١). وكان مؤسس هذه الأسرة « أغا محمد خان » (٢) طاغية مستبداً ، استعان بدهائه وقسوته فى تأسيس عرش الأسرة ، فحارب « لطف على خان » آخر أمراء أسرة زند ، ثم غدر به عندما وقع فى قبضة يده ، وعذبه تعذيباً شديداً .

كما حارب « شاه رخ » (٣) حفيد نادر شاه الذى استمر يحكم « مشهد »

---

(١) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى ، ج ٢ ، ص ١٣٤ .

(٢) تولى من سنة ١٧٨٦ إلى سنة ١٧٩٧ م . وقد استطاع أن يسيطر على البلاد بعد موت كريم خان زند آخر ملوك الأسرة الصفوية .

(٣) Sykes : Persia, p. 106.

بالرغم من كف بصره ، وعذبه حتى اغتصب منه الجواهر التى كان قد جلبها هذا الغازى معه من الهند » .

وقد ظلت سياسة هذه الأسرة قائمة على الحكم المطلق ، فليس للوزراء نفوذ ولا سلطان ، وليس لأحد من أبناء الشعب الحق فى الاشتراك فى حكم بلاده حكماً فعلياً .

ولذا قال المؤرخ الروسى « بيلوسرسكى » :

« إن اختيار الوزراء فى إيران يتوقف دائماً على رغبة الشاه أو على الأصح نزوته ، وكل وزير يعلم حق العلم أنه إنما يعمل هذه الدقيقة التى يعيش فيها فقط ، ويتوقف كل شىء فى حياته وفى مستقبله على مقدرته على التأثير فى ملك الملوك وعلى تقديم الهدايا لنساء القصر ولرجال الحاشية الذين لا يحصيهم عد ، والحياة فى البلاط الفارسى تشبه تماماً لعبه الشطرنج يفوز فيها أكثر اللاعبين جرأة ، وكل وزير على يقين بأن عهده بالمنصب لن يطول ولذا كانت كل غايته أن يفوز من الغنائم بأكبر نصيب » (١) .

ولما تولى الشاه « ناصر الدين » الحكم سنة ١٨٤٨ ، أراد أن يتشبه بملوك أوروبا ، فأسرف فى الاستدانة ، وبذلك فتح السبيل أمام الأجانب للتدخل فى شئون إيران ، وكان من أخص صفات الشاه « ناصر الدين » ميله إلى الانفراد بالحكم ، والاستئثار بالأمر والنهى ، فظلت كل كبيرة وصغيرة من شئون الحكومة رهن إشارته بحيث كان يحق له أن يحاكى لويس الرابع عشر فى قوله : « أنا الدولة . . . والدولة أنا » ! !

بدأ عهده بمحاولة للإصلاح ، فعين مشيره « ميرزا تاكى خان » وزيراً للنظام ، وكان أميناً نشيطاً ، محباً للعمل ، فعمل على إصلاح الأحوال ،

---

(١) بيلوسرسكى : إيران فى مطلع القرن العشرين ، (من كتاب محمد صبيح : رضا شاه ، ص ٥٢) .

والقضاء على عوامل الفساد ، إلا أنه اصطدم بمقاومة أنصار الحكم الرجعى ، ومن بينهم والدة الشاه التى كان لها أثر كبير فى سياسة الدولة ، فسعت إلى عزله ، ولم يكتف الشاه بعزله تنفيذاً لإرادة أمه وتحقيقاً لرغبتها ، بل اغتاله خوفاً منه على حياته » (١) .

ولما تقدم الشاه « ناصر الدين » فى السن بدأت مهابته تقل فى نظر أفراد الشعب ، وبدأ أبناء الأمة يسخرون منه كلما سمعوا أنه أضاف إلى حريمه زوجة جديدة حتى بلغ عددهن خمسين زوجة أو يزيد .

ولم يلبث الناس إلا قليلا حتى بدأوا يتحدثون فى مجالسهم العامة والخاصة عن سوء الحالة الاقتصادية ، فلما خشى الشاه على عرشه ، اصطنع وسائل القسوة فى معاملة العلماء ورجال الدين وكافة طبقات الشعب حتى هاجر كثيرون إلى البلاد الإسلامية الأخرى . ومن قول السيد جمال الدين فيه :

« الجور قد تمثل فى تلك البلاد سلطاناً قاهراً لا يحد طوره ، ولا يسبر غوره ، والقسوة برزت بصورة بشعة وهيئات شنيعة ، تقشعر منها الجلود ، جدع الأنوف ، وقطع الآذان ، وشق البطون ، وجز الرؤوس . . أعمال عادية ، وأفعال يومية لا يستغرب منها السامع ، ولا يستبشعها الرائى . . . وقد هرب خمس الإيرانيين إلى الممالك العثمانية ، والبلاد الروسية..الخ »(٢).

وقد يكون فى قول السيد « جمال الدين » مبالغة عن سوء حالة البلاد فى عهده إلا أن من الثابت « أن السنوات الست الأخيرة من حكم الشاه « ناصر الدين » كانت أسوأ سنى حكمه ، ومن أشدها خطراً على مملكته إذ تأخرت البلاد خلالها تأخراً كبيراً ، وانحطت جميع مرافقها العامة » (٣). وقد زار الشاه « ناصرالدين» أوروبا ثلاث مرات ، وكانت زيارته الأخيرة سنة ١٨٨٩ عاد منها ومعه طبيبه الخاص الدكتور فيفرير « الذى استقدمه من فرنسا ، والذى استطاع أن يدون كثيراً من الأحداث التى حلت بالبلاد

---

(١) Sykes : Persia, p. 127.

(٢) الشيخ رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ١ . ص ٧٠ .

(٣) E.G. Browne : The Persian Revolution, p. 31.

خلال إقامته بها ، ونشرها فى كتابه « ثلاث سنوات فى بلاط فارس » (١) واستقدم معه « السيد جمال الدين » من ميونخ — كما ذكرنا سابقاً — ليضع دستوراً تسير عليه الدولة ، ولكن منطق الحوادث يدل على أن الشاه لم يعتزم التخلى عن سلطته المطلقة .

* * *

عمل « جمال الدين » منذ عودته إلى إيران على إصلاح الحالة السياسية فسن لها القوانين الكفيلة بإشراك الشعب فى الحكم ، إلا أنه استهدف لسخط أصحاب النفوذ فى الدولة وخاصة « الصدر الأعظم » الذى أخذ يوغر صدر الشاه على السيد ، وأسرّ إليه أن هذه القوانين ستعمل على تقييد سلطانه ، والحد من نفوذه ، وأن الأمة لم تتأهب بعد لمثل هذا الإصلاح ، فأثرت الوشايات فى نفس الشاه ، إذ رأى أن حكمه سيكون مقيداً ، وأن أهل البلاد سيكونون أوسع منه سلطة ، فقال لجمال الدين :

— أيصح أن أكون ياحضرة السيد وأنا ملك ملوك الفرس كأحد أفراد الفلاحين ؟ ؟ فردّ عليه قائلا :

— اعلم ياحضرة الشاه أن تاجك وعظمة سلطانك ، وقوائم عرشك ، سيكونون بالحكم الدستورى أعظم وأنفذ وأثبت مما هم الآن . .

والفلاح والعامل والصانع فى المملكة ياحضرة الشاه أنفع من عظمتك ومن أمرائك ، واسمح لاخلاصى أن أؤديه صريحاً قبل فوات الأوان . . لاشك ياعظمة الشاه أنك رأيت وقرأت عن أمة استطاعت أن تعيش بدون أن يكون على رأسها ملك ، ولكن هل رأيت ملكاً عاش بدون أمة ورعية» ؟(٢)

وقد كان لهذا الحديث الصريح أثر عظيم فى نفس الشاه إذ حقق وشايات

---

(١) Feuvrier : Trois ans a la cour de la Perse, p. 1,2.

يروى الدكتور فيفريير فى الصفحات الأولى من الكتاب ص : ١ ، ٢ قصة اختيار الشاه له وكيف أنه حل محل طبيبه السابق « تولوزان » الذى رغب فى البقاء فى باريس ثم يقول : وهاأنا الآن فى طريقى إلى إيران ، ثم يأخذ فى سرد مذكراته عن الفترة التى أقامها هناك ... راجع الكتاب ص ١ ، ٢ .

(٢) محمد المخزومى : خاطرات جمال الدين ، ص ٦٠ .

الصدر الأعظم ، وبينّ له أن الدستور فيه انتقاص لحريته ، وحدّ لسلطته ، ولذلك بدأ يغير سياسته مع السيد جمال الدين ... » .

وحينما أحس « جمال الدين » بهذا التغيير ، استأذن الشاه فى السير إلى المقام المعروف(١) « بشاه عبد العظيم » على بعد عشرين كيلومتراً من طهران ، والإيرانيون يعدون مقامه حرماً ، من دخله كان آمناً ، فأذن له بالسفر إلى هناك ...

فاتخذ السيد جمال الدين هذا المقام مركزاً لدعايته وخطبه ، ودعوة الرأى العام لطلب الإصلاح ، وأخذ كثير من العلماء والوزراء والضباط يفدون إليه ليسمعوا خطبه ، ويصغوا إلى آرائه ، ويعودوا إلى طهران وقد امتلأوا قوة وحماسة ، ورغبة فى الإصلاح ...

وأقام على ذلك أشهراً ، والشعب يزداد إقبالا عليه ، وتعاليمه تزداد انتشاراً بين مختلف الطبقات الإيرانية ، ومركز الشاه والحاشية يزداد خطراً ، ولذلك أرسل خمسمائة جندى مسلحين قبضوا على « جمال الدين » وكان مريضاً وعليه دور من أدوار الحمى ، ودرجة حرارته مرتفعة، ثم حملوه على دابة ، ونقلوه إلى البصرة على حدود الدولة العثمانية . . ولقد كان للنفى بهذه الصورة أثران كبيران :

أحدهما: من جانب أفراد الشعب الذين ثاروا على حكومة الشاه واحتجوا على معاملة«جمال الدين» بهذه الصورة . وكما يقول المخزومى(٢) : « كادت الدماء تجرى أنهاراً ، والثورة تثور ، ولكنها خمدت تحت الرماد لشدة ما خامر الشاه من الخوف على حياته ، واتخذه من الحيطة » .

---

(١) تقع شاه عبد العظيم « على بعد فرسخين من الجنوب الشرقى لبلدة طهران ، ويذهب إليها المسلمون يوم الجمعة رجالا ونساء لزيارة مقام شاه عبد العظيم ، وقضاء يومهم فيه .
Trois ans a la cour de la Perse pp. 370, 371.

(٢) محمد المخزومى : خاطرات جمال الدين ، ص ٦١ .

وثانيهما : من ناحية جمال الدين نفسه . فقد أثرت فيه الحادثة تأثيراً كبيراً .
فآلى أن ينتقم من الشاه شر انتقام ، وألا تهدأ نفسه حتى ينزله عن عرشه . .

فأخذ يكتب إلى علماء الدين المسموعى الكلمة ، يحرضهم على الشاه ، ولا يتورع أن يصفه بأقبح الصفات ، ويبين ضرره على الأمة ، ويثير عاطفتهم الدينية . وكان الشاه فى ذلك الوقت قد تعاقد مع شركة « ريجى » الإنجليزية لتقوم باحتكار « التنباك » ولذلك أصبحت دعوة السيد جمال الدين قائمة على أساس مقاومة التدخل الأجنبى والوقوف فى وجه الشاه ، والمطالبة بإصلاح البلاد من الناحيتين الداخلية والخارجية .

ومما قام به « جمال الدين » فى ذلك الوقت أن أرسل إلى « الحاج ميرزا حسن الشيرازى » كبير المجتهدين فى إيران كتاباً بين فيه سوء الحالة ، وعدد مساوىء الشاه ، وخصص بالذكر حكمه المطلق ، وتخويله الشركة الإنجليزية حق احتكار الطباق ، وطلب من كبير المجتهدين أن يقوم بعمل إيجابى لمصلحة البلاد . . ومما جاء فيه قوله(١) :

« أيها الحبر الأعظم ، إن الملك قد وهنت مريرته ، فساءت سيرته ، وضعفت مشاعره ، فقبحت سريرته ، وعجز عن سياسة البلاد ، وإدارة مصالح العباد ، فجعل زمام الأمور فى يد زنديق أثيم يسب الأنبياء فى المحاضر جهراً ، ولا يذعن لشريعة الله أمراً ، يشتم العلماء ، ويقذف الأتقياء ، ويهين السادة الكرام ، ويعامل الوعاظ معاملة اللئام ، وأنه بعد رجوعه من البلاد الإفرنجية خلع العذار وتجاهر بشراب العقار ، وموالاة الكفار ، ومعاداة الأبرار ... إلخ » .

ثم يروى قصة نفيه إلى البصرة وتآمر الشاه ووزيره عليه محاولا إثارة

---

(١) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، جـ ١ ، ص ٥٦ — ٦١ .
وترجمه مستر براون فى كتابه : الثورة الفارسية ص ٢٠ — ٢٣ . وهذه النصوص التى نقتبسها من خطاب السيد جمال الدين خاصة بمقاومة الحكم المطلق ودعوة العلماء إلى الاشتراك فى حكم البلاد .

كبير المجتهدين على الحكم الظالم الذى لا يتفق مع رغبات الشعب فيقول:

« والتمس من الوالى أن يبعدنى إلى البصرة علماً منه أنه لو تركنى ونفسى لآتيتك أيها الحبر وبثثت لك شأن الأمة وشأنه ، وشرحت لك ما حاق ببلاد الإسلام من شر هذا الزنديق ، ودعوتك إليها الحجة إلى عون الدين ، وحملتك على إغاثة المسلمين ، وكان على يقين أنى لو اجتمعت بك لا يمكنه أن يبقى على دست وزارته المؤسسة على خراب البلاد، وهلاك العباد، وإعلاء كلمة الكفر .. »(١) .

ويقول : « كيف أمكن أن صعلوكاً دنىء النسب ، ووغداً خسيس الحسب قدر أن يبيع المسلمين وبلادهم بثمن بخس ودراهم معدودة»!!(٢)...

بهذه الروح الثائرة ، وبهذا الأسلوب القوى العنيف ، كتب « السيد جمال الدين » خطابه إلى كبير المجتهدين بعد أن ضمنه آراءه بشأن الامتيازات الأجنبية ، واستبداد الشاه ومظالم الوزير .

كما نستدل من كتابة السيد جمال الدين على أنه كان يدعو أفراد الشعب — وخاصة العلماء — إلى الاشتراك فى الحكم ،وذلك لأنه يرى أن إصلاح الحكومة لا يكون إلا عن طريق الشعب . . وأن سلطة الأمة يجب أن تكون مستمدة من إرادة الأمة .

ولذا أصدر الحاج ميرزا حسن الشيرازى فتوى يحرم فيها شرب التنباك وزراعته ، فاضطر الشاه إلى فسخ عقد الامتياز ودفع تعويض للشركة .

يقول الشيخ محمد رشيد رضا : « ولعل تلك الحادثة هى المنبه الأول للعلماء إلى أن الأمور فى أيديهم »(٣) .

بهذا نجح « السيد جمال الدين » فى مقاومة احتكار الطباق وفى مقاومة استبداد الشاه ناصر الدين ، إلا أن جمال الدين لم يكتف بهذا النجاح الذى أحرزه بل أصر على متابعة نضاله حتى يشترك الشعب فى الحكم اشتراكاً

---

(١) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، جـ ١ ، ص ٦٦ .
(٢) نفس المرجع : ص ٦١ . (٣) نفس المرجع : ص ٦٢ .

فعلياً ، وآلى على نفسه ألا يهدأ حتى ينزل الشاه عن عرشه ، فلما عادت إليه صحته ، ذهب إلى لندن حيث أسس مجلة شهرية تصدر باللغتين العربية والإنجليزية اسمها «ضياء الخافقين»....وكان يكتب المقالات بتوقيع « السيد » أو « السيد الحسينى »(١) . وكان معظم اهتمامه فى كتاباته وأحاديثه فى الطعن على الشاه ، وما آلت إليه حالة إيران فى عهده ، وكان يحرض العلماء على إصدار فتوى بعدم التعاون مع الشاه ، كما كان يتحدث إلى الإنجليز فى مجتمعاتهم وأنديتهم ، وينذرهم بسوء عقبى إمدادهم الشاه ، وإعانته على أعماله ، وأخذ يسعى فى إيقاع الفرقة بين الشاه وبين الإنجليز ...(٢) . ومن قوله : « إن الشاه طغا وتجبر ، وبالغ فى الكبر والعتو ، وسب الأشراف والأولياء ، وسلم وزراءه لوزير شاب جاهل عات ظالم ، فخرب بلاد إيران ، ولم يجرئه على فعله هذا الاستناده إلى إنجلترا ، فإذا أعلنت إنجلترا أنها لا تؤيده فى أعماله المنكرة هذه ، سلمت إيران وعاد إليها الأمن والأمان»(٣).

وفى رأيى أن « السيد جمال الدين » لم يكن على صواب فى اختياره مدينة لندن ليجعلها مركزاً لمناوءة الشاه . . إذ كيف أجاز لنفسه التشهير بحكومة شرقية إسلامية فى إنجلترا ، وهى الدولة التى لها مصالح كثيرة فى الشرق ، والتى سبق له أن هاجمها فى جريدة « العروة الوثقى » والتى يمكن أن تتخذ من أقواله ذريعة للتدخل فى شئون إيران ! ! .

وكانت مقالاته فى المجلة تتسم بطابع القوة والصراحة والجرأة فى القول ، والزراية بالشاه ، والاستهانة به ، فكان يصفه بالاستبداد المطلق ، واستعمال سياسة الجور والقهر وامتصاص دماء الفقراء والمساكين واعتماده على وزير جاهل أخرق لا دين له ، ولا عقل ، ولا شرف نفس ؛ مما يخاف منه على مستقبل البلاد .

---

(١) المرجع السابق : ص ٦٣ .

(٢) Browne : The Persian Revolution, PP. 23, 24.

(٣) تاريخ الأستاذ الإمام : ج ١ ، ص ٥٥ .

ومن قوله فى العدد الثانى :

« ولماتولى هذا الشاه الطاغية ، طفق يستلب حقوق العلماء تدريجياً ، ويخفض شأنهم ، ويقلل نفوذ كلمتهم حباً فى الاستبداد بباطل أمره ونواهيه ، وحرصاً على توسيع دائرة ظلمه وجوره ، فطرد جمعاً من البلاد بهوان . . فخلا له الجو ، فقهر العباد ، وأباد البلاد ... »(١) .

كما حمل « جمال الدين » حملة شعواء على الصدر الأعظم فهو فى نظره « ليس له دين يردعه ، ولا عقل يزجره ، ولا شرف نفس يمنعه ... وهذا المارق ما قعد على دسته إلا وقام بإبادة الدين ، ومعاداة المسلمين»(٢) .

وهو يطالب العلماء بأن يقوموا بعزل الشاه حتى يكون فى ذلك عظة لغيره من الحكام،وليس الأمر عسيراً إذ يكفى أن يعلن العلماء مخالفته لأحكام الشريعة حتى ينفض الناس من حوله دون جدال أو قتال .

وليس غريباً أن يعتمد السيد جمال الدين على العلماء فى تحقيق رغباته إذ أن للعلماء فى بلاد الأعاجم — كما يقول الشيخ رشيد رضا — من الاحترام والنفوذ الروحى ما ليس لهم فى البلاد العربية وأن احترامهم فى بلاد الفرس أشد منه فى سائر بلاد العجم ، فإن الحكام ليس لهم عليهم من السلطة هناك مثل ما لغيرهم من حكام المسلمين .

وكان لهذه المقالات صداها العظيم فى إيران إذ أهاجت جماهير الشعب وجماعاتالعلماء والمفكرين وفتحت عيونهم على المظالم التى تعانيها بلادهم، وقوّت عزائمهم فى الكفاح لإزالتها والتخلص منها .

وشعر الشاه بالخطر الذى يتهدده ، فأرسل إلى سفيره فى لندن ليسترضى «جمال الدين» بما شاء من الأموال، فرفض السيد جمال الدين كل ما عرض عليه(٣) ، ولما يئس الشاه وأعيته الوسائل فى استرضائه بعث إلى السلطان

---

(١) تاريخ الإستاذ الإمام : ج ١ ، ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام : ج ١ ، ص ٦٥ .

(٣) E. G. Browne : The Persian Revolution, p. 24.

عبد الحميد يطلب منه استقدام جمال الدين إلى تركيا . . فقبل جمال الدين الذهاب بعد تردد، وكان يشغل كل مجالسه بالطعن فى الشاه ورجال حكومته. ويبدو أن السلطان عبد الحميد كان يرغب فى التخلص من الشاه «ناصر الدين» لأنه يقف عقبة فى سبيل توحيد العالم الإسلامى(١) ، فشجع جمال الدين على أن يفعل ما يشاء للتخلص من الشاه . .

وفى الساعة الثانية بعد ظهر يوم الجمعة الموافق —أول مايو سنة ١٨٩٦م— بينما كان الشاه ناصر الدين يزور مقام — الشاه عبد العظيم — قتل برصاص « ميرزا محمد رضا الكرمانى » .

ويقول المستر براون : « إن الشاه مات لساعته(٢) — كما أخبره أحد معارفه — ونقل فى العربة الملكية وبجانبه رئيس وزرائه « أمين السلطان » .

وقد اختلفت الآراء بشأن مقتل الشاه ناصر الدين . فجاء فى جرائد « التيمس والمورننج بوست والمانشستر جارديان » الصادرة فى ذلك الحين أن القاتل ينتمى إلى طائفة البابية»(٣)، أما جريدة « الديلى جرافيك » فقد كتبت فى ١٥ مايو تقول : « لا نعتقد أن للبابيين يداً فى قتله ، فليس هناك ما يدعوهم إلى ذلك ، أما ما نعتقده صحيحاً فهو أن الشيخ جمال الدين كان المحرض الحقيقى على القتل ودوافعه فى ذلك معروفة ، ذلك أنه كان دائم الطعن على الشاه ، وكتاباته كلها وتصريحاته لا تخفى حقيقة نواياه . . فكراهيته للشاه متأصلة فى نفسه ... »(٤) .

ويروى أن جمال الدين حينما سمع بمصرع الشاه اعترته موجة من الغبطة وقال لأصحابه : « قد تحقق الآن أن الأمة الفارسية لم تمت ، وأنها أمة لم تنقطع منها الآمال ، لأن الأمة التى يقوم من أبنائها من يأخذ بثأرها ، ويفتك بالطاغى الذى على رأسها لا تكون قد فقدت جراثيم الحياة »(٥) .

---

(١) من أقوال قاتل الشاه . Ibid., P. 83

(٢) Ibid., p. 59.

(٣) Ibib., p. 60.

(٤) Ibid., p. 61.

(٥) قدرى قلعجى : جمال الدين الأفغانى ، ص ٩٠ .

ووقعت فى يده إحدى المجلات الفرنسية وكانت قد نشرت صورة « ميرزا رضا الكرمانى » مصلوباً والناس من حوله يتألمون عليه فردد قول الشاعر :

علو فى الحيـــاة وفى الممات لعمرك تلك إحدى المعجزات

وقال لإخوانه :

« انظروا كيف علقوه عالياً عليهم حتى يكون ذلك رمزاً إلى أنهم كلهم من دونه » . !!

وإن أحسن ما يمكن الرجوع إليه هو أقوال « ميرزا رضا الكرمانى » التى أدلى بها للمحققين . وهى محفوظة بدار العدل بطهران ، وصرح بنشرها فى « بوق إسرافيل » ، وأما الاستجواب فلا يهمنا منه إلا الجزء الخاص بالسيد جمال الدين .

❋ ❋ ❋

استجواب قاتل الشاه ناصر الدين

س : لماذا قتلت الشاه وأردت التخلص منه ؟(٢) .

ج : لقد عم الظلم أنحاء البلاد ، وانتشر الفساد حتى أصبحت الثورة على حكمه كامنة فى النفوس . وأوشكت أن تقضى على عرشه . . . لقد منح الأجانب كثيراً من الامتيازات ، فكاد امتياز الطباق يجر البلاد إلى الخراب . كما منحهم حق احتكار الكروم وامتياز البنك ، وأعطاهم حق البحث عن المعادن واحتكار السكر والكبريت ، ولن يمض إلا قليل حتى نصبح نحن — معشر المسلمين — فى أيدى الأجانب . . وقليلا قليلا . . سيتلاشى الإيمان من النفوس . . إننى حينما قتلت الشاه لم أكن أبغى سوى الإصلاح(٣) .

س : ولنفرض أنك كنت تهدف إلى الإصلاح ، ألم يكن هناك سبيل آخر

(١) E. G. Browne : p. 67, 68.

(٢) هناك تقارب كبير بين إجابة ميرزا رضا الكرمانى ومقال جمال الدين المنشور بكتاب الأستاذ الإمام ج ١ ص ٥٨ و ٥٩ (عن حالة إيران) .

للإصلاح سوى إراقة الدماء ؟ . ومن هم أعوانك والذين يعتنقون مذهبك فى الإصلاح حتى نستطيع أن نأخذ بنصيحتهم ، ونحقق لهم الإصلاح الذى يريدونه لبلادهم ؟ (١) .

ج : إن الذين يشتركون معى فى الرأى كثيرون ، فهم منتشرون فى كل مدينة وفى كل قرية ، ومن مختلف الطبقات . . تراهم بين العلماء والوزراء والنبلاء والتجار والصناع . لقد وفد السيد جمال الدين « إلى طهران فاستقبله الشعب بمختلف طبقاته — كما تعلمون — استقبالا يليق بمقامه ، وما حدث فى طهران ، حدث فى بلدة الشاه عبد العظيم ، إذ وفد عليه عدد كبير وكانوا يأملون زيارته والتمتع بحديثه وكان يخطب فيهم ، عاملا لخيرهم ، وللخير العام ، فاستفاد منه الجميع ، وتأثروا بآرائه ... »(٢) .

إنه وضع بذور الإصلاح بآرائه القيمة ، غرسها فى قلوب الناس أجمعين . . والآن تراهم وقد تنبهوا ، وآمنوا بنفس المبادىء التى أومن بها . .

إننى أقسم بالله العلى القوى الذى خلق السيد جمال الدين وخلقنى وخلق العالم أجمع أنه لم يكن أحد يعلم بنياتى الخفية سواى والسيد جمال الدين . .

وإنه الآن فى القسطنطينية فاعملوا ما تشاءون ضده ، ولو كنت أخبرت أحداً بنواياى لافتضح الأمر وكشف السر ، ومعظم الناس يتعلقون بالمراكز والحياة . . وهؤلاء السادة نصير الملك ومشير الدولة وغيرهم ،الذين كانوا يعلنون فى كل وقت استعدادهم لتنفيذ رغبات الشاه ، وموافقته على كل أعماله ما كادوا يرون عملى حتى تراجعوا جميعاً . . »

أما عن مقابلتى — للسيد جمال الدين — فأظن أن ذلك حدث فى خريف سنة ١٨٩١م حينما زار إنجلترا بعد خروجه من إيران وطرده منها ،

(١) E. G. Browne p. 44.

(٢) Ibid., p 73.

وكانت مقابلتنا فى منزل « مليكم خان » ولقد كان تأثير هذه الشخصية قوياً فى نفسى فتحدثنا عن البابية . .

وفى مجرى الحديث سألته عن حكومة إيران فقال — على قدر ما أذكر :

إنه لن يرجى للبلاد صلاح إلا بعد قتل ستة أو سبعة رؤوس أولها الشاه ناصر الدين ، وثانيها الصدر الأعظم ، ولقد قتل الاثنان كما أراد السيد جمال الدين ... »(١) .

س : لماذا قتلت الشاه ناصر الدين ؟ (٢) .

ج : وماذا فعل السيد جمال الدين — «من نسل الأنبياء» — ذلكم الرجل الحر القدير ، حتى يجر إلى بلاد العراق بطريقة وحشية من الشاه عبد العظيم ، حتى إن ملابسه الداخلية تمزقت؟ وماذا قال السيد جمال الدين سوى أنه أعلن الحقيقة ولا شيء سواها ؟.

وحينما(٣) سئل عن « الحاج شيخ هادى » وعن حقيقة شخصيته قال : إنه شخصية معروفة جداً ، وهو يستطيع أن يخلق رجالا بسهولة . . إنه استطاع حتى الآن أن يرفع الغشاوة عن أعين عشرين ألفاً من الرجال ، واستطاع أن يفهمهم وينبههم إلى حقائق الأمور .

س : هل هو أيضاً صديق حميم للسيد جمال الدين؟؟(٤) . وهل يراسله ؟ .

ج : ماذا يمكنني أن أقول ؟ وهل أعرف ما إذا كان يراسله أم لا ؟ ولكن الذى أعتقده وأعرفه هو أن الشيخ الهادى يحب السيد جمال الدين ، ويرى أنه من أعظم الرجال الذين ظهروا فى عصرنا هذا ، ويرى أن حقائق العصر كلها واضحة أمام ناظريه ، ورقاب الفلاسفة والكتاب الأوروبيين تنحنى له إجلالا وتكريماً ، وكل العالم يذكره بالفضل . . .

---

(١) E. G. Browne : The Persian Revolution p. 45.

(٢) Ibid., p. 44.

(٣) Ibid., p. 81.

(٤) Ibid., p. 82.

ألا إن الشيخ جمال الدين من أعظم العلماء ، ولكن الحكومة الإيرانية لا تود أن تستفيد منه ، وتعترف بفضله .. اذهبوا إلى تركيا لتروا كيف يقدره جلالة السلطان . إن السيد جمال الدين حينما ذهب إلى لندن بعد خروجه من إيران بعث إليه السلطان عدة برقيات . وكان يقول له فيها : « تعال هنا إلى تركيا — مركز الإسلام — واجعل المسلمين يستمعون إلى صوتك القوى ، فإنك لو بقيت كما أنت فلن يفيد منك المسلمون شيئاً » ولكن جمال الدين كان يرفض الذهاب حتى ألح عليه « مليكم خان » لتلبية دعوة السلطان ولذا ذهب السيد إلى القسطنطينية ، فأكرم السلطان وفادته ، ويعطيه مرتباً شهرياً لنفقاته ويرسل إليه الطعام من مطبخه الملكى الخاص . .

وحينما دعاه السلطان إلى قصر « يلدز » قبل رأسه ، وجلسا سوياً فى اليخت الملكى الذى كان فى حديقة القصر ، وتناقشا سوياً ، وأخذ جمال الدين على عاتقه عهداً بضرورة توحيد الأمم الإسلامية وجعلها كلها تحت لواء الخليفة الأكبر ، وسيكون الخليفة سلطاناً روحياً على جميع المسلمين ... (١)ولذا بعث السيد جمال الدين إلى جميع أنحاء إيران ، وكان يبين للناس جميعاً أن الأمم الإسلامية إذا اتحدت فلن تستطيع أية دولة على ظهر الأرض أن تعتدى عليها . . فيجب عليهم أن يطرحوا الخلافات الحزبية جانباً ولا يتنازعوا بشأن على وعمر ، بل يجب أن يتجهوا جميعاً إلى الخلافة . . ولما كان السلطان العثمانى يرى أن شاه إيران يقف عقبة فى سبيل توحيد العالم الإسلامى فقد طلب من جمال الدين أن يفعل ما يشاء للتخلص من هذا الشاه دون أن يخشى شيئاً .

س : إنك لم تحضر هذا الاجتماع ، فكيف عرفت حقيقة ما دار بين السلطان وجمال الدين ؟ .

ج : إننى كنت مخلصاً جداً للسيد جمال الدين وكان من ناحيته يقدرنى تقديراً كبيراً ، ويؤثرنى بكل شىء عن بقية الناس . . ولقد أخبرنى

---

(١) Ibid., p. 83.

بتفصيل ما دار بينه وبين السلطان وأسر إلىّ بكل شىء، وأخبرنى فى محادثات كثيرة ما كان يريده ولكنى لست أتذكر الآن كل ما قاله لى .

❋ ❋ ❋

من هذه الأقوال التى أدلى بها « ميرزا رضا الكرمانى » نستطيع أن نتبين الصلة التى كانت قائمة بينه وبين جمال الدين الأفغانى ، ونستطيع أن نقول دون تحرج إنه كان مؤمناً بآراء جمال الدين فى الإصلاح إيماناً مطلقاً . . فهو يعمل على هدم دعائم الحكم الاستبدادى وتقويض أركانه . .

ولما كان « الشاه ناصر الدين » أسوأ مثل للاستبداد فى إيران ، رأى أن يتخلص منه خاصة وأن أستاذه وصديقه « جمال الدين » أشار إلى ذلك من قبل ، ليكون ذلك العمل فاتحة للحكم الدستورى ، وليكون ذلك عظة لغيره من الحكام المستبدين الذين يتجاهلون إرادة الأمة ، ويحكمون دون الرجوع إلى مشورة الشعب . .

ولنحاول أن نبين — بعد ذلك — مدى نجاح دعوة « جمال الدين » فى تحقيق الحكم الدستورى . .

❋ ❋ ❋

نمو الحركة الدستورية

لم تكن فى إيران هيئة نيابية تمثل الشعب ، وتشترك فى مظاهر الحكم طوال عهد الشاه « ناصر الدين » ، إلا أن الرأى العام أخذ فى الظهور فى ذلك الحين ، وبدأت مظاهر النشاط والمعارضة ترتسم فى أفق الحياة الإيرانية بعد أن كان يخيم عليها الخمول والجمود . . .

ويجدر بنا أن نستعرض العوامل التى أدت إلى هذا التطور .

فالتدخل الأجنبى فى شئون البلاد وخضوع الشاه ناصر الدين لمطالب الدول ، ومنحه الامتيازات التجارية لإنجلترا وروسيا . . كل ذلك جعل

الناس يتبرمون بهذه الحالة السيئة ، ويبحثون عن الوسائل المؤدية للخلاص منها ، ومن هنا نشأت نهضة عامة فى أفكار الخاصة قوامها التطلع إلى إصلاح الأحوال ، وإنقاذ البلاد من الكوارث التى نزلت بها . . وقد تجلى ذلك فى كتابات « مليكم خان » كما سنبين فيما بعد . .

وقد ساعد على تهيئة الأفكار لهذه النهضة ظهور الصحافة وإنارتها أفكار القراء بما تنشره من المقالات الوطنية وأخبار الأمم وشئونها السياسية والاجتماعية . . ومن أمثلة هذه الصحف جريدة « اطلاع » التى تصدر فى طهران ، والتى كانت تترجم مقالات العروة الوثقى (١) إلى اللغة الإيرانية ، وجريدة « النجمة » التى هاجمت امتياز الطباق . . .

وكان لمجىء « جمال الدين » إلى إيران أثر كبير فى نمو الرأى العام وتطور النهضة . فهو يرى أن إصلاح الحكومة لا يكون إلا عن طريق الشعب ، « وأن الإنسان الحقيقى هو الذى لا يحكم عليه سوى القانون الحق المؤسس على دعائم العدل الذى قد سنه لنفسه ، يحدد به حركاته وسكناته ومعاملاته مع غيره على وجه يصعد به إلى أوج السعادة الحقيقية »(٢)

وكان « جمال الدين » يعلن أن الأمة الإيرانية التى كان لها أكبر الفضل على العالم الإسلامى قد أبادها الجور ، وقضى عليها استبداد الملوك فيقول :

« أسفاً على هذه الأمة كيف أبادها الجور ، وبددها الظلم حتى سقطت عن عداد الأمم العظيمة ، وكاد أن يندرس رسمها ، وينطمس اسمها » (٣)

---

(١) العروة الوثقى : ص ٢١٥ و ٢١٦ ، راجع مقال : دعوة الفرس إلى الاتحاد مع الأفغانيين . .

وقد جاء فيها عن جريدة « اطلاع » وترجمتها لمقالات العروة الوثقى ما يأتى :

« وهذا المنهج القويم مما تعم به الفائدة فى جميع الأقطار الإسلامية فإن جميعها بعد بلاد العرب وإن اختلفت ألسنة سكانها باختلاف شعوبهم إلا أنهم ينطقون باللغة الفارسية فهى فى الشرق كاللسان الفرنسوى فى الغرب وكان بودنا أن يغزوا أفكارنا بما تجود به قرائحهم السليمة وأذهانهم الصافية ، وترشدهم إليه عقولهم العالية »

(٢) راجع مقالة « الحكومة الاستبدادية » مقالات لم تنشر : ص ٢ .

(٣) مجلة ضياء الخافقين : العدد الأول ، فبراير ١٨٩٢ ، تاريخ الأستاذ الإمام ، ص ٦٩ .

ويقول موجهاً حديثه إلى العلماء :

« أين العلماء ، وأين حملة القرآن ، وأين حفاظ الشرع ، والقائمون بأمر الأمة ، وأين نصراء الحق والعدل ؟ ؟ . . » .

ومن غريب الأمر أن السيد « جمال الدين » كان يؤمن بفساد الحكومة الإيرانية قبل مجيئه إلى إيران ، فني مقاله الذى نشره فى مصر سنة ١٨٧٩ م ، والذى تحدث فيه عن الحكومة الاستبدادية اعتبر الحكومة الإيرانية من أول أقسام الحكومات الاستبدادية فقال (١) :

« الحكومة الفارسية : وهى التى تكون أركانها شبيهة بقطاع الطريق ، فكما أن قاطع الطريق يقطع طرق السابلة ويسلبهم أموالهم ومؤنهم وثيابهم التى تقيهم الحر والبرد ، وسائر مواد حياتهم ويتركهم فى البوادى والقفار حفاة عراة جياعاً ، تقطعت بهم حبال الوسائل . .

كذلك هؤلاء الأركان يغتصبون ضياع رعاياهم وعقاراتهم ، ويستولون على مساكنهم وبساتينهم . . الخ »

وقد أيد منطق الحوادث صدق نظريته وأصالة رأيه ، ولذا لم تمض فترة طويلة حتى استجاب الشعب لآرائه ، واعتنق مبادئه ، وبدأت قوة المعارضة فى الظهور . .

فلما خرج جمال الدين من إيران ظلت دعوته تنمو بين الأفراد ، وآراؤه تنتشر بين مختلف الطبقات ، وكان لمقتل الشاه « ناصر الدين » أثر كبير فى زيادة سلطة الشعب خاصة وأنه كان من أظهر صفات الحاكم الجديد « مظفر الدين قاجار » (٢) الجبن والضعف والتردد .

ولذا لم ينته عهده إلا بحصول الأمة على الدستور فى سنة ١٩٠٦ .

❋ ❋ ❋

تولى « مظفر الدين شاه » الحكم سنة ١٨٩٦ ، وكان ضعيف الشخصية ،

(١) راجع مقالات لم تنشر : الحكومة الاستبدادية .

(٢) تولى الحكومة من ١٨٩٦ — ١٩٠٧ راجع : Sykes, Persia p. 143.

Elgin Groseclose : Introduction to Iran, p. 62.

فاقد الإرادة ، ولذا ترك أمور الدولة فى يد رئيس وزرائه « عين الدولة » الذى كان مكروهاً من كافة طبقات الشعب » (١) .

ولم يكن الشاه يستقر على رأى واحد، ولا على خطة واحدة، بل كان يقابل مطالب الشعب تارة باللين وآونة بالشدة ، ولم يكن صريحاً فى سياسته ولا تصرفاته . .

كما أن حالة البلاد المالية أخذت تسوء منذ توليه الحكم ، فاضطر فى سنة ١٩٠٠ إلى عقد قرض مع روسيا يقدر بحوالى اثنين ونصف مليون من الجنيهات بفائدة قدرها ٥ ٪ ، كما أنه أرهق الشعب بالضرائب حتى أن رئيس المجتهدين فى تبريز حث الأهالى على الامتناع عن دفع الضرائب ، فكان مصيره النفى خارج البلاد .

ظلت الأحداث تتلاحق بالبلاد الإيرانية ، والأزمات المالية تتوالى ، والكوارث والمحن تنتاب البلاد حتى ضاق الشعب بحكم الشاه ، وسياسته الاستبدادية ، فاتفق ثلاثة من الزعماء هم (٢) : « سيد عبد الله » ، « والسيد محمد طباطبا » ، « والشيخ فضل الله » وهم ممن تأثروا بآراء « جمال الدين الأفغانى » ، واعتنقوا مبادئه فى الإصلاح ، على القيام بثورة يكون عمادها التجار ورجال الدين ، واعتصموا بمسجد الشاه « عبد العظيم » ، ولما فشل الشاه فى القضاء على الثورة اضطر إلى أن يستجيب لقرارات الثوار ، فوعدهم بإنشاء « هيئة قضائية » (٣) يتساوى أمامها جميع أفراد المملكة تعرف باسم « مجلس العدل » كما عزل رئيس وزرائه « عين الدولة » .

وفى إبريل عام ١٩٠٦ ذهب جماعة من العلماء يطالبون الشاه بإنشاء مجلس العدل ، وسن دستور للبلاد تحدد فيه لجميع المواطنين المسئوليات ، وتبين فيه الحقوق والواجبات . وأضربت إيران على الأثر تأييداً لهم

---

(١) Sykes : Persia p. 143.

(٢) E. G. Browne : The Persian Revolution, p. 105

(٣) E. G. Browne : The Persian Revolution, p. 106; Sykes p. 144.

وانطلقت المظاهرات فى شوارعها مطالبة بالدستور والحرية (١) واعتصم المتظاهرون وعددهم اثنا عشر ألفاً بحدائق المفوضية البريطانية بطهران ، وأقسموا على عدم مبارحتها حتى يستجيب الشاه لمطالبهم ، ويسن الدستور المقترح للبلاد ، فتدخل وزير بريطانيا المفوض فى طهران بين أحرار الإيرانيين وبين الشاه لحل الخلاف الناشب بين الفريقين ، وأقنع الشاه بضرورة الاستجابه لرغبات الشعب الثائر لحريته فأذعن الشاه وأعلن الدستور . .

يقول مستر براون :

« حينما كنت فى إيران ، وجدت النفوس مهيئة للحكم الدستورى وكان الجميع يسألوننى عن دستور بلادى ، والطريقة التى تتبع فى تنفيذ قراراته ».

ويقول : « إنه لم تمض فترة طويلة على صدور الدستور حتى زاد نفوذ نواب الأمة ، وبدأت الحياة الدستورية تسير فى طريقها غير متعثرة» (٢) .

ولما تولى « محمد على شاه » الحكم انتهز فرصة اضطراب الأحوال الاقتصادية والمالية فى إيران ، فوأد الدستور فى مهده ، وحاول إعادة عجلة التطور إلى الوراء ، وأعلن الحكم العرفى ، وقرر حكم رعاياه بالقوة ، فأثار هذا الموقف أحرار إيران ، فانفجرت المظاهرات فى جميع البلدان الإيرانية مطالبة الشاه بالرجوع عن قراره والعدول عن موقفه وإعادة الدستور إلى الأمة ، إلا أنه أبى أن يستجيب لرغبات الشعب فاجتمع أحرار الإيرانيين وحرضوا قبيلة البختيارى على الزحف على طهران واحتلها بمساعدة أبنائها الأحرار بعد تنازل الشاه عن العرش لابنه « أحمد مرزا شاه » وفراره إلى روسيا . .

وقد صدرت القوانين الأساسية للدستور فى أكتوبر سنة ١٩٠٧ (٣) وبمقتضى هذا الدستور وضعت السلطة التنفيذية فى يد الملك الذى يستمد

---

(١) Elgin Groseclose : Introduction to Iran, p. 62.

(٢) راجع : E. G. Browne : The Persian Revolution p. 122.

(٣) راجع نصوص الدستور : Modern Iran :p. 207, Browne, pp.372—384

سلطته من إرادة الشعب ، والسلطة التشريعية فى يد مجلسين ، كما تقرر مبدأ مسئولية الوزراء ومبدأ المساواة بين أفراد الشعب فى دفع الضرائب .

وبذا نجحت دعوة جمال الدين الأفغانى فى القضاء على الاستبداد الداخلى ، وحصل الشعب الإيرانى على الحكم الدستورى . .

* * *

ثانياً : مقاومة التدخل الأوروبى وإثارة الوعى القومى

عملت الدول الأوروبية — خلال القرن التاسع عشر — على إيجاد مناطق نفوذ لها فى الشرق ، وكانت إيران مطمع أنظار الدول لموقعها المتوسط بين الشرقين الأدنى والأقصى ولغناها فى البترول ، وقربها من أسواق الهند التجارية . وقويت المنافسة بين فرنسا وروسيا وإنجلترا ، فعملت كل منها على تنفيذ مآربها فى إيران .

ففرنسا فى عهد نابليون كانت ترغب فى القضاء على قوة إنجلترا فى الشرق ،والاستيلاء على مستعمراتها فى الهند،وذلك بالتقدم إلى إيران ومنها تتجه الجيوش الفرنسية إلى الهند .

ولكن حينما هزم نابليون وقضى على إمبراطوريته سنة ١٨١٥ خرجت فرنسا من ميدان الاستعمار « واقتصر التنافس فى إيران بين روسيا وإنجلترا »(١)

وكانت روسيا بحكم موقعها على بحار متجمدة تبحث عن طرق لتجارتها وتعمل على الوصول إلى ثغور مفتوحة فى البحر الأبيض أو فى الخليج الفارسى وكانت تسعى إلى تحقيق سياسة بطرس الأكبر الذى قال لشعبه :

« أثيروا الحروب المتتابعة على إيران إلى أن تتلاشى قوتها وتضمحل ، وعندها تقدموا بجيوشكم فى داخل البلاد الإيرانية ولا توقفوها حتى تستولى على شاطىء خليج العجم ، ومن هناك غذوا السير نحو الهند مستودع العالم » (٢).

(١) Elwell - Sutton : Modern Iran, p. 234.

(٢) Percy Sykes : History of Persia, II , pp. 244—245.

إلا أن إنجلترا قاومت هذه السياسة مقاومة فعالة خوفاً من تقدم الروس فى بلاد الشرق ، وخشية أن يؤثر ذلك على مركزها فى الهنـد .

وكانت إنجلترا من ناحيتها تحرص على أن يكون لها نفوذ متفوق فى إيران ، فعقدت معاهدة مع شاه إيران سنة ١٨٠٧ يتعهد فيها بمد يد المساعدة للدفاع عن الحدود الشمالية الغربية للهند فى مقابل أن تمده إنجلترا بالعون والمساعدة إذا وقع عدوان على بلاد إيران . .

وفى عام ١٨١٤ أبرمت الدولتان اتفاقاً عسكرياً تتعهد فيه إيران بمنع أى قوة أوروبية من الاقتراب إلى الهند عن طريق أراضيها وأن لاترتبط بأى اتفاق مع دولة أخرى يمكن أن يسىء إلى المصالح البريطانية أو يتعارض معها . . وأخذت إنجلترا على عاتقها تنظيم الجيش الإيرانى وتقوية مركز الشاه السياسى حيال جيرانه وأن تساهم فى الدفاع عن إيران ضد أى عدوان خارجى كما تعهدت بإعانة حكومة الشاه بمائة وخمسين ألفاً من الجنيهات طالما لا تشترك أو تقوم بأى حرب عدوانية .

وفى عام ١٨٢٨ م هزمت القوات الإيرانية أمام الروس فاضطر الشاه إلى إبرام معاهدة « تركمانجاى » مع الروس اعترف فيها للرعايا الروس فى إيران بامتيازات عديدة ، كان أهمها حق روسيا فى محاكمة رعاياها فى إيران دون أن يكون لرعايا إيران فى روسيا هذا الحق . . .وخفض الضرائب التى تحصل على التجارة الروسية إلى ٥ ٪ من قيمتها الحقيقية .

وأصبحت الامتيازات التى نالها الروس فى معاهدة « تركمانجاى » حقاً تطالب به الدول الأوروبية الأخرى ، وحمل إنجلترا على إعادة النظر فى معاهدة ١٨١٤ ، وبذلك توطد كيان الامتيازات الأجنبية فى إيران وظلت إنجلترا تعمل على زيادة نفوذها فى إيران ، فاستطاعت فى عهد الشاه ناصر الدين الحصول على عدة امتيازات أهمها :

امتياز بإنشاء بنك حكومى يشرف على مالية البلاد كما حصل «وليام دارسى» على امتياز البحث عن البترول واستغلاله فى خمسمائة ألف ميل من أراضى

إيران شاملة لكل مناطقها ما عدا المقاطعات الشمالية الخمس وهى أذربيجان وجيلان ومازندران واستراباد وخراسان » (١) .

وكانت الشروط التى حصلت عليها إيران صفقة خاسرة إذ لم يزد ثمن هذا الامتياز على عشرة آلاف جنيه إنجليزى تدفع نقداً وحصة من أرباح استغلال البترول قيمتها ١٦ ٪ تدفع كل عام .

وفى سنة ١٨٩٠ م حصلت شركة « ريجى » الإنجليزية على امتياز يخول لها حق احتكار الطباق لمدة خمسين عاماً مقابل أن تدفع للحكومة الإيرانية خمسة عشر ألفاً من الجنيهات كل عام بالإضافة إلى ربع الأرباح السنوية .« وقد ذكرت إحدى الجرائد الأجنبية أن كمية الطباق المستهلكة فى إيران تبلغ حوالى ٢٫٤٠٠٫٠٠٠ كيلو جرام سنوياً ، وقدرت قيمة الأرباح بخمسمائة ألف جنيه » (٢) .

ولما كان هذا الامتياز جائراً بحقوق الإيرانيين ، فقد عملت طبقات الشعب على مقاومته ، واتخذت المقاومة صورة قومية ، ومظهراً وطنياً ، وأصبح هدفها إلغاء الامتيازات التى حصل عليها الإنجليز ، ووقف تقدم الغرب الاقتصادى فى الأراضى الإيرانية . .

ويرجع الفضل الأكبر فى نمو حركة المقاومة إلى جهود « السيد جمال الدين الأفغانى »

❋ ❋ ❋

أثر جمال الدين فى مقاومة التدخل الأجنبى :

أدرك « جمال الدين الأفغانى » أن الدول الأوروبية تسعى إلى تحقيق سيطرتها فى إيران ، وأن هذه الامتيازات ليست إلا وسيلة للإشراف على شئون البلاد الاقتصادية ، وأنها تحمل فى ثناياها عوامل التدخل السياسى

---

(١) George Lenczowski : Russia and the west in Iran, pp. 76, 77.

(٢) E. G. Browne : The Persian Revolution, pp. 47, 48.

فعمد إلى إثارة الوعى القومى بين الإيرانيين ، وتهيئة النفوس للثورة على سياسة الاحتكار ، ومقاومتها بكافة الوسائل . .

كان « جمال الدين » يخطب فى الأهالى ويبين لهم نتائج السياسة الخطيرة التى تنتهجها الحكومة ، ويحثهم على مقاومة احتكار الطباق « الذى يقضى عليهم بالإفلاس والموت » (١) .

فلجأت الحكومة إلى الرد عليه عن طريق الصحف الموالية لها ومما قاله أحد أنصار الحكومة :

« يعتبر العقد الخاص باحتكار الطباق صفقة عظيمة للحكومة الإيرانية وأفراد الشعب على السواء . . أما عن الحكومة فلن يقل إيرادها السنوى عن خمسة عشر ألفاً من الجنيهات بالإضافة إلى ربع أرباح الشركة وليس ذلك بالمبلغ اليسير ، كما أن الشعب من ناحيته سيفيد كثيراً من هذا الامتياز . . . فالطباق فى الوقت الحاضر يتداوله عدد كبير من التجار حتى يصل إلى المستهلك ، ولا شك أن كل تاجر من هؤلاء برأس ماله البسيط يريد أن يربح أرباحاً مضاعفة فيصل الطباق فى النهاية إلى المستهلك غالى الثمن . . . أما إذا احتكرته الشركة الإنجليزية برأس مالها الضخم فلن يرتفع ثمنه كثيراً وفى ذلك مصلحة لأفراد الشعب . . .

أما من ناحية المزارعين فإنهم يخسرون كثيراً فى الوقت الحاضر لأن التجار يشترون منهم الطباق بأثمان بخسة ولكن الشركة الإنجليزية سيكون من مصلحتها أن تشجع المزارعين وتدفع لهم أثماناً معتدلة حتى يزداد إنتاجهم»(٢) .

ويمضى هذا الكاتب وغيره من أنصار الحكومة فى تأييد سياسة الاحتكار الأجنبى ، وتضليل الشعب ، إلا أن السيد « جمال الدين » استمر فى معارضته ، وأراد الاتصال بكبير المجتهدين « الحاج ميرزا حسن الشيرازى » ليشرح له حقيقة الموقف ، ويدعوه إلى حث الشعب على مقاومة التدخل الأجنبى الذى بدأ يتغلغل فى شئون البلاد من الناحية الاقتصادية . . . فلما شعر الشاه

---

(١) Ibid., p. 33.

(٢) Ibid., p. 34, 35.

بذلك خشى على مركزه وأمر بإخراج السيد « جمال الدين » من إيران وإبعاده إلى البصرة .

فلما أبعد « جمال الدين » ، ووجد نفسه خارج الحدود الإيرانية ، أرسل إلى « الحاج ميرزا حسن الشيرازى » كتاباً طالبه فيه بمقاومة الشاه والعمل على إلغاء عقد الامتياز ، ومما جاء فيه خاصاً بالتدخل الأجنبى :

« ثم إنه باع الجزء الأعظم من البلاد الإيرانية ومنافعها لأعداء الدين — المعادن والسبل الموصلة إليها ، والطرق الجامعة بينها وبين تخوم البلاد والخانات التى تبنى على جوانب تلك المسالك الشاسعة التى تتشعب إلى جميع أرجاء المملكة وما يحيط بها من البساتين والحقول . . والتنباك وما يتبعه من المراكز ومحلات الحرث وبيوت المستحفظين والحاملين والبائعين أنى وجد وحيث نبت ، وحكر العنب للخمور ، وما تستلزمه من الحوانيت والمعامل والمصانع فى جميع أقطار البلاد — ثم إن الخائن البليد أراد أن يرضى العامة بواهى برهانه فحبق قائلا :

« إن هذه معاهدات زمانية ، ومقاولات وقتية لا تطول مدتها أزيد من مائة سنة ! ! ! »

وبالجملة إن هذا المجرم قد عرض إقطاع البلاد الإيرانية على الدول ببيع المزاد ، وإنه يبيع ممالك الإسلام ودور محمد وآله عليه الصلاة والسلام للأجانب ، ولكنه لخسة طبعه ودناءة فطرته لا يبيعها إلا بقيمة زهيدة ودراهم معدودة ! ! ! » (١) .

ثم طالب كبير المجتهدين بالقيام بناصر الأمة وجمع كلمتها وحفظ بلاد الإسلام من سلطة الأجانب . .

وقد كان لهذا الكتاب أثره فى نفس « الحاج ميرزا حسن الشيرازى » فأرسل بدوره كتاباً إلى الشاه ناصر الدين قال فيه : « إن إعطاء الامتيازات وبيع حقوق الأمة للأجانب من الأمور التى يحرمها الدين وتأباها الشرائع والقوانين »

---

(١) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ١ ، ص ٥٨ ، ٥٩ .

وأيده فى ذلك علماء الأمة ومفكروها الأحرار ، ولكن الشاه لم يأبه لنصحهم ، ولم يذعن لأقوالهم .

فأصدر كبير المجتهدين فتوى بتحريم التنباك، فأسقط فى يد الشاه ، وأيقن أن محاولاته فى سبيل تحطيم مقاومة الأمة قد أصابها الفشل ، فاضطر إلى إلغاء عقد الامتياز للشركة .

يقول « الدكتور فيفرير » طبيب الشاه « ناصر الدين» الخاص: «حينما أصدر كبير المجتهدين فتواه ، أغلق جميع التجار حوانيتهم ، ولم يعد أحد يستعمل الشيشة حتى النساء امتنعن عن شرب التنباك .. فأية طاعة هذه؟؟ وأى نظام هذا الذى اتبعه الشعب ؟ ؟ إنه لشيء يثير العجب حقاً ! ! » (١)

ويقول :

« وفى قزوين وجد أحد العلماء رجلا يدخن ، فطلب منه أن يكف عن ذلك مشاركة للشعب ، إلا أن الرجل رفض طلبه مما دعا العالم إلى أن يحطم له غليونه . . فتقدم الرجل للحاكم عارضاً عليه الأمر . . . فاستدعى الحاكم العالم ليحقق معه ، ولكن الشعب ثار على الحاكم وأراد أن يقتله ، وهدده فى قصره مما جعل الحاكم ينجو بنفسه ويهرب من قزوين » (٢) .

وبعد أن ألغى عقد الامتياز ، دفعت الحكومة الإيرانية تعويضاً « وبعد يومين من ذلك-كما يقول فيفرير-بدأ أربعون موظفاً من موظفى الشركة يرحلون عن البلاد . . . ومعظم هؤلاء لن ينسوا بدون شك الأيام العصيبة التى مروا بها منذ أن وطئت أقدامهم أرض إيران . . وهم اليوم يرحلون سعداء إذ يفارقون هذه البلاد التى كانت مهداً للثورة » (٣) .

وهكذا استطاع جمال الدين أن يثير الحاج « ميرزا حسن الشيرازى » ، ونجحت مقاومة احتكار الطباق، فكان من نتيجتها نمو الوعى القومى ، وتقلص نفوذ الأجانب وخاصة الإنجليز . . « حتى إن الحاج ميرزا أرسل برقية

---

(١) Dr. Feuvrier : Trois ans a la cour de la Perse, p. 322.

(٢) Ibid., p. 323.

(٣) Ibid., p. 348.

إلى الشاه فى أول يناير سنة ١٨٩٢ م يهنئه فيها بالغاء عقد امتياز الطباق . ويطالبه بإلغاء بقية الامتيازات » (١) .

ولم تتوقف جهود « جمال الدين » عند هذا الحد ، بل استمر يكتب عن إيران ، ويتحدث عنها وهو فى لندن وتركيا وكان يبعث رسله إلى البلاد داعين إلى مقاومة الحكم الأجنبى على اختلاف مظاهره . . فكان لجهوده أكبر الأثر فى تطور الوعى القومى فى إيران .. ومما يؤيد ذلك قول «ميرزا رضا الكرمانى » :

« إنه وضع بذور الإصلاح بآرائه القيمة . . . غرسها فى قلوب الناس أجمعين ، والآن تراهم وقد تنبهوا وآمنوا بنفس المبادىء التى أومن بها » (٢).

ولم تكن هذه المبادىء التى يتحدث عنها سوى مناهضة الحكم الاستبدادى ، ومقاومة التدخل الأجنبى . . .

* * *

ثالثاً : دعوة الإيرانيين إلى الاتحاد مع الأفغانيين

تمتاز البلاد الأفغانية بمركزها الجغرافى المتوسط فهى تقع فى وسط آسيا ، وتكون الحدود الشمالية الشرقية لهضبة إيران . ونظراً لتقارب حدود الدولتين ، نشب الصراع بينهما طوال العصور التاريخية المختلفة . وكانت المنازعات بينهما تنتهى تارة بانتصار الأفغانيين وتارة أخرى بتفوق الإيرانيين . .

وقد حدث — فى أوائل القرن التاسع عشر — أن «محمود خان العبدالى» حاكم أفغانستان استوزر « فتح خان البارکزائى »، وكان الوزير المذكور شجاعاً فسعى فى توسيع نطاق المملكة الأفغانية ، وجمع جيشاً وسار قاصداً فتح « خراسان » وهى وقتئذ من أملاك إيران فأرسل شاه إيران جيشاً لصد

(١) E. G. Browne : The Persian Revolution, p. 57.
(٢) Ibid., p. 45.

هجمات الأفغانيين وتمكن من هزيمتهم . . . حينئذ أرسل شاه إيران إلى حاكم أفغانستان يطلب منه تسليم الوزير أو أن يسمل عينيه وإلا اضطر لمهاجمة أفغانستان ، فسمل عينيه ، وقام إخوة الوزير وعلى رأسهم « دوست محمد خان » مطالبين بالأخذ بالثأر ، وتمكنوا من تقسيم الدولة فيما بينهم وأصبحت « كابل » عاصمة المملكة من نصيب « دوست محمد خان » (١)، ولم يبق للملك أفغانستان « محمود خان » إلا « هراة » .

وقد انتهز الإيرانيون فرصة وقوع هذه الفتن بأفغانستان للاستيلاء عليها وضمها إلى أملاك الدولة الإيرانية، واتجهت جيوشهم صوب « هراة » فعارضت إنجلترا هذا العمل بدعوى أن « هراة » مفتاح الهند .

ولم يمض وقت طويل حتى دخل الإنجليز أفغانستان وقبضوا على « دوست محمد خان » ووضعوه فى السجن ، حينئذ قام ابنه « محمد أعظم » بالثورة ضد الإنجليز، وجمع الأحزاب تحت لوائه وحارب الإنجليز ، واستخلص البلاد من أيديهم، واضطرهم إلى الانسحاب بعد أن أخذ عليهم تعهداً بالإفراج عن والده . فلما عاد « دوست محمد خان » استولى على كابل وجلال آباد وما يجاورهما من البلاد . .

وفى سنة ١٨٥٦ تم للشاه فتح « هراة » فاستشاطت إنجلترا غيظاً (٢) ، وأرسلت مراكبها إلى الخليج الفارسى، فاستولت على « بندر أبى شهر » « وجزيرة خارق » إرهاباً للشاه، وبعد سنة من هذه الواقعة تم الصلح بينهما على شرط أن يقيم الشاه حاكماً أفغانياً على مدينة « هراة » ويسحب جنوده منها، فعين الشاه ابن عم الأمير « دوست محمد خان » وصهره والياً عليها . . .

وبعد مدة أراد « دوست محمد خان » الاستيلاء على مدينة « هراة » فسار « جمال الدين » فى جيشه ولازمه فى فتح المدينة إلا أن الأمير مات أثناء الحصار سنة ١٨٦٤ م ، وكان موته خاتمة لجهوده الموفقة فى تدعيم

(١) اشترك معه جمال الدين فى كثير من الحروب : راجع الفصل الأول ، ص ٣٣ .

(٢) Elgin Groseclose : Introduction to Iran, p. 68.

مركز المملكة الأفغانية « بعد فترة طويلة من الحروب الأهلية أريقت فيها الدماء » (١) .

* * *

عاش « جمال الدين » فى هذه الفترة ، واشترك فى كثير من الأحداث التى مرت بها البلاد الأفغانية ، ولمس السياسية الإنجليزية عن قرب ، وأدرك أن الإنجليز يعملون على الإيقاع بالدولتين حتى يخلو لهم الجو فى الهند ، ويتمكنوا فى نفس الوقت من توسيع نفوذهم السياسى فى كل من إيران وأفغانستان . .

أدرك جمال الدين ذلك فنادى بالوحدة بين الدولتين . ومن قوله مخاطباً الإيرانيين :

« أظن أنه لا يخفى عليكم أن هذا الوقت هو أحسن الأوقات لندائكم بالوحدة مع الأفغانيين ، والتحالف معهم على مقاومة العادين ، لتكونوا بالاتحاد معهم حصناً حصيناً وحرزاً منيعاً تقف دونه أقدام الطامعين » (٢)

ويقول لهم منبهاً إلى خبايا السياسة الإنجليزية :

« أظنكم لم تنسوا أن استيلاء الإنجليز على الممالك الهندية إنما تم بوقوع الخلاف بينكم وبين الأفغانيين » (٣) . ثم يطالب العلماء بكتابة الفصول وتحرير المقالات فى بيان أهمية هذه الوحدة ومزاياها فيقول :

« هذا عمل من أجلّ الأعمال وأجزلها فائدة ، وإن من أكبر الفضل أن يقوم أهل الفضل من أهالى إيران بتحرير الفصول ونشر الرسائل فى بيان فوائد الاتفاق بين الطائفتين ، وإن لذلك لأثراً عظيماً فى النفوس خصوصاً إن كانت من أقلام العلماء والأعلام ، والمجتهدين الكرام » (٤) .

وقوله :

« رجاؤنا فى الأفاضل الكرام صاحب جريدة « فوهنك » الأصفهانية ، وصاحب جريدة « اطلاع » الطهرانية وسائر أرباب الجرائد الإيرانية أن

(١) Aryana : Ancient Afghanistan, p. 73.

(٢) العروة الوثقى : ص ٢١٩ .

(٣) العروة الوثقى : ص ٢١٩ .

(٤) العروة الوثقى : ص ٢٢١ .

يوجهوا أفكارهم إلى هذا المطلب الرفيع ، ويجعلوا له محلا فسيحاً فى جرائدهم » (١) .

ويمكننا القول إن « جمال الدين » فى مطالبته بالاتحاد بين الإيرانيين والأفغانيين ، إنما كان يهدف إلى تحقيق آماله فى تكوين الجامعة الإسلامية ، فهو يدعو إلى ترك الخلافات المذهبية والسياسية بين البلدين حتى « إذا حصل الاتفاق بين سلطنة الشاه وبين إمارة الأفغان لوجدت قوة إسلامية جديدة فى المشرق بين سائر الطوائف الإسلامية ، وينبعث فيهم وفى سائر المسلمين حياة جديدة وتتجدد لهم آمال جليلة وتنتعش أرواح المؤمنين » (٢) .

❋ ❋ ❋

مكانة جمال الدين الأفغانى
بين المفكرين الإيرانيين

بعد أن استعرضنا جهود « جمال الدين » فى إيران ، وبينا أثره فى إثارة الوعى القومى ، وتحقيق الحكم الدستورى ، بقى علينا أن نبين مركز « جمال الدين » ومكانته بين المفكرين الإيرانين . . . فلقد كانت إيران — طوال القرن التاسع عشر — مسرحاً لمختلف التيارات الدينية والسياسية ، « فظهرت فيها الحركة الدينية المعروفة بالدعوة البهائية » (٣) . « كما ظهرت فيها نهضة سياسية كان عمادها « السيد مليكم خان » ، والسيد جمال الدين الأفغانى . . » (٤) .

قامت الدعوة البهائية بانقلاب دينى . بينما قام « مليكم خان » بنهضة سياسية ، ولذا لا يهمنا فى هذه الدراسة إلا المقارنة بين أثر كل من مليكم خان ، وجمال الدين ، فكلاهما كافح داخل إيران وخارجها ، وكلاهما كان له فضل كبير فى نمو الرأى العام ، وظهور اليقظة القومية . . .

❋ ❋ ❋

---

(١) العروة الوثق : ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ . (٢) العروة الوثق : ص ٢٢٠ .

(٣) محمد كرد على : خطط الشام ، ج ٦ ، ص ٢٧٣ .

(٤) Sykes : Persia p. 143.

كان السيد « مليكم خان » أرمنياً مسيحياً (١) ، نشأ فى إيران بين المسلمين ، ولذا كانت طريقة تفكيره على حد قوله « هى نفس طريقتهم »(٢)، وكان أخاً فى الرضاعة للشاه « ناصر الدين »، تولى عدة مناصب هامة فى الدولة الإيرانية حتى وصل إلى مرتبة الصدر الأعظم ، « وقد رأى مساوىء الحكم ، وتدهور الرفاهية المادية فى البلاد ، فساورته فكرة الإصلاح، فذهب إلى أوروبا ، ودرس فيها نزعات فرق المسيحية المختلفة ، وكيفية تنظيم الجمعيات السرية ، والهيئات الماسونية » (٣) .

وقد أدرك عبث الاجتهاد فى تنظيم إيران على مثال أوروبا ، فعمل على القيام بالإصلاح بصورة توافق طبيعة الشعب الإيرانى وبيئته، ولذا أراد أن ينفذ مشروعاته السياسية تحت ستار الإصلاح الدينى ، فجمع زعماء إيران وحدثهم عن آماله فى الإصلاح ، ونادى بإنشاء مذهب دينى جديد عرف بالمذهب الإنسانى .

يقـول :

« ولم يكن لدى فى أول الأمر فكرة إنشاء دين ، ولكن أتباعى أرغمونى على أن أكون قديساً ونبياً فلقبونى بالطيف المقدس ولقبوا الشاه بمصلح الإسلام ، فوضعت إنجيلا بدينى ، وأصر المتحمسون من أتباعى على أن أجىء بالمعجزات ، وأخيراً راع الشاه نمو قوتى التى صارت فى الحقيقة أعظم من قوته فصمم رغم صداقتنا على قتلى » (٤) .

ولم يمض وقت طويل حتى تم التفاهم بينه وبين الشاه . فاستأذنه فى السفر إلى الآستانة ، معتزماً أن يحصل من السلطان على إذن بالإقامة فى بغداد ، وقد ذهب إليها فعلا ، وصار له فيها أتباع من الإيرانيين المقيمين فيها ومن أهل بغداد الشيعيين ، ولكن الاتراك خدعوه —كما يقول —

---

(١) Ibid., p. 143.

(٢) مستر بلنت : التاريخ السرى لاحتلال إنجلترا مصر ، ص ٦٤ .

(٣) المصدر السابق ص ٦٥ . (٤) نفس المصدر : ص ٦٥ .

« واضطر للرحيل قبل أن يتم عمله ، وقد طلب أتباعه فى إيران أن يعود إليهم ولكنه لم يعد لعدة أسباب أهمها أنه خشى أن يموت لدين لا يؤمن به » (١) .

فكتب إلى الشاه الذى رد باستعداده لتقليده منصب سفير لدى جميع الدول الأوروبية ...

ولقد كان « السيد مليكم خان » سفيراً لبلاده فى لندن حينما حصلت الشركة الإنجليزية على عقد امتياز الطباق فساءه ما وصلت إليه بلاده من ضعف ، فأنشأ جريدة (٢) أسماها القانون كانت تطبع فى لندن وتوزع فى مختلف بلاد الشرق ، « وظلت جريدته تصدر لمدة ثلاث سنوات ونصف » (٣) إلى أن أحس الشاه « ناصر الدين » والصدر الأعظم بخطرها فى بث أفكار الحرية والإصلاح ، فمنعا دخولها البلاد ، وأمرا بالقبض على كل إيرانى توجد لديه نسخ من الجريدة ...

وكانت كتابات « السيد مليكم خان » تدور كلها حول سوء الحالة فى إيران ، ومقاومة الصدر الأعظم ، والمطالبة بالحكم الدستورى . . فمن قوله فى العدد الثانى :

« وإنى أطالب الشاه بوضع قانون للدولة ، وسن دستور لها ، كما أطالبه بإنشاء برلمان حر يمثل جميع طبقات الشعب وخاصة العلماء . . . كما يجب على علماء المملكة أن يبينوا للناس أن مصلحة البلاد لن تكون إلا فى قوة هذا المجلس النيابى وقدرته على المعارضة فى سبيل المصلحة العامة » (٤) .

وبدأ فى العدد الثامن يعرض بالشاه ويهاجمه ولكن بطريق غير مباشر فيقول :

---

(١) بلنت : التاريخ السرى لاحتلال إنجلترا مصر ، ص ٩٥ ، ٩٦ .

(٢) Sykes : Persia, p. 143.

(٣) صدر العدد الأول بتاريخ ٢٠ فبراير سنة ١٨٩٠ ، والثانى بتاريخ ٢٢ مارس والثالث بتاريخ ٢٠ إبريل ، ولذا يبدو أن الجريدة كانت تصدر شهرياً وقد ظلت على ذلك لمدة ثلاث سنوات ونصف ، ويقال إنها بقيت ست سنوات .

Browne : OP. cit., p. 35.

(٤) Ibid., p. 37 .

« جائتنى رسالة من أحد الإيرانيين الذين أحترمهم وأقدر آراءهم أعظم تقدير قال فيها :

إنك كثيراً ما تنتقد الصدر الأعظم ، ولسنا نلومك على ذلك ، ولكن الذى أراه أن المسئولية الكبرى تقع على عاتق الشاه ناصر الدين . .

أليس فى إمكانه أن يعزل الصدر الأعظم ويعين بدلا منه ؟ ؟ فلماذا إذن يبقيه فى منصبه ؟ ؟ أليس ذلك لأنه يخشى العاملين المخلصين من أهل المملكة ؟ ؟ إننى أرى أن الشاه « ناصر الدين » هو المسئول الأول والأخير عن تصرفات الصدر الأعظم » (١) .

ومما يمكن أن نلاحظه أن آراء « السيد مليكم خان » تتفق إلى حد كبير مع آراء « السيد جمال الدين » فكلاهما كان يقاوم الصدر الأعظم ، وكلاهما كان يطالب بالحكم الدستورى مما يجعلنا نعتقد بوجود صلة بين الاثنين . . . يؤيد ذلك ما رواه « ميرزا رضا الكرمانى » قاتل الشاه « ناصر الدين » إذ يقول :

« كانت مقابلتى للسيد « جمال الدين » فى خريف سنة ١٨٩١ م حينما زار إنجلترا بعد خروجه من إيران وكانت مقابلتنا فى منزل «مليكم خان»(٢)

وقوله فى موضع آخر :

« حينما ذهب السيد جمال الدين إلى لندن وبعد خروجه من إيران ، بعث إليه السلطان بعدة برقيات للذهاب إلى تركيا ، ولكن « جمال الدين » كان يرفض الذهاب حتى ألح عليه « مليكم خان » لتلبية دعوة السلطان ، فوافق السيد وذهب إلى القسطنطينية » (٣) .

ويبدو أيضاً من هذا القول أن السيد « جمال الدين » كان يقدر « السيد

---

(١) Ibid., p. 42.

(٢) راجع هذا الفصل : ص ١٢٩

(٣) راجع هذا الفصل : ص ١٣٠

« مليكم خان » ويحترم رأيه ، إلا أن من الممكن القول بأن أثر جمال الدين فى إيران كان أعظم بكثير من أثر « مليكم خان » .

فقد اقتصر « مليكم خان » على بيان سوء حالة البلاد ، واقتصر كذلك على معارضة الصدر الأعظم دون أن يجرؤ على مقاومة الشاه ، بخلاف «السيد جمال الدين » ، الذى كان صريحاً فى نقده ، عنيفاً فى لومه ، حراً فى كتاباته ، لا يخاف سطوة الشاه ، أو غضب الصدر الأعظم ، فعارض الشاه قبل أن يعارض الصدر الأعظم ، واتهمه « بالحمق والجنون » (١) ، قبل أن يتهم الصدر الأعظم بالجهل ووضاعة النفس .

وكان « السيد مليكم خان » يطالب بتعديل القوانين وإصلاح البلاد من الناحية الدستورية بينما طالب « جمال الدين » إلى جانب ذلك بخلع الشاه حتى يكون ذلك عبرة لغيره من الحكام المستبدين ، ولم تقتصر جهود «السيد جمال الدين » على الناحية الدستورية كما فعل «السيد مليكم خان»، بل عمل على مقاومة التدخل الأجنبى وإثارة الوعى القومى ، فكان لجهوده أعظم الأثر فى ظهور اليقظة القومية فى إيران .

❋ ❋ ❋

---

(١) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، جـ ١ ، ص ٦٤ .

الفصل الرابع

أثر جمال الدين الأفغاني في مصر

أثر جمال الدين الافغانى فى مصر

مجيئه إلى مصر:

جاء السيد « جمال الدين الأفغانى » إلى مصر — للمرة الأولى — فى أوائل عام (١٨٧٠ م — ١٢٨٦ هـ) بعد أن أخرجته الحكومة الإنجليزية من الهند ، ولم يكن يريد البقاء طويلا فى الأراضى المصرية إذكان يرغب فى الذهاب إلى الحجاز ، ولكن أهل مصر ما أن سمعوا بمقدمه حتى أرادوا الاستفادة بعلمه، ولم يكن«جمال الدين » قد عرف بآرائه السياسية المتطرفة فى ذلك الحين ، بل غلبت عليه الصبغة العلمية ، فتردد عليه عدد كبير من طلبة العلم السوريين وسألوه أن يقرأ لهم شرح الإظهار (١) .

ويروى الشيخ « محمد عبده » أن أحد طلاب العلم السوريين أخبره بقدوم عالم أفغانى عظيم يدعى « جمال الدين » فذهب لزيارته بصحبه أستاذه الشيخ « حسن الطويل » ، وكان « جمال الدين » يتعشى عندما وفدا عليه ، وبعد العشاء تحدث إلى زائريه فى تفسير القرآن ، فبين تفسير أهل السنة لبعض الآيات ، ووازن بينه وبين تفسير المتصوفة (٢) .

فهذه الرواية التى يسوقها الشيخ « محمد عبده » تبين لنا اهتمام« جمال الدين» بالتصوف والتفسير ، وانصرافه — فى هذه الفترة من حياته — إلى ما يتصل بعلوم اللغة والدين . .

وقد بقى السيد «جمال الدين» فى مصر حوالى أربعين يوماً سافر بعدها إلى الآستانة، ثم عاد إليها للمرة الثانية فى (أول مارس ١٨٧١ م — المحرم ١٢٨٨ هـ) .

ويختلف المؤرخون فى تقدير المدة التى قضاها « جمال الدين » بعيداً

---

(١) الإظهار : متن مختصر فى علم النحو لمؤلفه « البركوى » اشتهر أمره عند الأتراك العثمانيين وسكان الولايات التابعة لهم — (عبد القادر المغربى : ذكريات ، ص ٢٨) .

(٢) تشارلز آدمز ؛ الإسلام والتجديد، ص ٣٢ .
عثمان أمين : محمد عبده « أعلام الإسلام » دائرة المعارف الإسلامية ، ١٩٤٤ ، ص ٢٤ .
محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ١ ، ص ٢٥ ، ٢٦ .

عن مصر (١) إلا أننى أعتقد أن غيابه عن مصر لم يتجاوز العام إلا بحوالى ثلاثة شهور يؤيد ذلك ما قاله الشيخ «محمد عبده» فى تقديم إحدى مقالات جمال الدين : « قد عاد حضرة الأستاذ الفاضل . . . السيد « جمال الدين الأفغانى » إلى التدريس بعد فترة تزيد مدتها عن سنة » (٢) .

ومما نلاحظه أن هناك تشابهاً كبيراً فى الظروف التى وفد فيها جمال الدين إلى مصر . . فى المرة الأولى جاء مبعداً من الهند ، وفى المرة الثانية أبعد عن تركيا ، وكان نفيه من الهند تحت تأثير رجال السياسة من الإنجليز الذين خشوا على نفوذهم وسلطانهم من دعوته السياسية ، أما فى تركيا فقد أبعد عنها بعد أن خشى رجال الدين المتزمتين من دعوته الإصلاحية .

ولم يكن « جمال الدين » ينوى البقاء فى مصر والإقامة بها ، ولكن رياض باشا رغب إليه البقاء فى مصر ، وأجرت عليه الحكومة راتباً شهرياً مقداره عشرة جنيهات عن كل شهر ولم يكن ذلك نظير عمل يؤديه أو مهمة يقوم بها ، وإنما تقديراً لفضله ، وإجلالا لمكانته . . .

ويتساءل الأستاذ « الرافعى » (٣) : عن الأسباب التى دعت الخديوى إسماعيل ووزيره رياض إلى دعوة السيد جمال الدين ، فقد يكون هذا العمل غريباً ، لأن « لجمال الدين » ماضياً سياسياً ، وكفاحاً متصلا لتحرير الشعوب من سيطرة الملوك المستبدين ، فكيف يرضى مثل إسماعيل وهو المعروف باستبداده وميله للحكم المطلق بدعـوة السيد جمال الدين ؟ ؟

الواقع أنه كان لرياض باشا أثر كبير فى بقاء السيد « جمال الدين » فى مصر ، فقد سبق أن قابله فى الآستانة (٤) واتصل به ، ورأى فيه عالماً قديراً ، وشخصية فذة . . . ولذلك سعى لدى الخديو إسماعيل حتى سمح له بالبقاء فى مصر . . .

---

(١) يقول تشارلز آدمز إنه جاء للمرة الأولى سنة ١٨٦٩ وعاد إليها بعد عام ونصف فى ٢٢ مارس ١٨٧١ ص ٣٢ ؛ أما الشيخ رشيد رضا فيتفق معنا فى التاريخ الذى ذكرناه .

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام : جـ ١ ، ص ٣١ .

(٣) عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل ، جـ ٢ القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ١٣١

(٤) راجع ترجمة سليم العنحورى للسيد جمال الدين ، ت ، جـ ١ ، ص ٤٤ ، ترجمة أديب إسحق للسيد جمال الدين ، ت ، جـ ١ ، ص ٤٠ .

كما لا يغرب عن الذهن أن إسماعيل كان محباً للعلم ، عاملا على نشره بين مختلف الطبقات ، مشجعاً لكثير من العلماء ولذلك رأى أن وجود «جمال الدين» فى مصر ربح لا يقدر ، فهو فى نظره أجل وأنفع من بعض المعاهد العلمية التى أنشأها لأنه أشبه بمدرسة متنقلة ، حنكتها التجارب ، وأنضجتها الحوادث ، « فترغيبه جمال الدين فى البقاء بمصر يشبه أن يكون فتحاً علمياً ، كتأسيس معهد من المعاهد العلمية التى أنشئت على يده » (١) .

أما آراء الحكم السياسية ، وكراهته للاستبداد ، ونزعته الحرة ، فلم يكن مثل إسماعيل يخشاها وهو الحاكم الذى لا يراجع فى حكم ، والذى يتصرف فى أقدار البلاد دون رقيب ولا حسيب . .

وهناك ناحية أخرى لا يمكننا إغفالها ذلك أن حكومة القاهرة كانت تنافس يومذاك حكومة الآستانة ، وتأبى أن تخضع لها ، وأن يكون حاكمها تابعاً للسلطان العثمانى ، فقد أمر إسماعيل بسحب جنوده من «كريت» الثائرة على حكم الأتراك بالرغم من إلحاح عالى باشا الصدر الأعظم عليه لإبقائها فيها غير مبال بحقد ذلك الوزير عليه من جراء سحبها .

كما أمر بأن تشترك مصر فى معرض باريس عام ١٨٦٧ م مستقلة عن تركيا ، وأهمل دعوة السلطان عبد العزيز أثناء فتح ترعة السويس والحفلات التى أقيمت من أجلها عام ١٨٦٩ م . .

وقد رأى الخديوى إسماعيل أن الآستانة ضاقت رحابها بالسيد «جمال الدين» ، وخافت من آرائه وتعاليمه ، فلتبرهن مصر على أنها أقوى من تركيا وأكرم نفساً ، وأقدر على هضم آراء « جمال الدين » . .

كما يقول الرافعى :

« ولا يخفى ما لهذا العمل من حسن الأثر ، وجمال الأحدوثه إذ يرى الناس فيه أن مصر تكرم العلماء والحكماء حين تضيق بهم دار الخلافة ، وأن عاهل مصر العظيم أحق من السلطان العثمانى بالثناء والتقدير لأنه يفسح للعلم رحابه » (٢)

---

(١) الرافعى : عصر اسماعيل ، ج ٢ ص ١٣١ . (٢) الرافعى : نفس المرجع ، ص ١٣٢ .

فهذه العوامل مجتمعة كان لها أثرها فى دعوة جمال الدين إلى البقاء فى مصر ، ولذلك ظل بها ثمانى سنوات حتى سنة ١٨٧٩ ، وقد استطاع خلال هذه الفترة أن يبث آراءه وتعاليمه بين المصريين على اختلاف طبقاتهم ، وكانت له مدرستان :

الأولى : فى بيته وكان يلقى فيها دروسه على طائفة من مجاورى الأزهر وبعض علمائه أمثال الشيخ محمد عبده ، وعبد الكريم سلمان ، وإبراهيم الهلباوى ، وإبراهيم اللقانى ، وسعد زغلول ، ولذا يقول الشيخ « محمد عبده » :
« وكانت مدرسته بيته من أول ما ابتدأ إلى آخر ما اختتم ، ولم يذهب إلى الأزهر مدرساً ولا يوماً واحداً » (١) .

أما مدرسته الثانية فكان مقرها « قهوة البوستة » حيث كان يلتف حوله جمهور كبير من رجال مصر البارزين ليأخذوا عنه آراءه السياسية والأخلاقية والدينية والأدبية وينشروها بعد ذلك بين الناس على نطاق واسع .

فكان من عادته أن يقضى نهاره فى داره حتى إذا جن الليل ، خرج متوكئاً على عصاه إلى «قهوةالبوستة» حيث يلتف حوله جمهور كبير من محبيه ومريديه . .

ويصف لنا سليم العنحورى مجلسه فى « قهوة البوستة » فيقول :
« ويجلس فى صدر فئة تتألف حوله على هيئة نصف دائرة ينتظم فى سمطها اللغوى والشاعر والمنطيق والطبيب والكيماوى والتاريخى والجغرافى والمهندس والطبيعى ، فيتسابقون إلى إلقاء أدق المسائل عليه ، وبسط أعوص الأحاجى لديه ، فيحل عقد أشكالها فرداً فرداً ، ويفتح أغلاق طلاسمها ورموزها واحداً واحداً بلسان عربى مبين لا يتعلثم ولا يتردد » (٢) .

وكانت دروس جمال الدين فى أول أمرها قاصرة على الخاصة من أهل مصر ، ثم أخذت أراؤه تسرى بين الخاصة والعامة على السواء . .

ومما نلاحظه أن دروس السيد جمال الدين ظلت قاصرة على الناحية العلمية والأدبية حتى نهاية عام ١٨٧٥ م ، ثم اتجهت إلى الناحية السياسية بعد

---

(١) الشيخ محمد عبده : مقدمة الرد على الدهريين ، ص ١٢ .
(٢) سليم العنحورى : تاريخ الأستاذ الإمام ، جـ ١ ص ٤٤ .

أن اختلت أمور مصر المالية ، وبدأ النفوذ الأجنبي يتغلغل في مختلف نواحي الحياة المصرية ، فأخذ ينبه تلاميذه إلى مضار التدخل الأجنبي والرقابة الثنائية ، ويتبين لنا ذلك بالرجوع إلى دروسه التي ألقاها ، ومقالاته التي كتبها . : ففي بداية عام ١٨٧١ م ألقى درسين عن فلسفة التربية وفلسفة الصناعة ، وشرح إشارات الرئيس ابن سينا في الحكمة العقلية ، أما مقالاته السياسية فلم تظهر إلا في وقت متأخر . . . (١) .

وقد استطاع « جمال الدين » خلال إقامته في مصر أن يؤثر في نهضة مصر السياسية والأدبية والدينية ، إذ كانت دعوته متشعبة النواحي ، متعددة الاتجاهات ، وسوف نرى إلى أي حد نجح « جمال الدين » في تحقيق دعوته .

* * *

أولا — أثره السياسي

اتجه جمال الدين الأفغاني إلى الناحية السياسية بعد أن ساءت حالة مصر الداخلية ، وانفسح المجال للتدخل الأوروبي بأجلى مظاهره منذ سنة ١٨٧٥م :

ولم يكن هذا التدخل حدثاً جديداً في تاريخ مصر ، فقد تدخلت الدول الأوروبية بين محمد علي والسلطان ، وفرضت تسوية ١٨٤٠—١٨٤١م على الطرفين ، كما كانت تتدخل في كل ما ينشب بين الباب العالي وحكام مصر من خلاف ، ولكن هذا التدخل الذي تم في عهد إسماعيل بدأ يكشف عن اتجاهات جديدة في السياسة الأوروبية إذ أصبحت مصر في قبضة حملة السندات ، وأضحت مهددة بالخراب المالي ، وكانت مصر — كما يقول المستر كيف — في تقريره : « في طور انتقال ، فهي تكابد عيوب النظام الذي هي خارجة منه ، وعيوب النظام الذي تحاول الدخول فيه . . تكابد

---

(١) ألقى جمال الدين درسيه في بداية عام ١٨٧١ ، تاريخ الأستاذ الإمام ج ٢ ، ص ٧ وظهرت مقالاته السياسية في وقت متأخر — مثال ذلك — مقاله عن الحكومة الاستبدادية في ١٤ فبراير ١٨٧٩ ، وخطبته السياسية التي ألقاها بالإسكندرية في ٢٤ مايو ١٨٧٩ .

ما منى به الشرق من جهل وخيانة واضمحلال وتبذير ، كما تكابد النفقات التى تدعو إليها العجلة ، والتعسف فى اتباع المدنية الغربية »(١) .

وكانت الحالة التى تشكو منها مصر راجعة إلى إسراف إسماعيل ، وكثرة إصلاحاته التى قام بها فى وقت قصير ، واعتماده على الحكم المطلق وعدم رجوعه إلى الشعب ، كما ترجع إلى جشع الغربيين ورغبتهم فى السيطرة على مصر . .

ولذلك عمل جمال الدين على مقاومة الحكم المطلق ، وإثارة الوعى القومى بين مختلف الطبقات ، فكان لجهوده أثر كبير فى تطور الحياة النيابية ، وحصول الشعب على الحكم الدستورى ، وظهور اليقظة القومية بين المصريين . .

* * *

مقاومة الحكم المطلق :

كان عهد إسماعيل عصر تقدم وعمران،ولكنه من ناحية نظام الحكم يعد من عصور الحكم المطلق، فقدكان إسماعيل يحكم البلاد حكماً مطلقاً ، يتولاه بنفسه ، ويشرف عليه إشرافاً تاماً ، ولم يكن الوزراء سوى موظفين لدى الخديوى عليهم أن ينفذوا رغباته ، ويخضعوا لإرادته ، ولم تكن ثمة مجالس نيابية تمثل جميع أفراد الشعب ، وتعبر عن إرادته تعبيراً صحيحاً .

وبالرغم من أن إسماعيل أنشأ مجلس شورى النواب سنة ١٨٦٦م ليكون وسيلة للتفاهم بين الراعى والرعية ، وأداة لخدمة الشعب ، إلا أنه لم يعتزم التخلى عن سلطته بصفة قاطعة ، بل أراد أن يجعل منه هيئة استشارية تزيد من رونق الحكم وبهائه .

وقد اختلفت نظرة الكثيرين إلى هذا المجلس فمنهم من يرى « أن قانون المجلس يصلح لأن يكون نموذجاً وقدوة لعموم الأقطار بلا استثناء ، وأنه لخليق بأن يجعل العالم المتمدين يحسد مصر عليه »(٢) .

---

(١) تقرير لجنة كيف المنشور فى : Mac. Coan : Egypt as it is.
المنشور بذيل الكتاب ، تاريخ المسألة المصرية ، ص ٣٨ .

(٢) إلياس الأيوبى : تاريخ مصر فى عهد إسماعيل ، ج ١ ، ص ٦٨ .

ومنهم من ينكر أن الملوك يمنحون شعوبهم الحكم الدستورى عن صدق وإخلاص ، وأنهم يمنون أنفسهم بالرجوع فيما منحوه يوماً ما إذ أنهم يقيمون لشعوبهم مجالس نيابية لمحض التخلص من صعاب عارضة ، ثم لا يلبثون أن يتنكروا للشعب . ويستعيدون سلطانهم ونفوذهم القديم »(١) .

فهل كان مجلس شورى النواب الذى أنشأه إسماعيل مجلساً نيابياً صحيحاً ، يحقق للشعب حياة دستورية كاملة ؟ .

إننا إذا رجعنا إلى اللائحتين التأسيسية والنظامية لهذا المجلس(٢) ، لاستطعنا أن نتبين أنه كان مجلساً لا سلطة له ، إذ كان ينظر فى القرارات التى تعرضها الحكومة ، ويبدى رأيه فيها دون أن يكون له رأى نافذ ، كما كان لولى الأمر حق « جمع المجلس أو تأخيره أو تحديد مدته ، أو تبديل أعضائه وانتخاب غيرهم »(٣) ، « وللخديوى حق تعين رئيس مجلس شورى النواب ووكيله دون أن يكون للمجلس رأى أو ترشيح فى هذا التعين »(٤) .

ومما نلاحظه أيضاً فى لائحة هذا المجلس أنها جعلت حق الانتخاب شكلياً إذ حصرت حق الانتخاب فى العمد والمشايخ(٥) ، وبذلك أسفر الانتخاب عن انتخاب معظم النواب من العمد وأعيان البلاد . . وإذا صدقت الرواية الزاعمة أن النواب — حين أفهمهم شريف باشا وزير الداخلية فى تلك السنة — أن المجالس النيابية الأوروبية تنقسم دائماً إلى حزبين : حزب يؤيد الحكومة وحزب يعارضها ويقاومها ، وأنه يجدر بهم والحالة هذه أن ينقسموا هم أيضاً إلى حزبين . . حزب مع الحكومة وحزب

(١) تيودور روزستين : تاريخ المسألة المصرية ، ص ٨٤ ، وجريدة التيمس ، ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٧٩ .
(٢) الرافعى : عصر اسماعيل ، جـ ٢ ، نصوص اللائحتين من ٢٨٧ — ٢٩٨ .
(٣) الرافعى : عصر إسماعيل ، جـ ٢ ، البند السابع عشر من اللائحة الأساسية ص ٢٩٠ .
(٤) الرافعى : عصر إسماعيل ، جـ ٢ ، البند الثالث عشر من اللائحة النظامية ص ٢٩١ .
(٥) الرافعى : عصر إسماعيل ، جـ ٢ ، البند السابع عشر من اللائحة الأساسية ص ٢٨٩ .

عليها ، فيجلس رجال حزب الحكومة على مقاعد اليمين ، ورجال حزب المعارضة على مقاعد اليسار ، تسابقوا جميعهم إلى مقاعد اليمين هاتفين : « كلنا عبيد أفندينا ، فكيف نقاوم حكومته ؟ »(١) .

وإذا صح ما تزعمه « الليدى دف جوردون » فى مراسلاتها من أن أحد المنتخبين قال لها : « إنا معشر النواب ، إنما نحن ذاهبون إلى مصر ، وقلوبنا فى أحذيتنا ، لأنه إذا كان أحدنا لا يستطيع أن يجاوب المدير على أى أمر يصدر إليه مهما كان جائراً سوى بعبارة « حاضر ! على عينى وراسى » أفتريدين أن نجسر على مقاومة إرادة أفندينا الذى يملك أعناقنا ، وحق التصرف فى أعمارنا ، ويستطيع فى أى وقت يشاء أن يخسف الأرض تحت أقدامنا ؟ »(٢) .

إذا صح هذا كله لكان دليلا على أن المجلس لم تكن له سلطة فعلية ، وأن الأمور كلها كانت بيد إسماعيل يصرفها كما يشاء ، أضف إلى ذلك أن المجلس لم ينعقد سنة ١٨٧٢م ، كما أن إسماعيل أوقف جلساته خلال عامى ١٨٧٤—١٨٧٥ م .

ويصف لنا الشيخ محمد عبده حالة مصر قبل مجىء السيد جمال الدين بقوله : « وكان أهالى مصر يرون شئونهم العامة ، بل والخاصة ، ملكاً لحاكمهم الأعلى ، ومن يستنيبه عنه فى تدبير أمورهم يتصرف فيها حسب إرادته ، ويعتقدون أن سعادتهم وشقاءهم موكولان إلى أمانته وعدله ، أو خيانته وظلمه ، ولا يرى أحد منهم لنفسه رأياً يحق له أن يبديه فى إدارة بلاده ، أو إرادة يتقدم بها إلى عمل من الأعمال يرى فيها صلاحاً لأمته »(٣) .

ومما يدل على أن السلطة ظلت بيد إسماعيل حتى سنة ١٨٧٨م أن لجنة التحقيق الدولية التى بدأت عملها خلال هذا العام طالبت « بتقييد سلطة

---

(١) الحاشية : Mac Coan : Egypt as it is, p. 118.

(٢) إلياس الأيوبى : تاريخ مصر فى عهد إسماعيل ، ج ١ ، ص ٧٠ ، ٧١ .

(٣) الشيخ محمد عبده : تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ١ ، ص ٣٦ .

الخديوى المطلقة ، وإدخال مبدأ المسئولية الوزارية» (١) وذلك للقضاء على فوضى الحكم المطلق ، وفساد نظام الإدارة .

***

كانت هذه حالة مصر حينما وفد إليها جمال الدين ، وقد استطاع فيما بين سنة١٨٧١—١٨٧٥م أن يلمس فساد نظام الحكم المطلق ، وأدرك أن الطبقة المتعلمة لم تمثل فى المجلس النيابى ،وكان معظم أفرادها منصرفين حتى ذلك الحين إلى مناصب الحكومة ، بعيدين عن الحياة السياسية الحرة ، كما اعتبر مجلس شورى النواب مجرد منحة من الخديوى ، إذ لم تسبقه حركة مطالبة من الأمة تعطيه صفة القوة ، وكان جمال الدين يؤمن بأن « القوة النيابية لا يمكن أن تحوز صفة القوة إلا إذاكانت منبعثة من نفس الأمـــة »(٢) .

ولذا أخذ على عاتقه تنبيه الأذهان وإشراك الطبقة المتعلمة فى الحكم ، وتحريضهم على الكتابة السياسية فى الصحف ليرشدوا النواب إلى واجباتهم ، ويبصروا الشعب بحقائق الأمور . .

وكان جمال الدين يؤمن بفائدة الأحزاب فى معارضة الحكومات ، ولم يكن قد تألف فى مصر — حتى ذلك الحين — حزب سياسى منظم فالتحق بالمحفل الماسونى الإسكتلندى ليتعرف بالأعضاء الذين يضمهم هذا المحفل ، وليعملوا متضامنين على رفع الظلم عن الشعب إلا أنه أدرك بعد فترة قصيرة أن من الصعب عليه أن يحقق رغباته عن طريق هذا المحفل لعدة أسباب :

أولها : خشى أعضاء المحفل بأس الحكومة وبطشها ، فلم يتدخلوا فى شئون السياسة ، ولم يستجيبوا لرغبة جمال الدين فى الاشتغال بالمسائل العامة على الرغم من أنهم جعلوا شعارهم « الحرية والإخاء والمساواة » والسعى

(١) Cromer : Modern Egypt Vol. I, p. 57.

(٢) محمد المخزومى : خاطرات جمال الدين ، ص ٤٧ .

وراء دك صروح الظلم ، وتشييد معالم العدل المطلق . . فوجه إليهم جمال الدين نقده اللاذع قائلا :

« كنت أنتظر أن أسمع وأرى فى مصر كل غريبة وعجيبة،ولكن ما كنت لأتخيل أن الجبن يمكنه أن يدخل بين أسطوانتى المحافل الماسونية . . إذا لم تدخل الماسونية فى سياسة الكون وفيها كل بناء حر ، وإذا آلات البناء التى بيدها لم تستعمل لهدم القديم ، فلا حملت يد الأحرار مطرقة حجارة ولا قامت لبنايتهم زاوية قائمة »(١) .

ثانيا : كان أعضاء المحفل يحرصون على المناصب ، ويتنافسون على الرئاسة، فلم يهتموا بشئون مصر قدر اهتمامهم بتحقيق مصالحهم وأهوائهم الشخصية . .

ثالثا : تمسك أعضاء المحفل بتقاليد الماسونية العتيقة التى لم تعد تلائم روح العصر ، ولم يحاولوا الخروج عن الرموز التى لا يفقهون لها معنى ، فلما حاول جمال الدين أن يضع لهم قواعد جديدة وقفوا فى وجهه بحجة أن الماسونية تفاخر بقدم عهدها ، وثباتها أعصراً طويلة على شكلها وتقاليدها . . .

فلما وجد « جمال الدين » أن المحفل الإسكتلندى لن يساعده فى تحقيق سياسته ، أنشأ خلال عام ١٨٧٨م محفلا وطنياً جديداً تابعاً للشرق الفرنسى (٢) ، وظل يدعو إليه حتى بلغ عدد أعضائه العاملين أكثر من ثلثمائة من نخبة المفكرين وقسم الأعضاء العاملين إلى عدة شعب : فشعبة للمالية ، وأخرى للحقانية ، وثالثة للأشغال ورابعة للجهادية ، وهكذا لكل وزارة ومصلحة شعبة ، تدرس كل شعبة شئون وزارتها أو مصلحتها ثم تتصل بالوزير المختص لتبلغه رغباتها ، وتملى إرادتها بأسلوب حازم ، وطريقة واضحة صريحـــة ...

---

(١) محمد المخزومى : خاطرات جمال الدين : ص ٤١ .
(٢) نفس المرجع ص ٤٤ .

ولقد زاد نفوذ المحفل الماسونى الجديد ، وعظم شأنه حتى أن الأمير توفيق — ولى العهد حينئذ — طلب الدخول فيه ، والاشتراك مع أعضائه فى العمل ، وصار لجمال الدين أصدقاء وأولياء من أصحاب المناصب العالية مثل محمود سامى البارودى ، وعبد السلام المويلحى وأخيه كاتب الضابطة ، وكثر سواد الذين يخدمون أفكاره ، ويعلون بين الناس منارة من أرباب الأقلام (١) .

وكانت خطب جمال الدين داخل المحفل وخارجه عظيمة الأثر ، كبيرة الخطر ، كما أشار على تلامذته ومريديه بنشر الفصول الناطقة بحقوق المصريين المهضومة ، وبيان مزايا الحكم الدستورى ، ومساوىء الحكم المطلق ، وكانت سياسة إسماعيل الاستبدادية قد بلغت غايتها فى ذلك الحين ، وتجلت آثارها بصورة تنذر بالخطر إذ تراكمت عليه القروض ، وأصبحت البلاد مهددة بالإفلاس المالى ، ولم يكن إسماعيل فى قروضه يهدف إلى صالح مصر وخيرها أو ينظر إلى عواقب الأمور نظرة واقعية ، بل كان كل ما يشغله أن يبحث كيف يقترض وكيف يحصل على المال ، ويدع ما عدا ذلك من غير بحث أو تفكير مطمئناً إلى أنه غير مسئول عن تصرفاته وأعمـــاله ...

وقد وصفه اللورد ملنر بقوله :

« إنه المثل الكامل للتبذير ، وأعظم من عرف فى التاريخ بالسفه مع عدم الاكتراث بالعواقب » .

ثم قال :

«إنه لم تكن له مبادىء يصدر عنها ، بل كانت له أعمال جنونية تمتاز بأنها تشبه فى ضخامتها ضخامة الأهرامات أو معبد الكرنك »

ثم استمر فقال :

« إن الاستبداد كان خلقاً فيه ولكنه مع ذلك نزل حتى صار فيها مستجدياً وأسيراً »(٢) .

---

(١) سليم العنحورى : تاريخ الأستاذ الإمام ، جـ ١ ، ص ٤٦ .

(٢) Viscount Milner : England in Egypt, p. 263.

ولم تكن حاجات البلاد هى التى دعت إسماعيل إلى عقد هذه القروض وإنما كان ذلك راجعاً إلى إسرافه وتبذيره وإنفاقه الأموال من غير حساب ... فقد شرع إسماعيل يبنى القصور ويقيم الحفلات ، وينشىء المشروعات الضخمة بغير تفكير «كأنما كانت كل فكرته أن يعلن عن نفسه لا أن يصلح... واندفع فى حب الظهور فأدهش ملوك أوروبا بما كان يسمونه كرماً شرقياً وما هو إلا الإسراف القاتل »(١) .

وانتهز الدائنون الأوربيون هذه الفرصة ، وأخذوا يقدمون له الأموال بفوائد باهظة ، وكان إسماعيل يقبل منهم هذه الحسابات بسهولة . . وكان أصحاب الأموال يعلمون أنهم يخاطرون بأموالهم ، وكان إسراف إسماعيل نذيراً لهم ، فكان عليهم أن يتحملوا تبعة أعمالهم ، ولكن روتشلد وأوبنهايم وغيرهما من أصحاب رؤوس الأموال كانوا على اتصال برجال السياسة فى إنجلترا وفرنسا ، فوجدت الحكومتان فى عجز الحكومة المصرية عن سداد ديونها وسيلة لتدخلهما تدخلا فعلياً فى شئون البلاد بحجة إصلاح المالية والإدارة(٢) .

ولم يكن ممكناً وقد بلغت قروض إسماعيل هذا الحد أن يبقى استقلال البلاد سليما ، فبدأ التنافس بين إنجلترا وفرنسا وأخذت الدولتان تعملان على زيادة نفوذهما فى البلاد، فوصلت بعثة «كيف» الإنجليزية لفحص المالية المصرية ، وأنشىء صندوق الدين ونظام الرقابة الثنائية، كما باشرت لجنة التحقيق العليا الأوروبية عملها فى إبريل ١٨٧٨م،وطالبت « بإدخال مبدأ المسئولية الوزارية »(٣) ، وهو أغرب ما يمكن أن يوصف به استبدال حكم حملة السندات المطلق بحكم الخديوى »(٤) .

وتكونت أول وزارة مسئولة فى أغسطس سنة ١٨٧٨م وبها وزيران

---

(١) بلنت : التاريخ السرى لاحتلال إنجلترا مصر ، ص ١٢ .

(٢) محمد صبرى : مقدمة مذكرات عرابى ، ص : (ج) .

(٣) Cromer : Modern Egypt Vol I, p. 57.

(٤) تيودور روذستين : تاريخ المسألة المصرية ١٨٧٥ — ١٩١٠ ، ترجمة عبد الحميد العبادى ومحمد بدران ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٦ ، ص ٦٣ .

أجنبيان ، ولم يكن خافياً أن هذين الوزيرين الأجنبيين إنما يمثلان الدول الأوروبية ، وأن الوزارة بأكملها كان غرضها رعاية مصالح الدائنين الأجانب ، ولو أدى ذلك إلى الإضرار بمصالح البلاد وفرض الضرائب الباهظة على الفلاحين ،حتى أن عمال الجباية كانوا يلجأون إلى الضرب بالكرباج لإكراه الأهالى على أداء ما يطلب منهم ،وهذا يفسر لنا قول جمال الدين :

« أنت أيها الفلاح . . يامن تشق الأرض لتستنبت منها ما تسد به الرمق ، وتقوم بأود العيال ... لماذا لا تشق قلب ظالمك ؟ . لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك »(١) .

أدرك جمال الدين كل هذه الأخطار المحيطة بمصر من إسراف قاتل ، وحكم مطلق ، وتدخل أجنبى ،ورأى استقلال البلاد ، وقد أصبح مهدداً بالتدخل الأوروبى فى أى لحظة من اللحظات ، ولذلك سعى إلى تخليص البلاد مما تعانيه من حكم مطلق ، وتدخل أجنبى ، فاتبع الوسائل الآتية :

أولا : أخذ يخطب فى المصريين لينبههم إلى حقوقهم ،ويدفعهم إلى مكافحة الظلم ، والقضاء على الاستبداد مبيناً أن الشعب هو مصدر القوة ، ومصدر السلطان . . وكان العامة فى ذاك العهد يعتقدون أن الحاكم هو السيد المطاع ، فأراد جمال الدين بخطبه الملتهبة ، وبياناته المتطرفة تغيير هذه العقلية ، وكان يخطب ويتحدث بجرأة مدهشة ، ولم يكن للناس عهد بمثل هذا ، فكانوا يسخرون بمنطقه ويدهشون « وكان سامعوه يذهبون بعد سماعه إلى مجالسهم الخاصة ، فيتحدثون بما سمعوه لجلسائهم وأقربائهم مما جعل النفوس تنتبه قليلا ، وتلتفت إلى علاقة الحاكم بالمحكوم ، وواجب كل واحد منهما نحو الآخر ، وتنفى عن الأذهان عقيدة الحق الإلهى فى الحكم ، وتبحث عن تصرفات رجال الحكومة وتنقدها »(٢) .

---

(١) أحمد شفيق باشا : مذكراتى فى نصف قرن ، ج ١ ، ص ٢٨٧ .
(٢) المرجع السابق ، ج ١ ، ص٢٨٧ .

ومن قوله فى خطبته التى ألقاها فى الإسكندرية :

« إننا لا نجد لتأخرنا غير سببين أصليين ، هما :

التعصب والاستبداد ... وأما الاستبداد فهو أن تكون أمة من الأمم مقيدة بسلسلة رأى واحد من الناس لا تتحرك إلا بإرادته ، ولا تفعل إلا لرضاه . فإذا كانت الأمة على هذه الصورة لزمها لا محالة أن يصرف كل منها ما أودع فيه من العقل والذكاء لمرضاة شخص واحد فيكون الكل فانياً فيه ، ومن المعلوم أن الرجل الواحد لو انفرد فى العقل والذكاء والهمة وعلو النفس لا يستطيع جلب السعادة لنفسه فضلا عن جلبها لأمة كبيرة»(١).

وقولـــــه :

« إنكم معشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد ، وربيتم بحجر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين ، وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين ، تسومكم حكوماتهم الحيف والجور ، وتنزل بكم الخسف والذل وأنتم صابرون بل راضون . .

وقولـــــه :

« هبوا من غفلتكم ، اصحوا من سكرتكم ، انفضوا عنكم غبار الغباوة والخمول ، عيشوا كباقى الأمم أحراراً سعداء ، أو موتوا مأجورين شهداء »(٢)

ثانياً : سعى إلى إنشاء الجرائد الوطنية ، وشجع تلامذته على الكتابة فيها وفى مقدمتهم أديب إسحق وسليم النقاش ومحمد عبده وأبو نظاره وإبراهيم اللقـــــانى .

وكانت هذه الجرائد تنشر المقالات الحماسية ، وتنتقد سياسة الحكومة ، وتندد بتفريطها فى حقوق البلاد ، وكان يمدها بمقالات وطنية تكشف

---

(١) من خطبته فى الإسكندرية : جريدة مصر ، بتاريخ ١٨٧٩ . مجموعة : (مقالات لم تنشر) .

(٢) سليم العنحورى : تاريخ الأستاذ الإمام ، جـ ١ ، ص ٤٦ ، ٤٧ .

عن مضار التدخل الأجنبي وعيوب الحكم المطلق وأهم هذه الجرائد : جريدة مصر والتجارة ومنشؤهما أديب إسحق من خاصة تلامذته وأنشئت جرائد مرآة الشرق وأبو نظارة ، وكانت معظم مقالاته تنشر فى جريدة مصر فنشر بها عدة مقالات تحت عنوان « البيان فى تاريخ الإنجليز والأفغان » هاجم فيها السياسة الإنجليزية وترجمها القس « جرجس باجر الفقيه » حرفاً بحرف(١) وبعدما نشرتها الجرائد الإنجليزية « واطلع رجال السياسة الإنجليزية على مضامينها ، اضطربوا جميعاً وهاجوا وماجوا . . فرد جمال الدين بقوله : « إن حب الوطن لا يجعلنى أعدل عن قول الحق ولا يحول بينى وبين حقيقة الواقع »(٢) .

ومن المقالات الهامة التى نشرها جمال الدين مقال عن الحكومة الاستبدادية(٣) ، هاجم فيه الحكم المطلق ، وبين أنواع الحكومات الاستبدادية ثم قال مخاطباً الشرقيين :

« فهاك يا أيها الإنسان الشرقى ، صاحب الأمر والنهى ، حكومة رحيمة وعليك بهذا القيام بشأنها وحفظ واجباتها ، وإلا فبحياتك التى افتديتها براحة العالم أن تعفونا عن تحمل ثقل تمشدقك بالرحمة والعدالة والحكمة والفطنة » .

وقــــوله :

« وأما أنتم يا أبناء الشرق فلا أخاطبكم ولا أذكرنكم بواجباتكم فإنكم قد ألفتم الذل ، ورضيتم بالمعيشة الدنيئة ، واستبدلتم القوة بالتأسف والتلهف ، وصرتم كالعجائز لا تقدرون على الدرء والإقدام ، والجلب والدفاع ، والمنع والرفع ، فإنا لله وإنا لله راجعون »(٤) .

---

(١) جريدة مصر : العدد ٢٢ ، بتاريخ ٢٨ نوفمبر ١٨٧٨ .
(٢) جريدة مصر : العدد ٢٦ ، بتاريخ ٢٦ ديسمبر ١٩٧٨ .
(٣) جريدة مصر : العدد ٣٣ ، بتاريخ ١٤ فبراير ١٨٧٩ .
(٤) راجع مقال الحكومة الاستبدادية (مجموعة مقالات لم تنشر) ملحق رقم (١)

وقد كان لهذه المقالات أثرها فى تنبيه الأذهان ، وإثارة الشعب ، ونشاط المعارضة ضد حكومة إسماعيل وخاصة على يد رجال الصحافة وأعضاء المجلس النيابى ، فلما ضاق الخديوى بالمعارضة بدأ ينذر الصحف ويعطلها ، كما أوحى إلى وزيره رياض بفض المجلس ، وفى ٢٧ مارس ١٨٧٩م ذهب رياض ليتلو أمر الفض ، وفى اعتقاده أن النواب سيقابلون هذا الأمر بالسمع والطاعة ، وأنهم قد يتذمرون ولكنهم سيكظمون تذمرهم فى أعماق قلوبهم وسينصرفون ، ولكن كم كانت دهشته قوية ، وموقفه عجيباً حينما رأى النواب لا يزالون فى أماكنهم وأن عبد السلام المويلحى — أحد تلامذة جمال الدين (١) — يرد عليه بقوله :

« إن ما تقوله الحكومة من أن مدة توكيل المجلس قد انتهت غير صحيح لأن المدة لم تنته بعد ، ولهذا سيبقى المجلس فى مكانه وسيوالى اجتماعاته حتى يؤدى واجبه نحو الأمة »(٢) فصفق له جميع النواب ووافقوا على قوله ، فخرج رياض يحمل لمجلس النظار خبر تمسك المجلس بحقه وثورته ، ولم يكد هذا الخبر يصل إلى جمهور الشعب حتى تحركت فى النفوس كوامن الثورة ، وانتعشت آمال المصريين .

فلو قارنا بين هذا الموقف الذى وقفه النواب ، وموقف أعضاء مجلس سنة ١٨٦٦م حينما انتقلوا جميعاً إلى مقاعد اليمين ورفضوا معارضة الحكومة لتبين لنا أن جمال الدين نجح فى تحريك النفوس ، وإثارة الهمم ، وكان له أثر كبير فى قوة المعارضة ونمو الحياة الدستورية .

ومما يدل على قوة المعارضة أن الشعراء ورجال الصحافة بدأوا ينتقدون إسماعيل . فقال صالح مجدى — الذى توفى قبل الثورة العرابية بشهور — يندد بسياسة إسماعيل :

وأنفق المـــال لا بخلا ولا كرماً   على بغى وقـــواد وأشرار

---

(١) راجع ترجمة سليم العنحورى للسيد جمال الدين : تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ١ ، ص ٤٦

(٢) الرافعى : عصر إسماعيل ، ج ٢ ، ص ١٨٧ ، ١٧٩ .

والمرء يقنع فى الدنيـا بواحدة   من النساء وهو لم يقنع بمليـار
ويكتفى ببنـاء واحد ولـه   تسعون قصراً بأخشاب وأحجار
فاستيقظوا لا أقال الله عثرتـكم   من غفلة ألبستكم ملبس العار(١)

وأخذت الصحف تعمل على تهيئة الأفكار ، فتنشر بين آن وآخر اقتراحات النواب أو لوائحهم كما تسميها ، فتذيع مع التقدير والتشجيع اقتراح محمود بك العطار وعبد السلام المويلحى بإلغاء الضرائب القديمة دفعة واحدة ، وفرض ضرائب جديدة لا ترهق الفلاح ، وتعرض جريدة التجارة هذه الحالة فى أسلوب عنيف وحجة قوية وتذكر فى شىء من الفخر بأن موقف النواب علم الناس « أن فى السويداء رجالا سودتهم نفوسهم ، فلا تسام خسفاً ، ولا تضام عسفاً »(٢) .

كما عالجت الصحافة المصرية شئون مصر متخطية جميع الصعاب الرسمية من إنذار وتعطيل مؤقت ، فتحدثت عن مساوىء البطانة الخديوية ، وهاجمت الأجانب ، وشجعت مجلس النواب ، وأتاحت له فرصة الظهور ، ومدت رجاله بالرأى السديد الموفق ، وناقشت أموره الفقهية كواجب انتخاب رئيسه وحقه فى فرض الضرائب ، والمسئولية الوزارية(٣) .

وهكذا كانت آراء جمال الدين عاملا مهماً فى قوة المعارضة وظهور الأفكار الحرة بين المصريين . . وسيكون لذلك أثره فى تطور الحوادث الداخلية للبـلاد .

ثالثاً : فكر جمال الدين فى التخلص من الخديوى إسماعيل ، ولقد كان الاغتيال السياسى وسيلة من الوسائل التى يستخدمها لتحقيق أغراضه عندما تقتضى الضرورة .

---

(١) ديوان صالح مجدى : عن كتاب الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ، ج ١ ، مكتبة الآداب ، ١٩٥٤ ، ص ٢٣٤ .
(٢) التجارة : تاريخ ٣ ، ١١ يناير ١٨٧٩ .
(٣) الوطن — فى ١١ يناير ١٨٧٩ عن كتاب الدكتور إبراهيم عبده : تطور الصحافة فى مصر .

فيقول مستر بلنت : « إن العلماء كثيراً ما تباحثوا سراً فى أوائل عام ١٨٧٩م عن كيفية عزل إسماعيل ، والوسائل التى تمكن من ذلك أو حتى من التخلص منه باغتياله ، فاقترح السيد جمال الدين على الإمام محمد عبده القيام بقتل إسماعيل»(١) .

وروى عن كرومر « أن الإمام محمد عبده قال إن الكلام دار فى خطة معينة لاغتياله ، ولم تنفذ الخطة لعدم وجود الشخص الذى يتكفل بذلك »(٢).

رابعاً: أنشأ الحزب الوطنى الحر فى أوائل عام ١٨٧٩م(٣)، ودخل فيه كثير من العلماء والنواب نذكر منهم الشيخ محمد عبده والسيد عبد الله النديم وأحمد محمود وحسن الشريعى وسعد الله حلبى وحسن السيد قنديل وغيرهم .

وعلى لسان الحزب الوطنى تردد للمرة الأولى الشعار الوطنى المعروف « مصر للمصريين »(٤) .

وكان الحزب يرى المحافظة على العلاقات الودية بين مصر وتركيا ويعتقد أن جلالة السلطان عبد الحميد إمام المسلمين ، ولا يريد قطع هذه الصلات مادامت الدولة العلية قائمة، على أن يحافظ على امتيازات بلاده الوطنية بكل ما فى وسعه، ويقاوم من يحاول اخضاع مصر وجعلها ولاية عثمانية ، وكان رجال الحزب يرون أن نظام المراقبة الثنائية وقتياً ، ويأملون قرب اليوم الذى تكون فيه مصر بيد المصريين . ومن مبادىء الحزب المطالبة بإطلاق الحريات الكافية للنواب، وتقوية الجيش وزيادته حتى يستطيع الدفاع عن البلاد(٥) .

---

(١) بلنت : التاريخ السرى حتلال إنجلترا مصر ، ص ٣٥٤ .
(٢) الهامش : Cromer : Modern Egypt II, p. 181.
(٣) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ١ ، ص ١٦٢ .
(٤) Osman Amin : Muhammad Abduh p. 9.
(٥) تشالز آدمز : الإسلام والتجديد فى مصر ، ص ٢١٠ — ٢١٤ .

ويرى البعض أن الحزب الوطنى الذى أسسه مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ كان الوارث الوحيد المباشر للحزب الوطنى القديم الذى أسسه جمال الدين وخليفته فى دعوته(١) ، وكان جمال الدين يدعو إلى هذا الحزب فى مختلف جهات القطر ،فذهب إلى الإسكندرية وطالب الأهالى بالانضمام إليه ومن قوله فى خطبته :

« ولهذا أرجو منكم أيها السادة أن تقيموا حزباً وطنياً يصون لوطنكم حقوقه ، ويحفظ عليه بهاءه »(٢) .

وقد حاول الحزب الوطنى أن يعزل إسماعيل ويولى توفيق،وكان عضواً فى الجمعية الماسونية التى أنشأها جمال الدين،وكانت الدول وعلى الأخص إنجلترا وفرنسا تائقة إلى التخلص من إسماعيل فاتحدت الرغبتان : رغبة الوطنيين ورغبة الدول الأوروبية الدائنة،ولكن كان لكل فريق وجهة ، فجمال الدين يرى أن توفيق خير من أبيه وفى استطاعته انقاذ الحالة فى مصر ، أما الدول فكانت تخشى سطوة حاكم قوى كإسماعيل إذا تمكن من النهوض من عثرته ، ولذلك رأى الحزب الوطنى أن يتم عزل إسماعيل على يديه ، ولما عارض إسماعيل فى ذلك ذهب جمال الدين نيابة عن الحزب الماسونى والحزب الوطنى الحر إلى قنصل فرنسا الجنرال « المسيو تريكو » يطلب منه التدخل لعزل إسماعيل ، فوعده «المسيو تريكو» بأن التنازل أصبح أمراً مقرراً وشيك الحصول ، ولم يمض وقت طويل حتى عزل إسماعيل وتولى من بعده ابنه توفيق ، فاعتبر ذلك نصراً عظيماً للحزب الوطنى . . ولما كانت المقابلة بين جمال الدين والمسيو تريكو ذات أهمية كبيرة فى تاريخ مصر لما ترتب عليها من نتائج بعيدة المدى ، عظيمة الأثر رأيت أن أثبت هنا ما دار بينهما من حديث ، وما نشرته جريدة مصر بهذا الشأن ، وما قالته بعض الجرائد الأخرى .

---

(١) نفس المصدر ص ٢١٢ .

(٢) خطبته فى الإسكندرية : مجموعة مقالات لم تنشر ، ملحق رقم (٣) .
نشرت بجريدة مصر العدد ٤٧ بتاريخ ٢٤ مايو ١٨٧٩ .

قالت جريدة مصر تحت عنوان(١) :

توفيق مصر

فى صبيحة هذا اليوم(الخميس)سادس وعشرين شهر يونيو سنة ١٨٧٩م — الموافق السابع من رجب الخير سنة ١٢٩٦هـ — ورد من الباب العالى تلغراف مفاده : « أن الخديوى إسماعيل باشا يتنازل لولى عهده » ، فقوبل هذا التلغراف بالإذعان والامتثال ، واستدعى الخديوى إلى حضرته ولى عهده والوزراء وأخبرهم بالأمر ، ثم تنازل عن حقوق الخديوية على مسمع منهم جميعاً وللحال بويع لتوفيق باشا فصار خديوى مصر وصاحب أمرها ، وعزم الخديوى السابق على التوجه إلى الإسكندرية ليسير منها على الباخرة المحروسة إلى الآستانة ، وكتب بذلك إلى الباب العالى بتلغراف بعث به فى الساعة الرابعة من النهار (عربية) ، وتعين وقت التشريفات لتهنئة الخديوى الجديد فى الساعة العاشرة (عربية) فى سراى القلعة .

ولما انتشرت هذه البشرى عدها الناس نعمة كبرى ، وشملهم منها السرور وانشرحت منهم الصدور ، كما سروا بحصول مثل هذا الأمر الخطير من غير وقوع اختلال أو حدوث ما يكدر صفو الراحة ، فحق لهم أن يتخذوا هذا اليوم عيداً يذكر فى صفحات تاريخ مصر وتزين به آثار هذا العصر فبشرى للحزب الوطنى الحر وأبناء مصر الفتاة ، فقد وافقهم السعد إذ وافاهم التوفيق بأن ولى أمرهم فتى وطنى حر الآراء جميل المقاصد طاهر الأخلاق يؤيد بالتفاته الفتيان النبهاء والأذكياء ، ويبعد عن سماء قربه كل مداهن موالس ومتملق مدالس تعود المخاتلة والرياء وربيت عليهما نفسه الخبيثة ، فصارا من ملكاتها المتمكنة ، فإن هذا الأمير — والحق كلمة لا يخجل قائلها — قد أشرب حب الحرية المعتدلة فنفرت نفسه عن الأوهام الموجبة للذهول الداعية إلى الخمول ، ولسوف نرى من مساعيه ما يؤيد رأى الحزب الحر فيه ويبقى له فى قلوب أبناء مصر الفتاة حباً مقيماً ويمكن له فى أذهانهم مقاماً عظيماً . .

أما كيفية حدوث هذا الانقلاب العظيم من السعى وما تخلله من الحوادث

(١) مصر : العدد ٥٢ ، الصادر بتاريخ ٢٧ يونيو ١٨٧٩ .

فإنى أوردها عليكم ليقف عليها المصرى المحب لوطنه، فيعلم أن الحزب الوطنى لم يقم إلا بالحق، ولم يصدر إلا عن الحزم ولم يأخذ إلا بالحكمة، ولم يقصد إلا إخراج هذا الوطنى من مهاوى الذل والفاقة والعناء إلى مقامات العز والثروة والهناء وذلك :

إنه فى مدة الوزارة الولسونية رأى الحزب الوطنى الحر أن إدارة الأمور على مثل ما كانت عليه مجحفة بحقوق البلاد مفسدة لمصالح سكانها تقضى بهم إلى العبودية، بل تهبطهم عن درجة الإنسانية إلى المنزلة الآلية وتجعلهم جميعاً ضحية على مذهب حب الذات الذى ظهر فى السياسة الولسونية حتى شهدت به الجرائد الإنجليزية عينها فحمل ذلك الحزب على قلب الوزارة المومأ إليها وسعى إلى تلك الغاية النبيلة سعى من لم يألف الوهن ولم يعرف الخوف فأدرك بعض الأمنية، إذ تشكلت الوزارة الجديدة تحت رئاسة دولتلو شريف باشا الوطنى الهمام، وأخذت فى نظم ما اختل من الأمور، ومعالجة ما اعتل من الشئون ، ثم رأى الحزب المومأ إليه أن دول أوروبا غير راضية بما وقع وغير واثقة بالحكومة وعلم أن سر عدم رضاها وثقتها إنما هو بقاء الخديوى إسماعيل باشا على رئاسة الحكومة المصرية فاجتمع للنظر فى هذا الأمر والتوسل إلى حفظ المصلحة الوطنية بما لا يوجب القلق والاضطراب، ولا يذهب بالراحة والأمن، وكانت الدول فى خلال ذلك ترسل إلينا الوكلاء يقيمون الحجة ويجهرون بالمعارضة ويصرحون بالوعيد والإنذار، إلى أن وفد علينا جناب المسيو تريكو قنصل فرنسا الجنرال فأظهر قصد الدول على الوجه الواضح الجلى، إذ طلب من الجناب الخديوى أن يتنازل لولى عهده ليوطد الملك فى بيته فاستنفر من ذلك وأبى وتلونت فى هذا الأقوال والآراء على حسب تنوع الأفكار والأهواء، ورأى الحزب الوطنى أن إصرار الخديوى على الإباء يذهب بمصلحة الوطن ويجعل استقلاله على خطر مبين ، فاجتمع رؤساؤه ونبهاؤه فى العاصمة وتفاوضوا فى أمرهم ثم تحالفوا على السعى والاستماتة فى تأييد مبدأهم الحق، فبثوا رسلهم فى أنحاء القطر يستطلعون الأخبار ويستجلبون الأفكار ويحالفون القلوب لرأيهم غير مبالين بالأخطار المحدقة بهم، وكانت جرائدهم وهى مصر والمرآة

والتجارة تمهد بين أيديهم السبل وتبث فى الأنفس أنوار مبادئهم ليعلم أهل الوطن المصرى أن لا سبيل لانتعاش وطنهم من عثرة الشقاء ونجاته من ربقة العناء ووصوله إلى غاية الراحة والهناء إلا تنازل الخديوى وتولية ولى العهد فينشطوا لالتماس ذلك الأمر على يد الوطنيين لا الأجانب، وكان فى جملة ما أجروه بعد توالى الاجتماع وتواتر المفاوضة أنهم عينوا من قبلهم حضرة الأستاذ الفيلسوف الأكبر السيد جمال الدين الأفغانى لمقابلة المسيو تريكو ومفاوضته فى الأمر فسار إليه مستصحباً حضرة الفاضل سليم أفندى النقاش ، مدير جريدتكم رفيقاً وترجماناً، فوفدا على جناب القنصل المومأ إليه فى دار قنصليته فجرت بينه وبين الأستاذ المشار إليه المحاورة الآتية ملخصة :

قال الأستاذ :

لقد أتيت بالأصالة عن نفسى وبالنيابة عن الحزب الماسونى والحزب الوطنى الحر المنتشر فى جميع أنحاء القطر المصرى لأقدم لجناب القنصل احترامنا، ثم أبدى له أنه لما كان من المعلوم المقرر لدينا أن دولة فرنسا هى مصدر الحرية ومحتد الإنسانية ومعدن الجمهورية الحرة ، وكان طلبها لتنازل الجناب الخديوى موافقاً لآرائنا مؤيداً لمشروعنا علماً بأن بقاءه على عرش الخديوية يعدم ثقة أوروبا بهذه البلاد وحكومتها، ويقف حركة سيرهما فى سبيل التقدم، رأينا أن نظهر عواطفنا ونرفع الحجاب عن مقاصدنا لدى وكيل هذه الدولة الرفيعة الشأن ، ونبدى له على صورة رسمية أنا متأهبون لإجراء ما نستطيع — وليس ما نستطيعه بقليل — لمداركة أمرنا قبل فوات الفرصة ووقوع البلاء ، وإنا مستعدون لكثير من الأعمال المهمة لإدراك هذه الغاية السامية إذا أصر الخديوى على إبائه علماً بأن هذا الإباء يعود على هذه البلاد بالضرر العظيم . .

فأجاب القنصل :

لقد سرنى ما أظهرتم من العواطف النبيلة وفى ظنى أن لابد من التنازل

ولكنى أرغب إليكم أن لا تأخذوا بالأسباب الموجبة للقلاقل والاضطراب فربما عاد ذلك بالضرر على ولى العهد .

فقال الأستاذ :

إن الحزب الوطنى الحر قد فرغ صبره وصار يخشى على أن يترتب على امتناع الخديوى بلبلة عظيمة وفتنة جسيمة .

فأعاد القنصل معنى كلامه الأول بعبارة توجب الاطمئنان وقال: لابد من الصبر فإن التنازل صار أمراً مقرراً وشيك الوقوع .

وبذلك ختمت المحاورة وعاد الأستاذ إلى منتدى الحزب وأعاد على المتألبين فيه كلام القنصل فسكنوا إليه وعوّلوا عليه واستقر رأيهم على التزام السكينة حرصاً على حقوق ولى العهد ومخافة حدوث الفتن الموجبة لتداخل الأجنبيين » .

وحينما نشر هذا المقال علق عليه أعضاء الكوكب الشرقى بقولهم : إن «جمال الدين» لم يكن نائباً عن الأمة بأكملها حينما قابل «المسيو تريكو» وإنه لم يمثل الحزب الوطنى الحر،وأتوا بشهادة بعض رؤساء المحافل الماسونية الأجنبية على أنهم لم يستنيبوه فى زيارته لقنصل فرنسا الجنرال،فردت صحيفة مصر بقولها :

« إن جمال الدين لم يدع النيابة عن الأجانب ولا عن المنتمين إليهم من الذين لا تهمهم مصلحة الوطن . . ولا عن هيئة كوكب الشرق الذى كان السيد رئيسه إلى ليلة السبت حادى عشر الشهر،ثم خرج منه بمريديه الوطنيين الحقيقيين ولم يذكر فى مخاطبته لجناب الوكيل ذلك المحفل أو غيره من المحافل المصرية وإنما توجه إليه بالنيابة عن الوطنيين الأحرار الذين خرجوا من محفل الكوكب مع رئيسهم المرفع » (١) .

* * *

(١) جريدة مصر : العدد الرابع ، بتاريخ ٢٥ يوليو ١٨٧٩ .

بهذا نرى أن « جمال الدين » نجح فى مقاومة حكم إسماعيل المطلق ، واستطاع أن يحقق رغبته فى تولية توفيق . . وكان السيد « جمال الدين » يتوسم فيه الخير إذ رآه وهو ولى للعهد ميالا للشورى ، ينتقد سياسة أبيه وإسرافه وقد اجتمعا فى محفل الماسونية ، وتعاهدا على إقامة دعائم الشورى . . ولكن توفيقاً ما كاد يتولى العرش حتى أظهر ضعفه وعجزه وتردده . « فلقد تدرب على أمور الحكم فى ظروف شاذة عصيبة طغى فيها التدخل الأوروبى، فعمت الفوضى الإدارة والجيش ، وبذا أصبح خديوى مصر الجديد شديد التخوف من الأجانب، كبير الحذر من الساسة الأوروبيين »(١).

وبدلا من أن يساعد « الخديو توفيق » السيد جمال الدين ويعمل على إقامة نظام الحكم على أساس ديمقراطى صحيح ، استمع إلى قنصل إنجلترا العام فى مصر الذى أقنع الخديوى بضرر الأوضاع الدستورية فى ذلك الوقت الذى يسوده الاضطراب المالى، فعزل وزارة شريف الدستورية وتولى بنفسه رئاسة الوزارة، واستمع إلى وشايات رسل الاستعمار الأوروبى الذين أوعزوا إليه بإخراج « جمال الدين » من مصر ونفيه بعيداً عن البلاد .

فأصدرت الحكومة بلاغاً رسمياً من إدارة المطبوعات (٢) ذكرت فيه أن السيد رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش ، مجتمعة على فساد الدين والدنيا وحذرت الناس من الاتصال بهذه الجمعية ومما جاء فيه :

« لما كان الأمن والأمان ، والراحة والاطمئنان يتوقف عليهما تمام العمران فى جميع الممالك والبلدان، ومن أنجح الأبواب ، وأصلح الأسباب التى بها نجاح الممالك وسلوكها فى أقوم المسالك ، قطع دابر المفسدين الساعين فيما يضر بالدنيا والدين ويكون ذريعة للطائشين المتظاهرين بين الناس بمظهر الحرية بدون أساس ، البانين ذلك على غير شرع ، وأصل ثابت وفرع ، وإنما هو مجرد خزعبلات وترهات ، وأشراك وأحبولات ،

---

(١) محمد مصطفى صفوت : الاحتلال الإنجليزى لمصر ص ٣ .

(٢) صدر بتاريخ (٨ رمضان ١٢٩٦ هـ — ٢٦ أغسطس ١٨٧٩ م) ونشر بالوقائع المصرية ؛ عدد ٣١ أغسطس ١٨٧٩ .

نصبوها لاقتناص أمثالهم السفهاء والجهال الذين هم بمعزل عن معرفة شيء من صوالح الأحوال . وللتوصل إلى أغراضهم الفاسدة ، ومقاصدهم السيئة الكاسدة . وحكومتنا الخديوية التوفيقية الجليلة التى ما زالت على بصيرة ، متيقظة كل التيقظ لا تغادر فى استقصاء الجزئيات والكليات صغيرة أو كبيرة ، لا سيما فى هذا العصر الجليل ، الذى أنعم الله به علينا بحضرة خديوينا هذا الموفق الجدير بكل تبجيل الباذل كليته فيما به نفع العباد ، وإصلاح حال البلاد ، ورفع كل خلل ، ودفع ما يوقع فى الذلل .

فمن ثم قد استشعرت بأن هناك جمعية سرية من الشبان ذوى البطش ، مجتمعة على فساد الدين والدنيا المضر بالبرية ، رئيسها شخص يدعى بجمال الدين الأفغانى . مطرود من بلاده ثم من الآستانة العلية ، لما ارتكبه من أمثال هذه المفسدة فى ديارنا المصرية ، المتحققة بالقبض من أهل الضبط ، والتيقظ والبصيرة والربط ، على أوراق عنده مضمونها شاهد عليه بالتوسل بتلك الجمعية إلى السعى فى جميع القبائح والمفاسد التى لا تخفى على أهل الكياسة ، خصوصاً رجال الحكومة المحنكين المدربين على السياسة والرئاسة .

وهذا من أكبر ما يغير الأفكار ، ويجب أن يعامل مرتكبه بالتشديد والإنكار ، فالتزمت هذه الحكومة الحازمة ، أن تتخذ الطرق اللازمة ، وتستعمل السداد ، فى قطع عرق هذا الفساد ، فأبعدت ذلك الشخص المفسد من الديار المصرية بأمر ديوان الداخلية ووجهته من الطريق السويسى إلى الأقطار الحجازية ، لإزالة هذا الفساد من هذه البلاد ، عبرة للمعتبرين ولمن يتجاسر على مثل هذا من المفسدين ، البادى من أفعالهم الظاهرة أنهم لا خلاق لهم فى الدنيا والآخرة » .

وقد قبض على جمال الدين وحجز فى الضبطية حتى الصباح ثم نقل فى عربة مقفلة إلى محطة السكة الحديدية ومنها نقل تحت المراقبة الشديدة إلى السويس حيث أقلته باخرة إلى الهند .

وقد ذكر تعليلان لهذا العمل الذى لم يكن منتظراً من الخديوى توفيق ،

فقد علله محمد رشيد رضا (١) بأنه بمجرد ارتقاء توفيق العرش أخذ « جمال الدين» وأصدقاؤه يلحون عليه فى إنجاز الوعود التى سبق له أن وعدهم بها وعلى الأخص إقامة الحكم النيابى . . . على أن بذل الوعود قبل تقلد الحكم سهل يسير ، وإنجازها بعد ذلك أصعب ، ويظهر أن توفيقاً وجد أن التخلص من «السيد » أوفق من إنجاز الوعود . .

أما مستر براون فيرى أن الحكومة البريطانية خشيت نفوذ « جمال الدين » وعملت على التخلص منه فطلبت من الخديوى أن يقوم بنفيه (٢) وهذا الرأى هو الذى أخذ به معظم المؤرخين (٣) . .

ونجد أن قلم الأستاذ رشيد رضا قد استمتع بنصيب أكبر من الحرية عندما كتب تاريخ الأستاذ الإمام فقرر أن وكيلى فرنسا وإنجلترا اتفقا على إقناع الخديوى بضرر أى إصلاح فى الحكومة (٤) .

وبالرغم من أن جمال الدين نفى من مصر وأبعد عنها إلا أن تعاليمه وآراءه كانت قد انتشرت بين المصريين ، فكان لها أثر كبير فى قيام الثورة العرابية .

❋ ❋ ❋

أثره فى الثورة العرابية :

قامت الثورة العرابية فى أول أمرها لإنصاف الضباط الوطنيين ، وتخويلهم حقوقهم المشروعة فى المناصب والرتب العسكرية ، ووضع حد للاضطهاد الذى كانوا يعانونه من الرؤساء الترك والشراكسة فى الجيش ، ثم تطورت فأصبحت حركة دستورية تطالب بالتخلص من نظام الحكم القائم وإنشاء مجلس نيابى يوطد مبادىء العدل والحرية والدستور ،

---

(١) الشيخ رشيد رضا : المنار ، جـ ٨ ، ص ٤٠٤ .

(٢) E. G. Browne : The Persian Revolution p. 8.

(٣) الرافعى : عصر إسماعيل جـ ٢ ، ص ١٣٦ .

(٤) الشيخ رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، جـ ١ ص ٧٦ . وأسباب الثورة العرابية ص ١٦٤ – ١٦٥ .

وانتقلت الثورة فى مرحلتها الأخيرة فأصبحت ثورة قومية بعد أن اشتركت فيها طبقات الأمة كافة . .

وتعتبر الثورة العرابية « استمراراً للحركة القومية التى ظهرت فى عهد إسماعيل وامتداداً لها » (١) وقد شارك السيد « جمال الدين » فى ظهور الثورة العرابية من عدة نواح أهمهـــا :

أولا : كان لآرائه أثر كبير فى تطور الأفكار وفى ظهور روح المعارضة والنقد التى تجلت فى كتابات الصحف المعارضة للحكومة مثل جريدة مصر والتجارة ومرآة الشرق وأبو نظارة والقاهرة والشرق . ولذلك يقول سليم العنحورى فى ترجمته للسيد جمال الدين :

« كان لآراء « جمال الدين » أثر فى النهضة الفكرية بمصر ، فبدأت تنتشر حركة الخواطر فى الديار المصرية ،وأخذ القوم يشكون من حكومتهم متململين ، ويتطاولون بأعناقهم إلى ما يقول مشرأبين . . . ومنذ ذلك الحين طارت الشرارة الأولى من شرارات الثورة العرابية » (٢)

ويرى جابرييل هانوتو (٣) والشيخ « محمد عبده » (٤) أن « جمال الدين» هو مبدأ النهضة المعنوية فى مصر ، فتعاليم « جمال الدين » من حيث تأثيرها فى النفوس كانت أشبه شىء بتعاليم فولتير وجان جاك روسو ممن مهدوا فى فرنسا للثورة الفرنسية الكبرى ولذلك يعتبره الرافعى من الوجهة الروحية والفكرية أباً للثورة العرابية (٥) .

ثانياً : كان للحزب الوطنى الحر الذى أنشأه «جمال الدين» أثر فى قيام

---

(١) الرافعى : الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى ، مطبعة النهضة ، ١٩٣٧ ، ص ٦٧.
(٢) سليم العنحورى : تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٤٧ .
(٣) Hanotaux : Histoire de la nation : ... p. 362.
(٤) الشيخ محمد عبده : أسباب الثورة العرابية ، جـ ١ ، ص ١٦٠
(٥) عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل ، جـ ٢ ، ص ١٣٧ .
الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى ، ص ٧٦ .

الثورة فقد انضم إليه عدد كبير من أقطاب الثورة من بينهم محمود سامى البارودى والسيد عبد الله النديم ، وعملوا على تحقيق مبادىء الحزب التى كان من بينها المحافظة على امتيازات البلاد الوطنية والتخلص من نظام المراقبة الثنائية وتقوية الجيش وزيادة عدده . . ولا يخفى أن هذه الأهداف كانت من العوامل الرئيسية للثورة . . وبعد أن أبعد « جمال الدين » عن مصر ظل الحزب يؤدى رسالته فانضم إليه « أحمد عرابى وعبد العال حلمى وعلى فهمى وغيرهم من زعماء الثورة » (١)

فهذا الحزب حمل رسالة « جمال الدين » من بعده ، وكان له أثره فى قيام الثورة .

ثالثاً : كان من بين المبادىء التى نادى بها «جمال الدين» والتى وضعها للحزب الوطنى : المحافظة على العلاقات الودية بين مصر وتركيا ، وكان يعتقد أن جلالة السلطان عبد الحميد إمام المسلمين ولا يريد قطع هذه الصلات ما دامت الدولة العلية قائمة ، وكان السلطان عبد الحميد فى ذلك الحين يعمل على تكوين جامعة إسلامية تستطيع أن تصد الخطر الغربى وأراد أن يستفيد من قوى الشعوب الإسلامية ومن بينها مصر (٢) ، فلم تحدث تعارض بين ما يريده السيد « جمال الدين » وما يدعو إليه السلطان عبد الحميد ، وقد تأثر أحمد عرابى بآراء « جمال الدين » إلى حد كبير فلم يعلن انفصاله عن تركيا وظل يعلن تبعيته للسلطان ويعتمد على مساعدته وتأييده فلما أعلن عصيانه تحت ضغط إنجلترا كان لهذا الإعلان أسوأ الأثر كما يقول عرابى نفسه فى مذكراته (٣) .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى ، ص ٧٠ .
(٢) محمد مصطفى صفوت : الاحتلال الإنجليزى لمصر وموقف الدول الكبرى إزاءه ، دار الفكر العربى ، ١٩٥٢ ، ص ١٩ .
(٣) مذكرات عرابى : ج ٢ ، (طبعة دار الهلال) ص ١٧ — ٢٠ .
سليم نقاش : مصر للمصريين ، ج ٥ ، ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .

رابعاً: حينما نفى السيدجمال الدين من مصر تحت تأثير الدول الأوروبية كانت روحه وتعاليمه ومبادؤه قد تركت أثرها فى المجتمع المصرى وهيأته للثورة بل إن نفى جمال الدين كان له أثره « إذ أن هذه الشدة لم تزد الأفكار إلا حدة ، ولا الألسن إلا جرأة ، ولا الإحساس بضرورة الإصلاح إلا نمواً وظهوراً » (١) .

بهذا نكون قد بينا كيف شارك جمال الدين فى قيام الثورة العرابية . . ولو أنه بقى فى مصر حين نشوب الثورة لكان من الجائز أن يمدها بآرائه الحكيمة وتجاربه الرشيدة «فلا يغلب عليها الخلل والشطط، ولكن شاءت الأقدار والدسائس الإنجليزية أن ينفى السيد من مصر وهى أحوج ما تكون إلى الانتفاع بحكمته وصدق نظره فى الأمور » (٢)

❋ ❋ ❋

أثره فى مقاومة الاحتلال :

انتهت الثورة العرابية بالاحتلال الإنجليزى لمصر فى سنة ١٨٨٢ وكان لإخفاق الثورة أثران كبيران :

أولهما : الاحتلال البريطانى . . وقد أكد الإنجليز منذ أن وطئت أقدامهم أرض مصر أنهم لا يريدون احتلالها ولكنهم جاءوا لحماية الخديوى من الثورة وتثبيت عرشه، وأعلنت إنجلترا ذلك مراراً فى السنوات الأولى من الاحتلال (٣)، ولكن الإنجليز كانوا يخادعون الشعب حتى تهدأ الأحوال وتستقر أقدامهم فى مصر .

---

(١) الشيخ محمد عبده ، من كتاب : أسباب الثورة ، جـ ١ ص ٧٨ .
(٢) عبد الرحمن الرافعى : الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى ، ص ٧٦ .
(٣) تصريح جلادستون فى البرلمان الإنجليزى سنة ١٨٨٢ (مصطفى كامل — للرافعى ص٦٢)
محمد مصطفى صفوت : الاحتلال الإنجليزى لمصر ص١٧٦ ، ١٧٧ .
محمد مصطفى صفوت : مجلة الكتاب ، مشروعات جلاء إنجلترا عن مصر
عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ، جـ ١ ، ص ٨٠ .

ثانيهما : سريان روح الخضوع واليأس فى نفوس المصريين بعد الاحتلال ، فقد تعاقبت على البلاد فى تلك الفترة كثير من الأحداث لم تحرك من الأمة ساكناً ، ولم تدفع الشعب إلى مقاومة الاحتلال والتخلص منه ، وكان كبراء مصر وخاصتها وعامتها فى حالة استسلام تام لكل ما يصيب البلاد من المحن وكلهم منصرفون إلى مصالحهم الشخصية وما يصلون إليه من فتات مائدة الاحتلال (١) وكانت الصحافة فى مركز متردد،فهى إما موالية للاحتلال تؤيده وتتغنى بأعماله ، وإما معارضة له فى خوف وتردد ، وفى ذلك الحين كان « جمال الدين » قد انتقل إلى باريس وأصدر مع الشيخ « محمد عبده » جريدة العروة الوثقى ، فكانت أول جريدة قاومت الاحتلال فى عهده الأول فى قوة وعنف وأخذت تدعو إلى إثارة الروح القومية وبعثها من جديد وكانت سياسة «جمال الدين » فى العروة الوثقى إزاء المسألة المصرية قائمة على أمور عدة :

أولها : إثارة الشعب المصرى على الاحتلال الإنجليزى .

ثانيها : أن المسألة المصرية ليست مسألة مصرية فقط أو شرقية فحسب ، وإنما هى مسألة شرقية غربية تهم الدول الشرقية والغربية على السواء.

ثالثها : أن الدولة العثمانية صاحبة الحق الشرعى فى مصر .

رابعها : تعظيم خطر الثورة المهدية وما يتوقع من تأثيرها فى العالم الإسلامى وخاصة مصر .

❋ ❋ ❋

أما عن غرضه الأول فقد تحدث فى إحدى مقالاته عن نهضة مصر منذ زمن«محمد على»وتدرج إلى الاحتلال الإنجليزى وعمد إلى إثارة الشعب بقوله :

« لقد دخلت انجلترا مصر لوقاية الخزينة من العجز عن أداء ما يتعلق بها

---

(١) محمد مصطفى صفوت : الاحتلال الإنجليزى لمصر ، ص ٢٦٦ .
عبد الرحمن الرافعى : مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ، ص ٢٠٠ .
حسين فوزى النجار : السياسة والاستراتيجية فى الشرق الأوسط ، ص ٣٣١ .

من الحقوق الأوروبية، فاليوم رزئت بالنقص فى الإيراد وحملت من تعويضات متالف الحرب أربعة ملايين من الجنيهات ورميت بنفقات جيوش الاحتلال وحرب السودان ومصاريف إخلائه وما يضاف إلى كل هذا مما يظهره المستقبل، فاختلت الموازين وبطل قانون الجبايات ، وأى مصيبة على المالية أعظم من نوازلها الحاضرة ؟ ؟ (١) وكان يستغل الحوادث ، وينتهز الفرص التى تمكنه من إثارة الشعب بطريقة تشعره بعظم الخطر الذى تتعرض له مصر من بقاء جنود الاحتلال بأراضيه فيقول :

« إنا لله وإنا إليه راجعون . لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . ورد تلغراف من القاهرة إلى (الستاندرد) يفيد بأن السجون ضاقت بالمسجونين حتى اضطرت الحكومة المصرية والإنجليزية إلى إطلاق ألف ومايتى منهم من أرباب الجنايات الخفيفة » (٢) .

ويطالب المصريين بمقاومة الاحتلال وانتهاز الفرص « فى إمكانكم الآن أن تضروا بعدوكم ، وليس فى إمكانه أن يضر بكم ، فإذا مضى زمن انعكست القضية ، وأصبحتم فى عجز عن مقاومته » (٣) .

بهذا نرى أن جمال الدين كان أول من دعا الشعب إلى التخلص من السيطرة الإنجليزية، وأول من بث روح الأمل والجهاد فى النفوس، فكانت هذه هى وسيلته الأولى لمقاومة الاحتلال .

أما الوسيلة الثانية — فهى بيان أن المسألة المصرية لا تهم المصريين وحدهم ، وإنما تهم الشرقيين والغربيين على السواء ، فيعرض لموقف ألمانيا وفرنسا وروسيا من الاحتلال الإنجليزى ويقول إن بسمارك ليست له علائق سياسية تحمله على المدافعة عن مصر ولا منافسة له مع الإنجليز تحمله على معاكستهم بل له إليهم حاجة فى ضمهم إليه ، وإبعادهم عن فرنسا لتكون منفردة بين الدول لا حليف لها . .

---

(١) العروة الوثقى : من ص ٢٧٨ — ٢٨٤ . (٢) العروة الوثقى : ص ٣٠٥ .
(٣) العروة الوثقى : ص ٣٦٨ .

أما عن فرنسا فهى واقعة بين مكايد السياسة الإنجليزية والألمانية « لهذا تبذل الجهد لإجلاء العساكر عن مصر وتخفيض سلطة الإنجليز فيها ويوجد لها عون من دولة الروسيا ولها من المنعة ما لو أيدته أفكار المصريين وآراء ذوى العزيمة من رجالهم وميل أفئدتهم لمكنها من تخليص مصر وانتزاعها من أيدى الإنجليز » (١) .

وبهذه الوسيلة الأخرى يحاول أن يقاوم الاحتلال . فالدول الأوروبية لها مصالحها التى تدافع عنها فى مصر ولا يمكن أن تتنازل عنها نهائياً لإنجلترا ، وخاصة فرنسا التى كانت تنافس إنجلترا فى احتلال مصر ، والتى كانت سياستهما مشتركة إزاء المسألة المصرية . .

أما من الوسيلة الثالثة ، فهى تحريض الدولة العثمانية على مقاومة الإنجليز لتسترد مكانتها وهيبتها فى نظر العالم الإسلامى فمن ذلك قوله :

« والمسلمون اليوم فى قلقهم هذا ينظرون إلى الدولة العثمانية . . يرجون منها عزمة ثابتة ، تنقذ بها الأراضى المصرية من تبوئ الأعداء ، ويحفظ بها شرف المسلمين ومكانتهم الأولى » (٢)

أما الوسيلة الرابعة ، فهى تعظيم خطر الثورة المهدية وقد نجحت سياسته حتى إن الإنجليز أرادوا التفاهم معه بشأن الثورة المهدية ، والمسألة المصرية .

* * *

ولما شعر الإنجليز بخطر جريدة العروة الوثقى عملوا على وقفها وذلك بوضع العقبات فى سبيلها فانعقد مجلس النظار المصرى فى القاهرة وأصدر قراره إلى نظارة الداخليه قاضياً عليها بأن تشدد فى منع الجريدة من دخول الأقطار المصرية (٣)، كما أعلنت نظارة الداخلية بأن كل من توجد عنده

(١) العروة الوثقى : ص ٤٠٩ . (٢) العروة الوثقى : ص ٤٤٤ .

(٣) راجع الوقائع المصرية عدد ١٥ مايو ١٨٨٤ .

عبد الرحمن الرافعى : مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ، ص ١٦١ ، ١٦٣ .

أحمد شفيق باشا : مذكراتى فى نصف قرن ، جـ ١ ، ص ٢٩٠ .

الجريدة يغرم مبلغاً من خمسة جنيهات إلى خمسة وعشرين ولذلك قال « جمال الدين » متهكماً :

« وهى غرامة جسيمة ربما دعا إليها عسر المالية المصرية ببركة تصرف الإنجليز » (١) .

وقد كان لمعارضة « جمال الدين » للاحتلال أثره فى نهضة مصر السياسية، إذ بدأت الصحف تتجه هذا الاتجاه، وسارت المؤيد فى محاربة الإنجليز من غير هوادة أو مهادنة، وأفسحت صفحاتها لذوى الأقلام الملتهبة من أمثال سعد زغلول وإبراهيم اللقانى وإبراهيم المويلحى وغيرهم .

ويلاحظ أن معظم المصريين كانوا يدينون بالولاء لتركيا إذ كان « جمال الدين» يرى أن تركيا صاحبة الحق الشرعى فى مصر ، وكان يدعو فى جريدة العروة الوثقى إلى تكوين جامعة إسلامية تحت لواء دولة قوية ، فاتجه المصريون إلى تركيا باعتبارها زعيمة العالم الإسلامى، وظل لهذه الدعوة أثرها فى المجتمع المصرى، فكان الأدباء والشعراء (أمثال شوقى وحافظ) يمجدون الخلافة العثمانية — كما ذكرت من قبل — وظلت فكرة القومية مختلطة بعاطفة الولاء لتركيا، وكانت خطب مصطفى كامل وكتاباته تشير إلى هذه الناحية فمن قوله :

« وواجب المسلمين أن يلتفوا أجمعين حول راية الخلافة الإسلامية المقدسة وأن يعززوها بالأموال والأرواح فى حفظها حفظ كرامتهم وشرفهم وفى بقاء مجدها رفعتهم ورفعة العقيدة الإسلامية المقدسة » (٢) .

وكان « محمد فريد » متفقاً مع « مصطفى كامل » فى أن مصلحة مصر فى ذلك الوقت تدعو إلى مؤازرتها لتركيا

وإذا راعينا أن الحزب الوطنى الذى أنشأه « مصطفى كامل » كان إحياء للحزب الوطنى الحر الذى أنشأه « جمال الدين » (٣)قبل الثورة العرابية

---

(١) العروة الوثقى : ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ . (٢) من خطبة لمصطفى كامل .

(٣) آدمز : الإسلام والتجديد فى مصر .

لأدركنا مدى الأثر الذى أحدثه جمال الدين فى الحياة السياسية لمصر . . .
ويقول سعد زغلول :

« لست خالق هذه النهضة كما يقول بعض خطبائكم . . لا أقول ذلك ولا أدعيه بل لا أتصوره ، إنما نهضتكم قديمة من عهد محمد على وعرابى وللسيد « جمال الدين الأفغانى » وأتباعه وتلاميذه أثر كبير فيها ، وهذا حق يجب أن لا نكتمه لأنه لا يكتم الحق إلا الضعيف » (١) .

بهذا نرى أن « جمال الدين » نجح فى مقاومة الحكم المطلق وإثارة الوعى القومى فى مصر قبل الاحتلال وبعده ، وكان لدعوته وتعاليمه أثر كبير فى الحياة السياسية للبلاد ، بل يمكن القول بأن أثره فى مصر كان أقوى وأعظم منه فى أى بلد من البلدان الإسلامية الأخرى .

* * *

ثانياً — أثره العلمى والأدبى

استطاع « جمال الدين » أن يفتح أذهان المصريين إلى البحث والتفكير ، وبين لهم طريق الاستنتاج والاستنباط ، وبفضله خطا فن الكتابة والخطابة فى مصر خطوات واسعة ، وتقدمت الصحافة تقدماً ملموساً ، وتحررت من مختلف القيود ، فلم تعد تعيش بأموال الحكام وتتغذى بأفكارهم ، ولا تكاد تتحدث إلا بألسنتهم . . فقبل مجيء السيد « جمال الدين » كان الأفق العلمى ضيقاً ، وكان العلماء يلتزمون جانب الحذر والتردد فى إصدار الأحكام ، فأخذ « جمال الدين » يغرس فى تلاميذه روح التفكير المطلق ، وحب الحقائق التى تتمشى مع العقل السليم والرأى الحصيف ، وكانت دروسه تتميز بسعة الأفق والتحرر من قيود التقليد « فهو يجمع بين تدقيق الشرقيين ، وبسط الغربيين ، ويجمع إلى الأصول فروعها ، وإلى المقدمات نتائجها » (٢)

ويروى الشيخ « محمد عبده » أنه بعد حضوره فى الأزهر سنين ملّ

(١) عبد القادر المغربى : جمال الدين ، ذكريات وأحاديث ، ص ٢٩ .
(٢) تاريخ الأستاذ الإمام : ج ٢ ، ص ٧ مقدمة مقال : فلسفة الصناعة .

الدروس المعتادة ، وصارت نفسه تطلب شيئاً جديداً ، وتميل إلى العلوم العقلية ، وكان الشيخ « حسن الطويل » ممتازاً فى الأزهر بعلم المنطق فحضره عليه ، ولكنه لم يكن يشفى ما فى نفسه ، وقرأ الشيخ « حسن الطويل » شيئاً من الفلسفة ولكن لم يكن يجزم بالمعنى ، وكانت دروسه أغلبها احتمالات (١) ، فلما جاء « جمال الدين » وجد عنده أمنيته ، فلم يكن « جمال الدين » يتردد فى الحكم تردد الشيخ « حسن الطويل » ، وإنما كان يصدر أحكامه عن ثقة وينظر إلى الأشياء نظرة عميقة ، وقد لخص لنا الشيخ « محمد عبده » درسين من دروس السيد « جمال الدين » أحدهما عن التربية والآخر عن فلسفة الصناعة (٢) نستدل منهما على غزارة علمه ، وسعة أفقه . . وكانت طريقته فى التدريس أن يشرح الموضوع ويعلق عليه من جميع نواحيه ويبين رأيه فيه ، ثم يقرأ النص بعد ذلك فإذا هو واضح كل الوضوح . . وبهذه الطريقة استطاع أن يعود الطلبة حرية البحث ، ويوجد شخصيات تبحث وتنقد وتحكم ، ولا تقف عند حد النص كأنه تنزيل من الله .

أما من الناحية الأدبية فقد تأثرت به المدرسة الصحفية الثانية ، وخرجت عن النطاق الضيق الذى عرف به رجال المدرسة الصحفية الأولى ، وسنرى إلى أى حد أثر « جمال الدين » فى نهضة الصحافة المصرية .

***

مرت الصحافة المصرية فى أطوار عدة ، وأدوار متعددة ، حتى أصبح لها أثرها فى توجيه الرأى العام ، وتهيئة الأفكار وتثقيف العقول ، وكان أثرها يختلف قوة وضعفاً حسب الأحوال السياسية والاجتماعية للبلاد ، وأهم هذه الأدوار :

الدور الأول : ظهرت المدرسة الصحفية الأولى فى عهد « محمد على » ،

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام : ج ١ ، ص ١٠٣ .
(٢) جريدة مصر : العدد ٤٩ ، الموافق ٥ يونيو ١٨٧٩ .
ونشرها الشيخ رشيد رضا فى الجزء الثانى من تاريخ الأستاذ الإمام ص ٧ — ١٨ .

وهى المدرسة التى كان من أشهر تلاميذها « رفاعة الطهطاوى» و «عبد الله أبو السعود » و « محمد أنسى » وغيرهم (١) .

وكانت الصحافة رسمية فى أول أمرها تعيش بأموال الحكام وتصدر بوحى منهم ، ثم ظهرت الصحافة الشعبية ، وكانت فى ذلك الوقت صورة دقيقة من الصحافة الرسمية .

ويغلب على هذه المدرسة الطريقة العلمية ، فجاءت أكثر الصحف مشحونة بالفصول العلمية والأدبية — مؤلفة كانت أم مترجمة — وكان الكتاب يميلون إلى استعمال المحسنات البديعية متأثرين بقيود الماضى البعيد حين كان النثر العربى يميل إلى السجع وغيره من ألوان البديع التى فتن بها أدباء العربية منذ القرن الرابع الهجرى (٢) .

وأفضل ما فى تاريخ هذه الصحافة المصرية الرسمية أنها نشأت مصرية خالصة ليس لغير المصريين فضل فى إنشائها أو تقدمها أو ارتقائها « بل كان لها هى الفضل على البلاد الشرقية بما علمت من رجالها أصول الإنشاء والتحرير »(٣)

ويمثل رجال هذه المدرسة من الصحافة دور الطفولة فلم يكن لهم أثر مباشر فى توجيه الرأى العام أو خلقه ، بل عاونوا على تهيئة الأفكار ، وتنوير الأذهان .

الدور الثانى : ظهرت المدرسة الصحفية الثانية فى عهد إسماعيل وتوفيق ،وكان إسماعيل يريد صحافة موالية للحكومة تكون فى خدمته ، وتخضع لرغبته لتستحق عطفه عليها واحتفاءه بها ،وكان يسمح لها بأن تخوض فى مختلف الموضوعات ما عدا موضوع الطعن عليه (٤) ولذلك لم تتمتع الصحافة بحرية النقد .

---

(١) عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية ، ج ٣ ، دار الفكر العربى ، ١٩٥١ ، المقدمة .

(٢) عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية، ج ٢ ،دار الفكر العربى ، ١٩٥٠ ،ص ٥٤ ،

(٣) إبراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية ، مكتبة الآداب ، ١٩٥١ ، ص ٥٧ .

(٤) إبراهيم عبده : تطور الصحافة فى مصر ، ص ٦٨ .

وظلت على ذلك حتى جاء «جمال الدين» إلى مصر فطلب من تلاميذه أن يشتركوا فى الكتابة ، وشجعهم على القراءة فى كتب الأدب ليستقيم أسلوبهم، وتقرب عباراتهم إلى الفصاحة والبيان ، ويتمكنوا من كتابة ما يعن لهم من الأفكار لصالح الأمة ، وخير الوطن . .

وكان القادرون على الكتابة والإجادة فى مختلف الموضوعات نفر قليل من أبناء مصر منهم « عبد الله فكرى » و «خيرى باشا و« محمد باشا » سيد أحمد » على ضعف فيه، و«مصطفى باشا وهبى» على اختصاص فيه (١) فعمل « جمال الدين » على أن يكون تلاميذه من بين هؤلاء المجيدين فشجع « أديب إسحق » على أن ينشىء جريدة مصر، وكان « جمال الدين » يرسم له خطة السير فيها ، ويكتب بنفسه بعض مقالاتها باسمه أو باسم مستعار هو « مظهر بن وضاح » ثم أوعز إليه بالانتقال إلى الإسكندرية والاشتراك مع «سليم نقاش» فى إصدار صحيفة التجارة ، وطلب من الشيخ « محمد عبده » و «إبراهيم اللقانى » أن يشتركا فى التحرير .

كما أصدر « سليم العنحورى » جريدة « مرآة الشرق » وتنحى عنها فى سنة ١٨٧٩ وتولاها إبراهيم اللقانى بإيعاز من السيد « جمال الدين » كما أصدر «يعقوب بن صنوع» صحيفتين هما « مرآة الأحوال » صدرت فى لندن سنة ١٨٧٦ و « أبو نظارة » صدرت فى القاهرة سنة ١٨٧٧ وكانت أيضاً بإيحاء من السيد جمال الدين (٢) .

ولما انتقل « جمال الدين » إلى باريس ، اشترك مع الشيخ « محمد عبده » فى إصدار جريدة العروة الوثقى فكانت مثالا يحتذى لرجال المدرسة الصحفية الثانية ، وأغلبهم من تلامذة « جمال الدين » ، وبعد أن كانت المقالات قاصرة على النواحى العلمية والأدبية اتسع نطاقها على أيدى رجال هذه

---

(١) الشيخ محمد عبده : مقدمة الرد على الدهريين ص ١٢ .

Browne : The Persian Revolution P. 8.

(٢) فيليب دى طرازى : تاريخ الصحافة العربية ، جـ ٢ ، بيروت ، ١٩١٣ ، ص ٢٨٣ .

المدرسة وتناولت الموضوعات السياسية والاجتماعية والدينية ، وتخلصت من السجع والجناس وغيرها من ألوان المحسنات البديعية (١) .

وأخذت تنتقد الولاة والحكام بصراحة وجلاء متخطية جميع الصعاب الرسمية من إنذار وتعطيل مؤقت وإلغاء ،وليس أدل على ذلك من أن جريدة التجارة عطلت فى أوائل عام ١٨٧٩ لمدة خمسة عشر يوماً فاستقبلت أمر التعطيل بإصرار على المعارضة بقولها :

« فإن التجارة تحسب حب الوطن ديناً ، والمدافعة عنه جهاداً ، فإن عاشت فهى سعيدة ، وإن ماتت فهى شهيدة ، ولقد أتاها الله النعمتين ، وأتاح لها الحسنيين فعاشت به وماتت عليه ، وستبعث بعد أسبوعين رافلة فى ثوب الشهادة مزينة بحلى السعادة على رغم أنوف حاسديها الذين أولوا كلامنا إلى ما لم نقصد ، وحاولوا إطفاء نور الحق ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المبطلون » (٢)

وتتميز هذه المدرسة بغلبة الروح الأدبية عليها « ولذا يمكن القول بأن الأدب أفاد من الصحافة سعة فى الموضوع وغزارة فى الأفكار ، وتنويعاً فى المادة » (٣) .

وهكذا استطاع «جمال الدين» أن يؤثر فى نهضة مصر الأدبية فزاد عدد الأدباء ، وقويت أساليب الكتابة وتطورت الصحافة المصرية تطوراً ملحوظاً ، ولذا يقول الشيخ « محمد عبده » :

« وأصبحت ترى فى القطر المصرى كتبة لا يشق غبارهم ولا يوطأ مضمارهم ، وأغلبهم أحداث فى السن ، شيوخ فى الصناعة ، وما منهم إلا من أخذ عنه أو عن أحد تلامذته أو قلد المتصلين به » (٤)

❋ ❋ ❋

(١) عبد اللطيف حمزة : المقالة الصحفية ، جـ ٢ ، ص ٢١٩ — ٢٢٢ .
(٢) التجارة فى ١٣ فبراير ١٨٧٨ .
(٣) عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية ، جـ ٢ ، ص ٢٢٤ .
(٤) الشيخ محمد عبده : مقدمة الرد على الدهريين ، ص ١٣ .

ثالثاً — أثره الدينى

سبق أن ذكرنا (١) أن جمال الدين كان يدعو إلى التجديد فى الدين وكانت دعوته قائمة على الاعتماد على منطق العقل ، والبعد عن التقليد دون أدنى إهمال لسلطان القرآن والحديث ، « وكان يرى أن المسلمين ما صاروا أمة ذات مدنية إلا بحسن فهمهم لدينهم وحسن عملهم به ، وما ضعفوا أو استكانوا بعد ذلك إلا لسوء فهمهم لدينهم وانحرافهم عن صراطه وابتداعهم فيه » (٢) .

وهو يطالب بالرجوع إلى جوهر الدين ، وتفسيره تفسيراً يتلاءم مع روح العصر ، وقد مكنه علمه التام بالقرآن والسنة من إقامة الحجة على أنهما لو أحسن تأويلهما معاً لكان الإسلام كفئاً لإحداث تطور راق عظيم (٣) .

ولذلك أخذ « جمال الدين » يشرح للمصريين قواعد الإسلام الصحيحة ، وأبان لهم أن المسلم لا يكون مسلماً صحيح الإسلام إلا إذا اعتقد عن دليل وبرهان ، وكان إذا ذكرت أمامه كلمة التوحيد قال : « إن الناس لو فهموا معناها لما استعانوا إلا بالله ، ولما طلبوا المدد إلا من الله » .. وكان يقول :

« ما أكثر الجرائد السياسية والعلمية والأدبية فى هذه البلاد مع أن أهاليها فى حاجة إلى جريدة أبسط من ذلك كله . . . إلى جريدة تقول لهم : اغسلوا أرجلكم . . . اغسلوا أيديكم » (٤)

وقد نشأ له من جراء صراحته هذه ، وتجديده فى الدين مريدون كثيرون ، وأصبح لدعوته أثر كبير فى المجتمع المصرى ، وكان طبيعياً أن يلقى جمال الدين مقاومة من بعض العلماء ورجال الدين إما لجمودهم وعدم فهمهم لروح العصر ، وإما لحقدهم وعدم رضائهم عن ظهوره بينهم

---

(١) راجع الفصل الخاص « بالجامعة الإسلامية » .
(٢) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، جـ ١ ، ص ٨٢ .
(٣) بلنت : التاريخ السرى لاحتلال إنجلترا مصر ، ص ٧٧ .
(٤) عبد القادر المغربى : ذكريات وأحاديث ، ص ٣٢ .

« واتخذوا من دروسه سبيلا للطعن عليه محتجين عليه بقراءته لبعض الكتب الفلسفية أخذاً بقول جماعة من المتأخرين فى تحريم النظر فيها » (١) .

وبالرغم من المعارضة التى وقفت فى سبيله ، والتهم التى وجهت إليه ، فقد استطاع جمال الدين أن يخلف وراءه مدرسة تأخذ بتعاليمه ، وتعتمد على آرائه ، وكانت مدرسته كما سبق أن ذكرت قوية الأثر واضحة المعالم . . وحسبنا دليلا على هذا أن أكثر من تصدوا للإصلاح الدينى والاجتماعى فى مصر كانوا من تلاميذه أو من أصدقائه المتأثرين به . . . ونذكر على رأس هذه المدرسة التجديدية الشيخ «محمد عبده» ، والشيخ « محمد رشيد رضا» والشيخ « مصطفى عبد الرازق » ، « ومحمد فريد وجدى » (٢) .

ومن النواحى التى اهتم بها دعاة المدرسة التجديدية الدفاع عن الدين ضد أعدائه من المسيحيين الذين وجهوا إليه مختلف الاتهامات . . فقام «جمال الدين» بالرد على «رينان» ، بينما قام الشيخ « محمد عبده» بالرد على « جابرييل هانوتو » وزير الخارجية الفرنسية و«فرح أنطون» محرر مجلة الجامعة .

وحينما تم الاحتلال الإنجليزى لمصر أخذ الإنجليز يقذفون الإسلام بكثير من التهم لغايات سياسية وأغراض استعمارية يريدون تحقيقها ، فقام قادة الرأى فى مصر — ومعظمهم من تلامذة « جمال الدين » — يدافعون عن الدين ، وكانت جريدتا اللواء والمؤيد تعبران عن هذا الاتجاه أصدق تعبير وأحسنه .

* * *

بهذا نرى أن جمال الدين الأفغانى نجح فى مقاومة الحكم المطلق وإثارة الوعى القومى عند المصريين ، وكانت دعوته إلى القومية أكثر نجاحاً من دعوته إلى الجامعة الإسلامية .. كما كان له أكبر الأثر فى نهضة مصر السياسية والأدبية والدينية . . .

* * *

---

(١) الشيخ محمد عبده : الرد على الدهريين ، ص ١٣ .

(٢) راجع الفصل الثانى من الكتاب .

الفصل الخامس

تلامذة جمال الدين الأفغاني ومؤلفاته



تلامذة جمال الدين الأفغانى ومؤلفاته

أولا — تلامذة جمال الدين

استطاع « جمال الدين الأفغانى » أن يؤثر تأثيراً كبيراً فى نهضة العالم الإسلامى ، وكان له فضل عظيم فى الحياة السياسية والعلمية والأدبية والدينية بمعظم البلاد الإسلامية ، ولذلك تنوع تلامذته ، وكثر محبوه ومريدوه وخاصة من رجال السياسة والعلم والأدب . .

وكان المعروف عن جمال الدين أنه كثير الاحتفاء بزائريه ، يلقى الحكمة لمريديها وغير مريديها على السواء ، كما كان لمقالاته فى العروة الوثقى صدى بعيد فى نفوس المسلمين ، ولذا يمكن اعتبارها مدرسة متنقلة إذ كان لها الفضل فى نشر تعاليمه على نطاق واسع .

وليس من اليسير علينا أن نحصى الأفراد الذين تأثروا بتعاليمه ، فمنهم من اتصل به زمناً قصيراً ، ومنهم من لازمه فترة طويلة من الزمن ، ومنهم من تأثر بتعاليمه التى ملأت أرجاء العالم الإسلامى فى النصف الثانى للقرن التاسع عشر . . . يضاف إلى ذلك أن السيد « جمال الدين » لم يتخذ له وطناً معيناً ، وإنما جعل العالم الإسلامى كله وطناً له ، ولذا وجد له تلاميذ فى مصر وبلاد الشام وإيران والهند وغيرها من البلاد الإسلامية . .

ويمكن أن نقسم تلاميذ « جمال الدين » إلى فريقين . .

الفريق الأول :

وهم الذين حضروا مجالسه ، واستمعوا إلى دروسه ، وتلقوا عنه آراءه ومبادئه بطريق مباشر ، وأفراد هذه المدرسة جميعاً من المعاصرين للسيد « جمال الدين » وهم الذين سنهتم بهم فى هذه الدراسة .

الفريق الثانى :

ومعظمهم ممن لم يعاصروا السيد « جمال الدين » إلا أنهم تأثروا بتعاليمه ، واهتدوا بآرائه . . . وساروا فى نفس الاتجاه الذى كان يسير فيه السيد « جمال الدين » . .

* * *

١ — الشيخ محمد عبده
(١٨٤٩ — ١٩٠٥ م)

كان الشيخ « محمد عبده » إماماً مجدداً ، ومصلحاً مستنيراً ، وزعيماً متحرراً . وصاحب مدرسة تجديدية لا تزال آثارها ماثلة فى مصر حتى الآن .

اتصل بالسيد « جمال الدين » عند مجيئه إلى مصر فى أوائل عام ١٨٧٠ م ، وأصبح منذ ذلك الحين من أحب الناس إليه ، وتلميذه الأثير لديه ، وكان يصحبه دائماً إذا حاضر أو ناقش ، فلما أبعد « جمال الدين » عن مصر قال عنه :

« إننى خرجت من الديار وما ألفت كتاباً ، ولكن تركت لكم أثراً يغنى عن جميع الكتب وهو « محمد عبده » ، وكفى به لمصر عالماً » (١)

وقد ظلت الصلة قائمة بين الحكيم وتلميذه بعد نفيه من مصر ، فرحلا إلى باريس ، وأصدرا معاً جريدة « العروة الوثقى » واشتركا فى العمل لخدمة العالم الإسلامى ولذا كانت آراء الشيخ « محمد عبده » ونزعاته الإصلاحية متأثرة إلى حد كبير بآراء السيد « جمال الدين »وتعاليمه ، وليس أدل على ذلك من قول الأستاذ الإمام :

« إن أبى وهبنى حياة يشاركنى فيها على ومحروس — وهما أخواه — والسيد « جمال الدين » وهبنى حياة أشارك فيها محمداً وإبراهيم وموسى وعيسى والأولياء والقديسين » (٢) .

وقوله :

« إنك صنعتنا بيديك ، وأفضت على موادنا صورنا الكمالية ، فبك عرفنا أنفسنا ، وبك عرفناك ، وبك عرفنا العالم أجمعين » (٣) .

---

(١) الشيخ رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، جـ ١ ، ص (ط) .
جورجى زيدان : مشاهير الشرق ، جـ ١ ص ٢٨١ .
آدمز : الإسلام والتجديد فى مصر ، ص ٢٠ .

(٢) عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية ، جـ ٢ ، ص ٦٣ .

(٣) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام جـ ٢ ، راجع الكتاب الذى أرسله الشيخ محمد عبده إلى جمال الدين من ص ٥٩٩ — ٦٠٣ .

فالأستاذ الإمام يرى أن « جمال الدين » وهبه حياة جديدة يشارك فيها الأنبياء والأولياء والقديسين وأن له الفضل فى معرفته لنفسه ، وتفهمه للعالم أجمع . . فانظر إلى أى حد تأثر الأستاذ الإمام بتعاليم «جمال الدين» . . .

* * *

تعلم الشيخ « محمد عبده » فى كتّاب القرية ثم فى الجامع الأحمدى بطنطا ثم بالأزهر الشريف ، وكانت الصلة بين الأزهر وبين العالم الحديث توشك يومئذ أن تكون منقطعة ، فهرب من الجامع الأحمدى ، وضاق بدراسته فى الأزهر . ولقد أشار الشيخ «محمد عبده» إلى هذه البداية السيئة عندما أراد أن يبين مضار طرائق التعليم الفاسدة ، وسوء أثرها لطائفة من العلماء حاضرهم فى تونس . فحدثهم عن التعليم ، ودافع بين ما دافع عنه من مسائل عن ضرورة انتهاج طرق أصلح لتعليم النحو العربى (١) .

ومن بين من تأثر بهم الأستاذ الإمام فى تلك الفترة الشيخ « درويش خضر » أحد أخوال أبيه والشيخ « حسن الطويل » أحد أساتذة الجامع الأزهر . .

أما الشيخ «درويش» فقد علّمه تعاليم الصوفية وأذكارهم ، ولقنه الدروس الأولى فى فهم القرآن فهماً صحيحاً ، وألقى فى روعه حقيقة وقعت من نفسه موقع الوحى وهى :

« أن الناس لو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافة من الأمور . ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب وبغير سبب » (٢) .

فالشيخ « درويش » له فضل التوجيه عليه ، وإخراجه من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة . ومن قيود التقليد إلى إطلاق التوحيد . . (٣) .

وأثار فى نفسه العناية بالتصوف ، وأخذت هذه العناية تنمو رويداً رويداً حتى أصبحت من أهم المؤثرات فى حياته . .

---

(١) تفسير سورة العصر وخطاب عام فى التربية والتعليم ، القاهرة ، ١٩٠٣ ، ص ٦٧ — ٦٨

(٢) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ١ ، ص ٢٣ .

(٣) آدمز : الإسلام والتجديد فى مصر ، تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ، ص ٢٣ .

أما الشيخ « حسن الطويل » فكان من أكثر أساتذة الأزهر استقلالا فى الرأى ، وحرية فى التفكير فدرس عليه المنطق والفلسفة إلا أنه لم يشبع رغبته القوية فى الدرس والتحصيل ، وكانت دروسه أغلبها احتمالات تقوم على الفرض والتخمين (١) .

وظل الحال على ذلك حتى قيض الله له السيد « جمال الدين » الذى بصره بالحياة ، وأخرجه من غمرات التخوف ، وهيأ له مجال التفكير الحر .

ولا نزاع فى أن الشيخ «محمد عبده» كان أنبه تلاميذ السيد « جمال الدين » وأشدهم تأثراً بطريقته ، وأكثرهم اعترافاً بعلمه وعبقريته ، ولم يفته أن يسجل اعجابه بأستاذه وحماسته له . . فمن ذلك ما كتبه فى نسخة نقلها بخطه من كتاب قديم حيث قال فى خاتمتها :

« وكان الفراغ من قراءته وتقديره عن لسان الحق ، وقائد الخلق إلى جناب الحق ، خلاصة من تجلى بالحكمة ومنقذ الضالين فى تيه الجهالة والغمة ، محيي الحق والدين — أستاذنا السيد « جمال الدين » — .

وفى بداية رسالة الواردات يصفه « بالحكيم الكامل والحق القائم » (٢)

ولو أردنا أن نذكر الخدمات التى قدمها السيد «جمال الدين » لتلميذه لوجدناها كثيرة أهمها :

أولا : أنقذه من غمرات التصوف ، وكان منذ بدء طلبه للعلم فى الأزهر يلبس قميصاً خشناً فوق بدنه ، ويجاهد نفسه بالتقشف والزهد ويمشى مطرقاً لا يكلم أحداً إلا لضرورة (٣) .

فكان لجمال الدين الفضل فى انتشاله من الاستغراق فى التصوف .

---

(١) محمد رشيد رضا : المنار ، جـ ٨ ، ص ٣٨٨ .
(٢) عثمان أمين : محمد عبده ، ص ٢٦ .
(٣) يصف الشيخ رشيد رضا حالته بالجزء الأول ، ص ١٠٧ .

ثانياً : شجعه على قراءة الكتب الأجنبية الحديثة التى عرّبت إلى اللغة العربية ، وقد استطاع «محمد عبده» أن يجد فى هذه الكتب متعة لم يكن يشعر بها فيما كان يقرأ من الكتب القديمة ، وبذلك بدأت تتسع أمامه آفاق التفكير الصحيح .

ثالثاً : مهد طريق الصحافة ، ودربه على الكتابة وإنشاء الفصول الطويلة وكتابة المقالات الأدبية والاجتماعية والسياسية ومرنه على الخطابة كغيره من تلامذته . ويقول الشيخ « محمد رشيد رضا » :

« إن الشيخ صار أبرع من أستاذه نفسه لأن عبارة السيد كانت على متانتها وبلاغتها لم تصف من كدورة العجمة إلى صفاء الانسجام العربى الخالص كعبارة الشيخ » (١) .

وقد ظهرت فى وقت قصير آثار انتفاعه بدروس السيد «جمال الدين» فألف فى التصوف (رسالة الواردات) وكتب فصولا فى الجرائد وخاصة الأهرام ، استرعت إليه الأنظار . . . من هذه المقالات اثنتان أخذهما عن دروس السيد « جمال الدين » :

الأولى فى فلسفة التربية ، والأخرى فى فلسفة الصناعة .

أما المقالات الأخرى وعددها خمس فهى : تقريظ الأهرام ، والكتابة والقلم ، والمدبر الإنسانى والمدبر العقلى والروحانى ، والعلوم الكلامية والدعوة إلى العلوم العصرية ، والتحفة الأدبية .

وقد دعا فى هذه المقالات إلى إنهاض الشباب كما دعا الأمة إلى الحذر من تدخل الأجانب فى شئون البلاد وطرح أنظمة التعليم العتيقة والأخذ بالنظم الحديثة (٢) .

---

(١) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ١ ، ص ٢٦ .
(٢) نشرت هذه المقالات بكتاب تاريخ الأستاذ الإمام : ج ٢ ، من ص ١ — ٤٨ .

ثم نال شهادة العالمية من الدرجة الثانية بعد امتحان عسير ظهر فيه أن الشيوخ ينقمون عليه نزعاته الفكرية المتأثرة بمذهب «جمال الدين»، ودراسته للعلوم الفلسفية(١) .

وعين على أثر ذلك مدرساً فى الأزهر ودار العلوم ومدرسة الألسن الخديوية ، وقد وجه اهتمامه فى الأزهر إلى أمرين :

أولهما : تدريس العقائد على أساس البراهين القطعية .

ثانيهما: تجديد ما بلى من العلوم العقلية وغيرها من العلوم التى كان ينفر رجال الأزهر من الاشتغال بها أو البحث فيها .

وكان فى ذلك متأثراً بالسيد جمال الدين . . ويختلف الشيخ محمد عبده عن أستاذه فى طريقة التدريس إذ كان جمال الدين يلقى الحكمة لمريديها وغير مريديها على السواء ، أما الشيخ محمد عبده فلم يكن يقول شيئاً إلا إذا كانت حالة المجلس متهيئة لذلك، كما كان جمال الدين يشرح آراءه فى الموضوع ثم يقرأ نص الكتاب ، أما الشيخ محمد عبده فكان يبدأ بالنص ثم يعقب عليه بآرائه الخاصة .

ولما تحوّلت دروس السيد جمال الدين إلى الناحية السياسية ، اشترك معه الشيخ محمد عبده ، وانغمر فى الحياة السياسية لبلاده ، ويقال إن العلماء فكروا فى اغتيال إسماعيل ، فاقترح السيد جمال الدين على الأستاذ الإمام بقتله(٢) .

وهذا يدل على أنه كان موضع ثقته ، ولما عزل إسماعيل وتولى توفيق خشى من آراء الحكيم السياسية، واستمع إلى وشايات مندوبى الدول الأجنبية. فأمر بنفى جمال الدين وإقالة محمد عبده من المدارس التى كان يعمل فيها والتنبيه عليه بالاعتكاف فى قريته « محلة نصر » وعدم تركها أو الرحيل عنها

---

(١) راجع مذكرات الأستاذ الإمام : تاريخ ، ج ١ ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ ، الشيخ مصطفى عبد الرازق : مقدمة العروة الوثقى ، ص ٢٣ .

Osman Amin : Muhammad Abduh, p. 7.

(٢) بلنت : التاريخ السرى لاحتلال إنجلترا مصر ، ص ٣٥٤ .

حتى يؤذن له. وهكذا كان مصيرهما مرتبطاً، فكان حقاً « صديقاً للسيد في السراء والضراء »(١) .

وحينما فكر السيد جمال الدين فى الذهاب إلى باريس أرسل لتلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده ليوافيه بها ، وأصدرا معاً جريدة العروة الوثقى ، وكانت الفكرة فيها للحكيم الأفغانى ، والأسلوب للأستاذ الإمام .

ولما قامت الثورة المهدية سافر الإمام إلى لندن فى أواخر يوليو من عام ١٨٨٤ ، بناء على رغبة جمال الدين لإقناع الإنجليز بترك حكومة مصر والسودان لأهل البلاد ، وقابل عدداً من النواب كما قابل اللورد هرتنجتون وزير الحربية الإنجليزية ودارت بينهما محادثات طويلة نشرتها مجلة العروة الوثقى(٢) .

ولما توقفت جريدة العروة الوثقى عن الصدور ، افترق الصديقان ولم يعد الاتصال بينهما قوياً ، فاتجه جمال الدين إلى إصلاحه السياسى ، بينما اتجه الشيخ محمد عبده إلى التدريس والكتابة ، فعين مدرساً فى المدرسة السلطانية ببيروت ، وألف رسالة التوحيد وعرّب « رسالة الرد على الدهريين » التى كتبها السيد جمال الدين باللغة الفارسية ، وشرح « نهج البلاغة ومقامات بديع الزمان الهمذانى ونشر فى الجرائد مقالات عديدة » .

ولما عاد إلى مصر عين قاضياً أهلياً ثم عضواً فى مجلس إدارة الأزهر ثم مفتياً للديار المصرية . .

بذلك نكون قد عرضنا للأثر الذى أحدثه جمال الدين فى حياة الشيخ محمد عبده ، ولنبين بعد ذلك أثره فى آرائه وفى مذهبه الإصلاحى .

❋ ❋ ❋

(١) يشير المخزومى فى كتابه إلى أن السيد جمال الدين أخبر السيد عبد الله النديم بأن محمد عبده « صديقه فى السراء والضراء » الكتاب ص ٢٤٩ .

(٢) مجلة العروة الوثقى : ص ٤٧٥ ، ٤٧٦ .

قال الشيخ محمد عبده مبيناً رأيه فى الإصلاح :

« ارتفع صوتى بالدعوة إلى أمرين عظيمين :

الأول : تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى . وأما الأمر الثانى فهو إصلاح أسلوب اللغة العربية فى التحرير . وهناك أمر كنت من دعاته والناس جميعاً فى عمى عنه ، ذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة . . جهرنا بهذا القول والاستبداد فى عنفوانه والظلم قابض على صولجانه ، ويد الظالم من حديد ، والناس كلهم له عبيد أى عبيد» (١) .

بهذه الكلمات حدد الشيخ محمد عبده رسالته فى الإصلاح بأغراض ثلاثة :

الأول : التجديد فى الدين .

الثانى : الإصلاح الأدبى « اللغوى » .

الثالث : الإصلاح السياسى .

أما الإصلاح الدينى فقد تأثر بأستاذه جمال الدين فى دعوته إلى تحرير الفكر من قيد التقليد، إلا أنه وجه اهتمامه إلى الناحية الدينية أكثر من السيد جمال الدين .

ولذا يقول السيد رشيد رضا :

« بيد أن كلا منهما حكيم عاقل ، وأن السيد جمال الدين رجل دين وإن غلبت عليه السياسة ، والشيخ محمد عبده رجل سياسة وإن غلب عليه الدين ، بل هو أقرب من أستاذه إلى الموقف الوسط بين رجال الدين والدنيا من المرتقين فيهما »(٢) .

وكانت وسائل الشيخ محمد عبده إلى الإصلاح الدينى متعددة ، فقد

---

(١) الشيخ محمد عبده : راجع مذكراته التى كتبها فى تاريخ الأستاذ الإمام، جـ ١ ، ص ١١

(٢) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، جـ ١ ، ص : (ن) .

أدرك أن المسلمين انقسموا شيعاً وأحزاباً . . لكل شيعة رأى فى الدين ، ومذهب فى العمل ، وهذه الآراء المتعددة المتنافرة قد يصعب فهمها على الكثيرين — وخاصة غير المتعلمين . —

لذلك طالب بالرجوع إلى أصل العقيدة ، وتطهير الدين من الشوائب التى لحقت به ، ودراسة العلوم الحديثة ، فليس فى روح المدنية الحديثة ما يناقض الإسلام الصحيح إذا أحسن فهمه وأحسن بيانه ، كما طالب بنشر التعليم بين العامة . . وعنى بتفسير القرآن تفسيراً يلائم بين العقل والدين ، والفكر والعقيدة ، واتجه إلى بيان ما فى القرآن من هداية على الوجه الذى يتفق مع الآيات الكريمة . . ثم حاول التوفيق بين ما جاء فى الدين وبين الأفكار الحديثة .

فلما شاعت نظرية «دارون» فى التطور ، ووقف العلماء حيالها عاجزين مترددين ، فسرها الشيخ محمد عبده بما يوافق الدين إذ قالت الآية الكريمة **« وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال إنى أعلم ما لا تعلمون »**(١). وأشار الشيخ محمد عبده إلى أن الإنسان هو خليفة الحيوان . . وساير نظرية التطور » .

ولما شاعت نظرية «باستير» فى انتشار الجراثيم وسرعة انتقالها وفتكها قال الشيخ محمد عبده :

لقد ذكرها الإسلام فى قوله تعالى : **«ألم يجعل كيدهم فى تضليل. وأرسل عليهم طيراً أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل »** (٢) وشبه الطير الأبابيل بالجراثيم ووافق على نظرية « باستير » (٣) .

ثم إنه دافع عن الإسلام دفاعاً مجيداً ، وتصدى لأقوال الأوروبيين وكتاباتهم ، وناقشها مناقشة علمية .

وبالرجوع إلى محاوراته مع «هانوتو»(٤) و«هربرت سبنسر» ودفاعه عن

(١) البقرة : ٣٠ (٢) الفيل : ٢ — ٤

(٣) بايرد دودج : الإسلام فى نظر الغرب ، ص ٢٥ ، ٢٦ .

(٤) محمد عبده : الإسلام والرد على منتقديه : المطبعة الرحمانية ، ١٩٢٨ .

الإسلام فى كتابيه « الإسلام والنصرانية » و « الإسلام والرد على منتقديه » ، يتبين لنا مدى ما أداه للإسلام من خدمات .

فهو يدافع عن الإسلام والحرية ويتحدث عن فضل الإسلام على المدنية الغربية(١) ، واعتماد الدين على العقل ، فإذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل(٢) ، كما أن الدين يجمع بين مصالح الدنيا والآخرة فلم يقل « بع ما تملك واتبعنى » ولكن قال لمن استشاره فيما يتصدق به من ماله : «إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس»(٣).

« والمسلمون مسوقون بنابل من دينهم إلى طلب من يكسبهم الرفعة والسؤدد والعزة والمجد ولا يرضيهم من ذلك ما دون الغاية ولا يتوفر شىء من وسائل ذلك إلا بالعلم — فهم محفوزون أشد الحفز إلى طلب العلم وتلمسه فى كل مكان وتلقيه من أية شفة وأى لسان(٤) .

والإسلام جاء لصلاح الدين والدنيا معاً ، ويحض على الكسب والعمل ويردع عن الخمول والكسل(٥) .

وقد ذكرنا من قبل أن الشيخ محمد عبده اتبع سياسة السيد جمال الدين فى الرد على الأوروبيين إلا أننا نقرر أنه فاقه فى هذه الناحية لتفرغه لمسائل الدين .

ومن بين الإصلاحات التى قام بها محاولته إصلاح الأزهر وإدخال العلوم العصرية إلا أنه لقى كثيراً من الأذى ، فاحتمل كل ذلك حتى ألجىء إلى الاستقالة من مجلس الإدارة « وكانت المعارضة التى لقيها من جانب شيوخ الأزهر المحافظين الذين نشروا المقالات فى استهجان إدخال علم تقويم البلدان (الجغرافيا) بين العلوم التى يتلقاها طلبة الأزهر وقالوا إنه بإدخاله هذا العلم وغيره إنما يريد الغض من علوم الدين» (٦) .

(١) محمد عبده : الإسلام والرد على منتقديه ، ص ٣٢ .
(٢) محمد عبده : الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ، ص ٧٣ .
(٣) الشيخ محمد عبده : الإسلام والنصرانية ، ص ٩٩ .
(٤) الشيخ محمد عبده : الإسلام والنصرانية ، ص ١٠٦ .
(٥) الشيخ محمد عبده : الإسلام والرد على منتقديه ص ١٢٦ .
(٦) الشيخ محمد عبده : الإسلام والنصرانية ص ١٣٧ .

وقد تمكن الشيخ محمد عبده من القيام بكثير من الإصلاحات الإدارية والصحية والخلقية ، وأدخل العلوم الحديثة فى الدراسة ، وكان يقول لتلميذه الشيخ مصطفى عبد الرازق :

« يظنون أننى بخروجى من الأزهر تركته مرعى خصيباً لشهواتهم ترتع حيث تشاء إلا أننى ألقيت بين جوانب هذا المكان شعلة لا تنطفىء إن لم تلتهب اليوم أو غداً فستلتهب فى ثلاثين عاماً ، وستكون ضراماً »(١) .

وقد تحققت نبوءة الشيخ محمد عبده ، فكان لآرائه وأعماله أكبر الأثر فى إصلاح الأزهر ، كما ظهرت مدرسة تجديدية تأخذ بتعاليمه ، ولذا يقول « آدمـــز » :

« وقد لا نعدو الحق إذا قررنا أن المدرسة الحديثة مدينة فى وجودها إلى الأستاذ الإمام ، وأنها فى كثير من الأمور الجوهرية مشتقة منه وصادرة عنـــه »(٢) .

ومن الناحية الأدبية : فقد ظهرت ميول الشيخ محمد عبده الأدبية منذ كان طالباً فى الأزهر ، فكتب عدة مقالات فى جريدة الأهرام ، ولخص بعض محاضرات أستاذه فى جريدة مصر(٣) ، وظل يكتب فى الصحف حتى أواخر أيام حياته ...

ونحن إذ ننظر فى مقالات الأستاذ الإمام نرى أنها مرت فى أربع مراحل :

أولاها : ما كتبه فى عهد طلب العلم بالأزهر وذلك بإرشاد السيد جمال الدين .

والثانية : ما كتبه فى جريدة الوقائع المصرية حينما أصبح رئيساً لقلم التحرير فى الجريدة .

والثالثة : ما كتبه فى جريدة العروة الوثقى بالاشتراك مع السيد جمال الدين .

---

(١) السياسة : ٢٩ أغسطس ١٩٢٣ عن مقال فى مجلة الهلال ، عدد يناير ، السنة ١٩٥٥ ، ص ٨٢ .

(٢) آدمز : الإسلام والتجديد فى مصر ، ص ٢٦٢ .

(٣) جريدة مصر : العدد ٤٨ ، بتاريخ ٥ يونيو ١٨٧٩ .

والرابعة : مانشره فى مختلف الصحف السورية والمصرية بعد عودته من المنفى :

وفى المرحلة الأولى، كانت معظم المعانى التى عبر عنها فى كتاباته مقتبسة من آراء السيد جمال الدين، ولم تكن تخرج عن الناحية العلمية، فهو يوضح للناس فوائد الصحف وقيمة العلوم الحديثة ويسخر من عدم اهتمام الأزهر بالعلوم العقلية كالمنطق والفلسفة . . وكان يهتم فى مقالاته بالزخارف اللفظية والمحسنات البديعية ، إلا أن اتصاله بالسيد جمال الدين جعله يهتم بقوة المعنى ، وقيمة الموضوع أكثر من اهتمامه بزخرف اللفظ ، ورونق الأسلوب.

وفى المرحلة الثانية : كتب كثيراً فى المقالات الاجتماعية ، وتحدث عن الجمعيات الخيرية(١) والفلاح(٢) ، وحاجة الإنسان إلى الزواج(٣) ، وحكم الشريعة فى تعدد الزوجات(٤) . . فلما قامت الثورة العرابية اتجه إلى الناحية السياسية، ومن مقالاته فى هذه الفترة « اختلاف القوانين باختلاف الأمم »(٥) ، الحياة السياسية(٦) والشورى(٧) والشورى والقانون »(٨) .

ويلاحظ أن الشيخ محمد عبده عدل — فى ذلك الحين — عن السجع ، وبعد عن الألفاظ الغريبة التى كان يأتى بها فى ثنايا مقالاته .

أما فى المرحلة الثالثة ، فقد بدا أثر جمال الدين واضحاً ، إذ اشتركا معاً فى تحرير جريدة العروة الوثقى ، فالمعانى للسيد جمال الدين والأسلوب للشيخ محمد عبده . . وقد بلغ أسلوب الأستاذ الإمام فى هذه المرحلة غايته إذ كان يصدر عن عاطفة قوية منفسحة تسع العالم الإسلامى بأكمله ومتأثرة بعاطفة جمال الدين القوية الجياشة .

---

(١) راجع مقالة : حكومتنا والجمعيات الخيرية فى تاريخ الأستاذ الإمام ج ٢ ، ص ٤٩–٥٢.

(٢) راجع مقالة : حب الفقراء أو سفه الفلاح ، تاريخ الأستاذ الإمام ج ٢ ص ٥٦– ٥٩ .

(٣) راجع مقالة : حاجة الإنسان إلى الزواج ، تاريخ الأستاذ الإمام ص ١٠٩ — ١١٣ .

(٤) راجع مقالة : حكم الشريعة فى تعدد الزوجات، تاريخ الأستاذ الإمام ص ١١٣ — ١١٩.

(٥) راجع مقالة : اختلاف القوانين باختلاف الأمم، تاريخ الأستاذ الإمام ص ١٥٧ — ١٦٤.

(٦) راجع مقالة : الحياة السياسية ، تاريخ الأستاذ الإمام ص ١٩٤ — ١٩٧ .

(٧) راجع مقالة : الشورى ، تاريخ الأستاذ الإمام ص ١٩٧ — ٢٠٠ .

(٨) راجع مقالة : الشورى والقانون ، تاريخ الأستاذ الإمام ص ٢٠٠ — ٢٠٥ .

وفى المرحلة الرابعة ، بعد الشيخ محمد عبده عن أستاذه فعاد إلى طبيعته الأولى . . فكان أسلوبه هادئاً ، وعاطفته متزنة كما استطاع الشيخ محمد عبده أن يكون مدرسة أدبية من أبناء عصره ، وأخص ما تمتاز به قوة الأسلوب ، وجلال المعنى . . وكانت مدرسته هذه متأثرة إلى حد كبير بآراء جمال الدين وأسلوبه فى الكتابة » .

* * *

أما من الناحية السياسية : فقد اتفق مع أستاذه فى نواح ، واختلف عنه فى نواح أخرى .

كان جمال الدين يدعو إلى الجامعة الإسلامية تحت زعامة دولة قوية فتأثر الشيخ محمد عبده بآرائه ورأى أن يكون لواء الإسلام للأتراك وبالغ فى ذلك حتى قال :

« إن المحافظة على الدولة العثمانية ثالثة العقائد بعد الإيمان بالله ورسوله ، فإنها وحدها الحافظة لسلطان الدين ، الكافلة ببقاء حوزته »(١) .

وكان جمال الدين يدعو إلى مقاومة الحكم المطلق والمطالبة بالحكم الدستورى ، فكتب الأستاذ الإمام عن الشورى والحياة النيابية ، وكان يؤمن بأن الإصلاح لا يفيض عن كرم الملوك والأمراء وإنما يحصل عليه الشعب إذا صدمت رغبته ، وقويت إرادته ، وحصل على درجة من الثقافة والمعرفة تمكنه من تحقيق غايته . .

فيقول : « إن المعهود فى سير الأمم ، وسنن الاجتماع ، أن القيام على الحكومات الاستبدادية وتقييد سلطتها وإلزامها الشورى والمساواة بين الرعية إنما يكون من الطبقات الدنيا والوسطى ، إذا فشى فيهم التعليم الصحيح والتربية النافعة ، وصار لهم رأى عام »(٢) .

---

(١) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، جـ ٢ ، ص ٢٣٩ .
(٢) راجع مقال : الشورى والقانون ، تاريخ الأستاذ الإمام جـ ٢ ، ص ٢٠٣ .

واختلف الشيخ محمد عبده عن أستاذه فى وسائل الإصلاح فهو ممن يؤمنون بالتدرج فى الإصلاح السياسى ، وممن يؤثرون اللين ومسايرة الواقع من الأمور .

أما السيد جمال الدين فيؤمن بالثورة ، ومن ثم كان الشيخ لا ينشط نشاطاً سياسياً عظيماً إلا إذا اتصل بأستاذه ، فإذا بعد عنه عاد إلى هدوئه وسكونه،واتجه إلى الإصلاح الدينى والأدبى ، وهذا يفسر لنا موقفه من الثورة العرابية وحركة مصطفى كامل .

فلم يكن الشيخ محمد عبده من أنصار الثورة حين شبوبها ، وكانت آراؤه مخالفة كل المخالفة لآراء عرابى - كما قال المستر «برودلى» -محامى العرابيين(١) . وكان يرى أن أعمال العرابيين غير مشروعة لأن تصدى رجال الجيش للحكم فى البلاد ، وفرض إرادتهم على ممثل السلطة الشرعى قلب للنظام ، وإثارة للفوضى ، وإفساد للقانون .

ذكر السيد محمد رشيد رضا فى هذا الصدد حديثاً له مع العرابيين فى إبان الثورة جادل فيه عرابى فى رأيه ، وكان مما احتج به عليه أن الأمة لو كانت مستعدة لمشاركة الحكومة فى إدارة شئونها لما كان لطلب ذلك بالقوة العسكرية معنى . . وأنه يخشى أن يجر هذا الشعب على البلاد احتلالا أجنبياً يسجل على مسببيه اللعنة إلى يوم القيامة »(٢) .

وقد أصبح من زعماء الثورة فى مرحلتها الأخيرة ، فكتب المقالات الوطنية داعياً إلى التطوع فى صفوف الجيش المدافع عن مصر . وإمداده بالإعانات والتبرعات « كما حوكم ضمن من حوكموا من زعماء الثورة » .

وبعد أن عاد الشيخ محمد عبده من منفاه أراد مسالمة الإنجليز،فحدث عداء بينه وبين مصطفى كامل كان مصدره الخلاف بين الرجلين فى وجهة النظر السياسية . . فمصطفى كامل يرى أن الإصلاح السياسى والاجتماعى

---

(١) دفاع المستر برودلى : تاريخ الأستاذ الإمام ، جـ ١ ص ٢٢٧ .
(٢) راجع حديث الشيخ محمد عبده : تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ، ص ١٤٧ ، ٢١٧ .

لا يبدأ إلا بزوال الاحتلال . . أما الشيخ محمد عبده فيرى أن يتجه الشعب أولا إلى الاصلاح الاجتماعي والسياسي ليكون ذلك وسيلة لمقاومة الاحتلال . . وكان الشيخ محمد عبده كأستاذه يدعو إلى القومية المصرية ولكن كانت تغلب عليه صفة المصلح الديني .

ولذا يمكن اعتباره خليفة جمال الدين فى دعوته الدينية ، إذ أكمل البناء الذى بدأه جمال الدين واستطاع أن يوقظ الشعور الديني ، ويشعر المسلمين بضرورة الإصلاح .

* * *

٢ — يعقوب بن صنوع
« أبو نظارة »
(١٨٣٩ — ١٩١٢ م)

كان يعقوب بن صنوع أديباً شاعراً ، وصحفياً ساخراً ، وإمام الصحافة الفكاهية فى عهد الخديو إسماعيل وابنه توفيق .

ولد فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ومات فى الربع الأول من القرن العشرين بعد أن عاش حياة طويلة حافلة ، اشتغل خلالها بالتمثيل وانتقل إلى الصحافة ، فأصدر جرائده « أبو نظارة ، وأبو صفارة ، والحاوى » كما أصدر فى باريس اثنتى عشرة جريدة ، لكل منها خطة وهدف ورسالة .

أبى صنوع أن يبيع ضميره ، ويسخر قلمه ، ويمشى فى ركاب الحكام ، وفضل حياة المنفى والاغتراب ، يكافح الظلم ، ويقاوم الطغاة بأسلوبه الساخر وروحه المرحة .

ولد من أبوين يهوديين ، ووهبه والداه للإسلام(١) ، وأتقن التوراة ، وقرأ الإنجيل ، وحفظ القرآن . وعاهد والدته على أن يوفى نذرها فيجند نفسه لخدمة الإسلام والمسلمين . . ولذلك يقول فى مذكراته :

« كان مكتوباً على أن أعيش لأؤدى رسالة مقدسة ألا وهى مكافحة الأباطيل التى تفرق بين المسلمين والمسيحيين ، بإظهار سماحة القرآن وحكمة الإنجيل ، وهكذا تسنى لى الملاءمة بين قلوب الفريقين »(٢) .

اشتغل فى أول أمره بالتمثيل ، وأنشأ مسرحاً وطنياً تعرض على خشبته تمثيليات عربية ، واستطاع خلال عامين من ١٨٦٩ — ١٨٧١ أن يعرض اثنتين وثلاثين تمثيلية من تأليفه إلى جانب كثير من التمثيليات التى ترجمت

---

(١) راجع هذه القصة فى كتاب الدكتور إبراهيم عبده : أبو نظارة ، مكتبة الآداب ، ١٩٥٣ ، ص ١٨ .

(٢) إبراهيم عبده : أبو نظارة ، مكتبة الآداب ، ١٩٥٣ ، ص ١٨

عن الفرنسية . . وفى ذلك الحين وفد السيد جمال الدين إلى مصر ، وكان يرحب بالممثلين والصحفيين إذ كانت هاتان الفئتان فى مقدمة من استعان بهم على إشاعة ما يرجوه لمصر من تقدم ورقى ، «وكانت ندوات الأدب والفن تستيقظ فى بيته منذ الصباح الباكر وكان يؤثر جماعة خاصة من أهل الفن والأدب بالحب والعطف والتقدير من بينهم يعقوب بن صنوع »(١) .

ولما اتجه جمال الدين إلى السياسة ، أوعز إلى تلامذته بالكتابة فى الصحف ، وإنشاء الجرائد . . ويقال إن السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده اتفقا مع يعقوب على إنشاء جريدة عربية هزلية لانتقاد أعمال الخديو إسماعيل ، ثم قر رأيهم على أن يتولى يعقوب إدارتها ويشتركا معه فى التحرير ، وطلبا منه أن يفكر فى عنوان للجريدة يليق بمسلكها، فخرج يعقوب إلى بيته باحثاً عن حمار يركبه فإذا بالفلاحين أصحاب الحمير قد تجمعوا حوله ، وأراد كل منهم أن يركبه حماره، فلما زاحموه أحب التخلص منهم وإذا بصوت من ورائه يناديه « يا أبا النظارة الزرقاء» ، وكان وقتئذ يستعمل النظارات الزرقاء وقاية لعينيه من حرارة الشمس ، فرن هذا الصوت فى أذنيه ، واستحسن عبارة « أبى النظارة الزرقاء » وصمم على اتخاذها عنواناً للجريدة الهزلية ، فإن أبا نظارة تومىء إلى أنه رجل يرى من بعيد،وفى ذلك ما يعنى أنه رجل ملهم لا يفوته شىء ، فرجع إلى السيد جمال الدين وأخبره بما حدث ، فضحك من كلامه وأعجب باسم الجريدة(٢) .

وحينما صدرت الجريدة ، ضمنها يعقوب آراءه السياسية والاجتماعية ، وصور مدى الظلم والعبث بحياة الأفراد والجماعات فى عهد إسماعيل ،

(١) السابق المرجع : ص ١٤ .
(٢) راجع هذه القصة فى : فيليب دى طرازى : تاريخ الصحافة العربية ، جـ ٢ ، ص ٢٦٢ .
عمر الدسوقى : فى الأدب الحديث ، جـ ١ ، دار البيان العربى ، ١٩٥١ .
إبراهيم عبده : أبو نظارة ، ص ٤١ .

فكانت لساناً يعبر عن عواطف المصريين ، ويقص مآسى العهد بطريقة قريبة التناول ، سريعة الفهم ، ولا عجب فى ذلك فقد صدرت بإيحاء من السيد جمال الدين ، وكانت أفكارها بإيحاء منه .

ولما ضاق إسماعيل بسياسة الجريدة ، عطلها وطرد صاحبها من مصر ، فرحل إلى باريس سنة ١٨٧٨م ، ولم يكف عن الكتابة والتحرير فأصدر عدداً كبيراً من الصحف . وكان السيد جمال الدين يعاونه وهو فى باريس كما كان يعاونه وهو فى مصر . . وقد ذكر يعقوب بن صنوع فى أحد أعداد جريدته أن تقريراً وضع للخديوى جاء فيه :

« يا أفندم . . قفشنا بياع أبو نظارة ، ووجدنا فى جيبه جواب له من خواجته ، وفيه خطين لجمال الدين ، فبعتنا ندهنا للفيلسوف ، ووريناه الجواب ، فقال إن يعقوب أعز أحبابه ، إنما حلف أنه منذ سفره إلى باريس لا كتب له ولا ورد منه كتاب قط ، وهو لا ينكر أنه كتب مقالتين فى النضارة القديمة »(١) .

وحينما انتقل السيد جمال الدين إلى باريس ، بدأ يساعد يعقوب فى التحرير ، فكتب لصحيفته مقالا نشر فى صدر أحد أعدادها بعنوان « الشرق والشرقيين »(٢) ، وقد استغرق مقاله العدد كله بصفحاته الأربع ، وقد استطاعت جرائد يعقوب بن صنوع أن تعبر تعبيراً صادقاً عن الروح التى كانت سائدة فى مصر — فى ذلك الوقت — وكان لها أثر كبير فى معارضة إسماعيل وتوفيق ورياض وغيرهم من أصحاب الشأن .

وكما كان السيد جمال الدين يطالب بعزل إسماعيل ، كان يعقوب يطالب المصريين بتأييد عرابى ، وعزل توفيق ورياض ومن قوله :

« إن ما خلصتوا من الواد — يقصد الخديو توفيق — ورياض ياجدعان ، أحلف بحب الوطن والحرية ، وشجاعة التلامذة والجهادية بأنى أمزع الجرنال ، وأكسر النضارة ، وأبيع خرج الزمارة والصفارة ، بقى فوقوا

(١) العدد الرابع عشر من أبو نظارة زرقا » ، السنة الأولى ، ص ٤ .
(٢) العدد الثانى من أبو نظارة زرقا ، السنة السابعة .

يا أولادى من غفلتكم ، ووروني أمال شطارتكم — إنما يكون الأمر عن قريب »(١) .

وكان يحمل توفيق مسئولية الاحتلال الإنجليزى لمصر فيقول(٢) :

ياداوى الدهر حدث عن أبى العجب — واندب زمان التصافى يا أخا العرب
ما بين جهل وحقد ضاع سؤددنا — واستأصلتنا يد الأرزاء والكرب
هذا العزيز تخلى عن سيادتـــــه — للإنجليز ولم يقبض سوى الكذب

بهذا نرى أن يعقوب بن صنوع ، كان أحد أعلام الصحافة الممتازين ، وأحد تلامذة جمال الدين البارزين الذين خدموا الصحافة ، وكتبوا فى السياسة وحملوا لواء المعارضة ضد الاستبداد الداخلى والحكم الأجنبى .

* * *

(١) الحادى : فى ٢٥ مارس سنة ١٨٨١ عن « أبو نظارة » ، ص ١٣٦ .
(٢) إبراهيم عبده : أبو نظارة ، ص ١٥٣ .

٣ — أديب إسحق
(١٨٥٦ — ١٨٨٥ م)

كان أديب إسحق شاعراً ناثراً ، وسياسياً حراً ، وزعيما من زعماء المدرسة الصحفية الثانية فى مصر . . وهو من أكبر الذين تأثروا بتعاليم السيد جمال الدين الأفغانى ، ومن أعظم الذين أفادوا بآرائه فى الإصلاح ، ولا غرو فى ذلك فأديب إسحق من خاصة تلاميذ السيد جمال الدين ، وأكثرهم اتصالا به وكان على حد قوله : « من محبيه ومريديه »(١) .

ولد أديب إسحق فى دمشق ، ونشأ فى لبنان وتعلم اللغة العربية والفرنسية فى مدرسة « الآباء العازاريين » وظهرت موهبته الأدبية فى صغره ، فتعلق بالشعر ، ونظم القصائد قبل أن يتجاوز العاشرة من عمره .

وقيل إن أسرته تعرضت بعد ذلك للتعطل ، واحتاجت يومئذ إلى معونته ، فغادر المدرسة ، والتحق وهو فى الحادية عشرة من عمره بوظيفة فى إدارة الجمرك براتب قدره مائتا قرش « ولم يكن هذا العمل الذى اشتغل به ليشغله عن صوغ الشعر ، وعمل الموشحات ونحو ذلك من الجهود الأدبية التى كان يملأ بها وقت فراغه »(٢) .

انتقل والده بعد ذلك إلى بيروت ، فانضم إليه أديب إسحق فى خدمة البريد وهناك تعرف بطائفة من رجال الأدب ثم عافت نفسه الوظيفة ، ونزعت إلى الاشتغال بفن الكتابة ،فتولى تحرير جريدة التقدم وهو فى السابعة عشرة ، فملأها بكثير من الفصول الأدبية ، واشتغل إلى جانب عمله الصحفى بترجمة المسرحيات عن اللغة الفرنسية ، ومنذ ذلك الحين أخذ نجمه الأدبى فى التألق والظهور .

---

(١) أديب إسحق فى ترجمته لجمال الدين : تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ١ ، ص ٤١ .
(٢) عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية ، ج ٢ ، ص ١٠ .

وسافر «أديب» سنة ١٨٧٦ إلى الإسكندرية ، واشترك مع « سليم النقاش » فى التمثيل ، وكان نشاطه فى هذا الفن ملحوظاً إذ أمد المسرح بالروايات تأليفاً وتعريباً . . وفى ذلك الوقت سمع بالنشاط الذى ملأ به جمال الدين جو القاهرة . فاتصل به أديب إسحق ، وحضر كثيراً من دروسه فى المنطق والفلسفة ، وتتلمذ عليه ، وقرأ فى رحابه كثيراً من الكتب ، وتوثقت الصلات بينهما ، حتى أصبح من خاصة تلامذته .

ومن ذلك الحين استطاع جمال الدين أن يؤثر فى حياة أديب إسحق ونشاطه تأثيراً واضحاً ، وقد ظهر أثره فى النواحى الآتية :

أولا : اقترح عليه جمال الدين أن يصدر جريدة عربية، **فأعجبته الفكرة** وأصدر جريدة « مصر » فى ٣٠ يوليه سنة ١٨٧٧م ، وساعده جمال الدين فى تأسيس مطبعة لها ، وهيأ له فيها حروفاً من حروف المطبعة الأميرية(١) ، وأقبل الناس على هذه الجريدة ، ومالوا إليها ، وبقيت إدارة الجريدة قائمة بالقاهرة حتى أشار عليه جمال الدين أن ينقل إدارتها إلى الإسكندرية ، وشاركه فى تحريرها يومئذ صديقه « سليم النقاش » واستطاع جمال الدين أن يحصل لهما على امتياز آخر لصحيفة يومية عرفت باسم « التجارة » وطلب من الشيخ محمد عبده وإبراهيم اللقانى أن يشتركا فى تحرير هذه الجريدة .

وقد تجلت فى هاتين الجريدتين تعاليم جمال الدين وروحه وكانت له فيهما بعض المقالات والرسائل ، يكتبها هو أو يمليها على تلاميذه ، كما كانت تنشر خطبه التى يلقيها فى مختلف المناسبات .

وكان أديب إسحق يقدم مقالاته بمختلف الأساليب والعبارات التى تدل على عمق تقديره للسيد جمال الدين ، فهو يقول فى تقديم خطبته التى ألقاها بمدينة الإسكندرية :

---

(١) إبراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية ، ص ٩٧ .

(٢) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ١ ، ص ٤٥ .

« وفد على الإسكندرية سيدنا فهرست الكمال ، وفذلكة حساب الجلال ، أستاذنا الأجل الفيلسوف الأكبر « السيد جمال الدين الأفغانى » فابتسم له الثغر عن درر الهناء به ، وغرر الثناء عليه »(١) .

وقـــوله :

« لسيدنا آية العصر ، وسر حكمة الدهر ، ودرة تاج الحكماء ، وواسطة عقد البلغاء ، من لا تستوعب وصفه الأقلام ، أستاذنا الأكبر والفيلسوف الأشهر السيد جمال الدين الأفغانى أعزه الله »(٢) .

ثانياً: تأثر أديب إسحق بآراء جمال الدين فى مقاومة الحكم المطلق، ولذلك كانت جريدتاه من أقوى صحف المعارضة فى عهد إسماعيل ، وكانتا تنشران أعنف الأحاديث عن الظلم والظالمين ، وحكم الفرد وآثاره ، كما حمل على الأجانب ، ووجه نقده إلى نظام المراقبة الثنائية ، فأنذرته الحكومة ، إلا أنه أصر على موقفه مما دعاها إلى تعطيل الجريدتين ، وقالت الحكومة فى قرار التعطيل :

« حيث سبق صدور الإنذارات مراراً عديدة ، وتنبيهات شفاهية من إدارة الموضوعات إلى أصحاب امتياز الجرائد الأهلية عموماً وإلى صاحب امتياز جريدة مصر والتجارة خصوصاً بعدم خروجهم عن حدود وظائفهم ، ولا ينشرون ما يوجب تشويش الأفكار ، وحيث أن ما اعتادت على نشره هاتان الجريدتان ضرره أكثر من نفعه اقتضى الحال صدور الأمر من إدارة المطبوعات بإلغائها مؤبداً »(٣) .

ولما ألغيت الجريدتان ، فكر الحزب الوطنى — الذى أنشأه جمال الدين —

---

(١) جريدة مصر : العدد ٤٧ ، بتاريخ ٢٤ مايو ١٧٨٩ . . . راجع مقالات لم تنشر .
(٢) جريدة مصر : العدد ٢٠ ، بتاريخ ١٥ نوفبر ١٨٧٨ .
(٣) جريدة الوطن : العدد الصادر بتاريخ ٢٢ نوفبر ١٨٧٩ ، عن « تطور الصحافة » ص ١٠٧ .

فى أن يرسل أديب إسحق على نفقته إلى باريس ليصدر هناك جريدة مصر القاهرة .

فواصل أديب إسحق نشاطه ، معارضاً حكومة رياض ، ومطالباً المصريين بمقاومة الحكم الاستبدادى .

ثالثاً: كان أسلوبه متأثراً بأسلوب السيد جمال الدين ، وكانا يتفقان معاً فى قوة الأداء وذلك راجع إلى سرعة الانفعال عند الحكيم وتلميذه ، إلا أن أديب إسحق كان يصرف جهده إلى تهذيب عبارته ، وانتقاء ألفاظه أكثر من أستاذه جمال الدين .

رابعاً : كانت مقالاته وآراؤه تسير فى نفس الاتجاه الذى رسمه جمال الدين ، فمن قوله فى مقال : حرية الأفكار «أنه يستمد جميع ذلك من بحر معارف أستاذنا الكبير والفيلسوف الشهير ، درة تاج الحكماء ، وواسطة عقد العلماء الفضلاء السيد جمال الدين الأفغانى »(١) .

وكما كان جمال الدين يدعو إلى جامعة إسلامية تقوى الروابط بين البلاد الإسلامية ، كان أديب إسحق يمزج بين القومية المصرية ، والقومية العربية ، ويدعو إلى تقوية الدولة العثمانية ، والعمل على توحيد الشعوب التى تتألف منها . . فمن كلماته فى مقال « دولة العرب » :

« ما ضرر زعماء هذه الأمة لو سارت بينهم الرسائل بتعيين الوسائل ، ثم حشدوا إلى مكان يتذاكرون فيه ويتحاورون ، ثم ينادون بأصوات متفقة المقاصد ، كأنها من فم واحد ، فنحن فى الوطن إخوان ، تجمعنا جامعة اللسان ، فكلنا وإن تعدد الفرد إنسان »(٢) .

* * *

---

(١) عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية ، جـ ٢ ، ص ٣٣ .
(٢) مارون عبود : أديب إسحق ، (مجلة الكتاب ، فبراير ١٩٤٨) ، ص ٢٧٤ .

وهكذا كان لجمال الدين أثر كبير فى حياة أديب إسحق وآرائه السياسية والاجتماعية ، ولذا كان جمال الدين يؤثره بمودته ، فلما مات رثاه السيد جمال الدين بقوله :

« غالت نائبة الدهر ، طراز العرب ، وزهرة الأدب ، صفينا أديب أفندى إسحق ، قضى نحبه فى شرخ الشبوبية ، وعنفوان الفتوة ، وترك لنا قلوباً آسفة ، وشئوناً فائضة ، إنا لله وإنا إليه راجعون »(١) .

* * *

(١) جمال الدين الأفغانى : العروة الوثقى ، ص ٢٦٤ .

٤ — السيد عبد الله نديم
(١٨٤٥ — ١٨٩٦ م)

كان السيد عبد الله النديم أديباً جريئاً ذائع الصيت، وخطيباً طلق اللسان ، وصحفياً يملك ناصية البيان ، وأخذ عن العلماء، وجالس الأدباء ، وخالط الأمراء ، وداخل الحكام ، وعاشر أعيان البلاد ، وامتزج بمختلف طبقات الشعب ، فأصبح بذلك زعيما شعبياً وأديباً اجتماعياً .

يقول عنه جمال الدين :

« ما رأيت مثل النديم طول حياتى فى توقد ذهنه ، وصفاء قريحته ، وشدة عارضته ، ووضوح دليله ، ووضعه الألفاظ وضعاً محكماً بإزاء معانيها إن خطب أو كتب » (١) .

❋ ❋ ❋

نشأ نشأة فقيرة ، فلم يكن أهله على يسار ، حفظ القرآن ولم يصبر على الدرس والتحصيل ، فترك المدرسة ، وخالط الناس ، وغشى مجالس الأدب ، فتعلم من الناس أكثر مما تعلم من الكتاب ، ثم أخذ يكتب الشعر والزجل وكانت كتاباته لا تخلو من روح المرح والاستخفاف ، واضطر بعد ذلك إلى العمل ، فالتحق بمكتب تلغراف بمدينة بنها ، ونقل إلى القاهرة، فعاوده شوقه إلى الأدب ومجالسة الأدباء ، فكان يغشى مجالس الأدب بالقاهرة ، وتعرّف بعدد كبير من الأدباء منهم : محمود سامى البارودى ، وعبد الله فكرى ، ومحمود صفوت الساعاتى .

وبقى النديم فى وظيفته حتى طرد منها ، واتصل أمره بأحد أعيان

---

(١) عن ترجمته بقلم أحمد أفندى سمير : سلافة النديم ، ص ١٧
عبد الرحمن الرافعى : الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى ، ص ٥٣٦ .

المنصورة ، ففتح له دكاناً يبيع فيه ، فأفلس بعد قليل ، وأغلق دكانه ، وأخذ يرحل من بلد إلى بلد حتى عاد أخيراً إلى الإسكندرية ، فتخلى عن عبثه القديم ، ودخلت حياته فى دور جديد . . إذ كانت آراء جمال الدين قد انتشرت بين المصريين فى ذلك الحين ، فاتصل بأديب إسحق ، وسليم نقاش وعن طريقهما تشبع بآراء جمال الدين وأفكاره ، وأخذ يكتب فى جريدتى « مصر » و « التجارة » ثم فى صحيفتى « المحروسة » و « العصر الجديد» ، فكان يساعد على نشر آراء جمال الدين ، ولذا كان من بين الذين قال عنهم سليم العنحورى :

« إنهم يخدمون أفكاره ، ويعلون بين الناس مناره ، يقصد جمال الدين(١)

ومما قام به النديم أنه أنشأ صحيفة « التنكيت والتبكيت » فى ٦ يونيه سنة ١٨٨١م ، مزج فيها الجد بالهزل ، وكان يرمى من وراء كتابته فيها إلى تأنيب المصريين على ما وصلوا إليه فى أسلوب لاذع ساخر .

وكان يعبر فى جريدته عن آراء جمال الدين ، فهو ينتقد تصرفات الخديوى فى جرأة بالغة ، ويشرح بؤس الفلاح ، ويطالب بالإصلاح عن طريق الحكم النيابى .

وفى خلال ذلك ظهرت الثورة العرابية ، فانضم إليها وقربه زعماء الثورة إليهم ، فأنشأ جريدة «الطائف » واقتصر فى تحريرها أول الأمر على معالجة نواحى النقص الاجتماعية فى مصر ثم جعلها لسان الثورة العرابية .

وإلى جانب مقدرته على الكتابة ، كان النديم خطيباً مفوهاً ، فأخذ يخطب فى أفراد الشعب بأسلوبه العذب ، وصوته المؤثر وطريقته السهلة حتى لقب « بخطيب الثورة » . . وكما يقال :

« إن الله قيض للخاصة أمثال جمال الدين والشيخ محمد عبده ليفهموهم معانى الحرية والديمقراطية ، فكان العامة فى مصر فى حاجة إلى من يشرح لهم هذه المعانى الجديدة عليهم كل الجدة ، فقام السيد عبد الله النديم بهذا العمل »(٢) .

---

(١) سليم العنحورى : تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ١ ، ص ٤٦ .
(٢) عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية ، ج ٢ ، ص ١٢٢ .

ولقد ظل السيد عبد الله النديم مخلصاً للثورة العرابية بعد فشلها فأصدرت عليه الحكومة حكماً غيابياً بالنفى المؤبد من القطر المصرى ، فتنكر النديم وأخذ يتنقل فى مختلف جهات القطر ، وظل على ذلك تسع سنوات حتى اكتشف أمره فاعتقل فى أواخر عهد توفيق ، إلا أن الخديوى عفا عنه على شريطة أن يهاجر إلى أى بلد خارج القطر المصرى ، فذهب إلى يافا ، ثم عاد إلى مصر فى عهد الخديو عباس حلمى الثانى ، وأصدر مجلة «الأستاذ» ، ولكن الحكومة أمرت بتعطيلها وأبعد عن مصر للمرة الثانية ، فذهب إلى يافا ، وعاد بعد قليل إلى الإسكندرية ، ولم يطل به المقام طويلا ، فذهب إلى الآستانة حيث أكرم السلطان وفادته وعينه فى إحدى وظائف الدولة . . . وكان « جمال الدين » فى تركيا فى ذلك الحين ، فكان السيد عبد الله النديم يقضى معه معظم الوقت ، وكان جمال الدين يعتبره « صديقه فى السراء » ، بينما يعتبر الشيخ « محمد عبده » صديقه فى السراء والضراء » (١) .

ومما يروى عنهما أن جواسيس السلطان عبد الحميد الثانى حينما اختلقوا على « جمال الدين » مبايعته للخديو عباس حلمى الثانى قال له النديم :

« ليتك عندما صرح السلطان بأن هذا الفساد من صنع فلان ذكرت له دسائسه ، وتغنيه بهذين البيتين :

هى الخلافة أرجوها وترجونى	فقد تربع فيها من هو دونى
ياغوث ياجد قد آن الأوان لنا	فأين وعدكم فى خان شيخونى

فغضب منه جمال الدين وقال له :

— أعوذ بالله أن أكون من المنافقين ، أو أن أفعل ما أنكره على الغير ، أو أن أكون همازاً مشاء بنميم (٢) .

---

(١) عثمان أمين : محمد عبده ، ص ٢٧ .
(٢) المخزومى : خاطرات جمال الدين ، ص ١٣٠ .

فهذه الرواية ترينا أن الصلة ظلت وثيقة بينهما فى تركيا «فتمكنت بينهما روابط الاتحاد حساً ومعنى ، وبلغ من تعلق السيد جمال الدين به ، وجميل اعتقاده فيه ، أنه أصبح وأمسى يعجب بقوة حجته فى المناظرة والجدل وسرعة بديهته فى التحرير . . . » (١)

وفى أكتوبر سنة ١٨٩٦ م أدركته منيته ، فشيعت جنازته فى احتفال مهيب مشى فيه كثير من الكبراء والعلماء يتقدمهم السيد « جمال الدين » .

❋ ❋ ❋

---

(١) عن ترجمته بقلم أحمد أفندى سمير : سلافة النديم ، ص ١٧ .

٥ – السيد عبد الرحمن الكواكبى
(١٨٤٨ – ١٩٠٢ م)

نشأ فى حلب وتعلم تعليماً دينياً ، وأكمل نفسه بقراءة بعض العلوم الرياضية والطبيعية ، وطالع بنفسه كثيراً من الكتب التاريخية ، وعنى بدراسة قوانين الدولة العثمانية . . .

فلما أتم دراسته ، انغمس فى الحياة العملية ، وتنوعت أعماله ، وتباينت اتجاهاته ، فاشتغل بالصحافة والقضاء والتجارة ، وكان فى كل أعماله يصطدم باستبداد الحكام ، وفساد الإدارة . . . وكانت البلاد حينئذ تابعة لتركيا ، وخاضعة للسلطان عبد الحميد ، فلم تتهيأ له الحرية الكافية للمطالبة بالإصلاح .

شعر بفساد أحوال المسلمين ، فخصص جزءاً كبيراً من حياته فى تعرف أحوالهم ، وتشخيص أمراضهم ، وزار إفريقية الشرقية ، وسواحل آسيا الغربية ، ودخل بلاد العرب وتنقل فيها ، واجتمع برؤساء قبائلها ، ونزل بالهند وتعرف أحوالها .

وكانت دعوة جمال الدين الإصلاحية قد انتشرت فى أرجاء العالم الإسلامى ، فلا يبعد أن يكون السيد « عبد الرحمن الكواكبى » قد تأثر بها .

ومن مؤلفاته كتابين هما : طبائع الاستبداد ، وأم القرى . كان الأول خاصاً بنقد الحكومات الإسلامية ، والثانى خاصاً بنقد الشعوب الإسلامية .

فإذا ألقينا على الكتابين معاً نظرة إجمالية وجدنا أنهما يحويان تحليلا عميقاً ورائعاً لحالة التداعى التى بلغها العالم الإسلامى بصورة عامة وأجزاؤه العربية بصورة خاصة ، وفيه كذلك تحليل لعلل هذا التداعى وعلاجها مع الدعوة بحرارة إلى ضرورة إصلاح أحوال المسلمين ، وفى نظره أن هناك أمرين لابد من تحقيقهما وهما أساسيان وعلى جانب كبير من الأهمية .

الأول : وجوب القيام بعمل جدى ومنظم لمكافحة جاهلية علماء الدين وجهل الجماهير .

والثانى : **أن يستعيد العرب مركزهم الطبيعى فى تسيير دفة الإسلام :**

تعرض فى الكتاب الأول للحكومة الاستبدادية (١) . فعرّف الاستبداد بأنه صفة للحكومة المطلقة العنان التى تتصرف فى شئون الرعية كما تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب ، وبحث بحثاً مستفيضاً فى علاقة الاستبداد بالدين ، وبيّن أن الإسلام مبنى على قواعد الحرية السياسية ، ثم أبان أن الحاكم المستبد يخشى العلم لأن العلم نور ، وهو يريد أن تعيش الرعية فى ظلام لأن الجهل يمكنه من بسط سلطانه ونشر نفوذه ، ثم عرض للحكومة الاستبدادية وأثرها فى الحالة الاقتصادية للبلاد وبين أثر الاستبداد فى فساد الأخلاق ، وكان يرى أن الاستبداد لا يقاوم بالقوة وإنما يقاوم باللين والتدرج والحكمة — وهو فى هذا الرأى يختلف عن السيد « جمال الدين » ويتفق مع الشيخ « محمد عبده » — .

أما الكتاب الثانى (٢) فقد تحدث فيه عن جمعية من المسلمين عقدت فى مكة حضرها ممثل أو أكثر لكل قطر إسلامى ، وأسندت رياسة الجمعية للعضو المكى ، واجتمعوا كلهم قبيل الحج فى مكان متطرف يتداولون فى حال المسلمين ويقول :

« إن لهذه الجمعية أصلا من الحقيقة ، وإن الخيال تممها » فإذا كان لجمعية أم القرى وجود حقيقى ، فليس بعيداً أن يكون السيد « جمال الدين » هو منشىء الجمعية ، كما جاء فى كتاب الحركات الحديثة بين المسلمين » (٣)

وإذا راعينا أن منهج الجمعية كان قائماً على أساس تناسى الاختلافات المذهبية بين السنة والشيعة ، وتوحيد قوى المسلمين لوجدنا أن هناك صلة كبيرة بين منهج الجمعية ودعوة « جمال الدين » .

---

(١) عبد الرحمن الكواكبى : طبائع الاستبداد .

(٢) عبد الرحمن الكواكبى : أم القرى .

(٣) Wilson : Modern Movement among Moslems, p. 72.

Browne : The Persian Revolution, p. 15.

وقد تأثر الكواكبي بآراء السيد « جمال الدين » فهناك توافق كبير بينهما في كثير من المسائل يدل على وجود رابطة وثيقة بين الفكرين » (١)

ولكن بينما كان « جمال الدين » يدعو إلى الجامعة الإسلامية ويعتبر العالم الإسلامي كله ميداناً لنشاطه يجب توحيده تحت إمرة خليفة قوى أياً كانت جنسيته ، كان الكواكبي يفرق تفريقاً واضحاً بين العرب والأجناس الإسلامية الأخرى ويرى أن تكون الخلافة في قريش (٢) .

وقد ساعدت آراء الكواكبي على ظهور القومية العربية التي لم تكن متعارضة في أول أمرها مع الجامعة الإسلامية ، إلا أنها أخذت تنفصل عنها بالتدريج ، حتى ظهرت حركتان متميزتان عرفت إحداهما بالجامعة الإسلامية ، والأخرى بالجامعة العربية .

* * *

---

(١) Antonius : The Arab Awakening, p. 96.

(٢) راجع : كمال الغالى : ميثاق جامعة الدول العربية ، ص ١٧ .
حسين فوزى النجار : السياسة والاستراتيجية في الشرق الأوسط ص ٣١٦ .
Antonius : The Arab Awakening, p. 98.

٦ ـ السيد محمد رشيد رضا
(١٨٦٥ – ١٩٣٥ م)

نشأ السيد «محمد رشيد رضا» نشأة دينية صوفية بقرية القلمون على شاطىء البحر الأبيض، وهى تبعد عن طرابلس الشام بنحو ثلاثة أميال... حفظ القرآن والتحق بالمدرسة الرشدية بطرابلس ثم دخل بعدها المدرسة الوطنية الإسلامية وهى مدرسة أنشأها الشيخ «حسين الجسر» — وكان من العلماء الذين يميلون إلى الإصلاح ويرون أن الأمة الإسلامية لا تنهض إلا بالجمع بين علوم الدين والدنيا على الطريقة العصرية . . . فتأثر السيد محمد رشيد رضا بطريقة أستاذه وآرائه ، فلما انتهى من طلب العلم تطلعت نفسه إلى العمل الحر ، وكان صوت السيد « جمال الدين الأفغانى » والشيخ « محمد عبده » فى الدعوة إلى الإصلاح قد ملأ العالم الإسلامى وقد هيأته للاستجابة له تربية الشيخ « حسين الجسر » .

وبينما كان يقلب يوماً فى أوراق أبيه عثر على عددين من جريدة العروة الوثقى ، فقرأهما بلذة وشوق — وكما يقول — فعلا فى نفسه فعل السحر (١) ، فطفق يبحث عن سائر الأعداد، فوجد بعضها عند والده ووجد الباقى عند أستاذه الشيخ «حسين الجسر»، فاستنسخها جميعاً ، وقرأها المرة بعد المرة ، فأثرت عليه قراءة العروة الوثقى إذ انتقل إلى طريق جديد فى فهم الدين الإسلامى ، وأدرك أنه ليس روحانياً أخروياً فقط ، بل هو دين يجمع بين الدين والدنيا ، ويقصد هداية الإنسان إلى السيادة فى الأرض ليكون خليفة الله فى تقرير المحبة والعدل .

يقول الشيخ رشيد رضا :

وأحدث لى هذا الفهم الجديد فى الإسلام رأياً فوق الذى كنت أراه فى الإرشاد، فقد كان همى قبل ذلك محصوراً فى تصحيح عقائد المسلمين ونهيهم

---

(١) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، جـ ١ ، ص ٨٤ .

عن المحرمات وحثهم على الطاعات وتزهيدهم فى الدنيا ، فتعلقت نفسى بعد ذلك بوجوب إرشاد المسلمين عامة إلى المدنية والمحافظة على ملكهم ومباراة الأمم العزيزة فى العلوم والفنون والصناعات وجميع مقومات الحياة » (١)

وقد بلغ من تأثر الشيخ «رشيد رضا» بآراء «جمال الدين» و«محمد عبده» أنه كان يدافع عنهما فى كل مجلس حتى عرف بين الناس « بعاشق جمال الدين » (٢)

كما أرسل كتاباً إلى « جمال الدين » وهو بالآستانة يدل على ما انطبع فى نفسه نحو السيد من حب عميق ، وتقدير كامل إذ يصفه « بالإمام المفرد والعقل المجرد ، حجة الإسلام ، وعلم الأعلام ، أخطب الخطباء ، وأبلغ الكتاب ، ومن أوتى الحكمة وفصل الخطاب . . . » (٣) .

ويروى الشيخ «عبد القادر المغربى» أن السيد « جمال الدين » كان يثنى على كتاب الشيخ رشيد رضا ويقرأه لزائريه المرة تلو المرة . . (٤) .

وحينما مات « جمال الدين » وفد الشيخ «رشيد رضا» إلى مصر واتصل بالشيخ « محمد عبده » ليتلقى الحكمة على يديه ، فقربه الأستاذ الإمام من مجلسه ، وكان يجتمع به كثيراً فى داره ليتناقشا معاً فى مختلف المسائل الإصلاحية ، وأشار عليه الشيخ « محمد عبده » بأن يصدر مجلة « المنار » لنشر تعاليمه ، فكانت تسير على مذهب «جمال الدين » فى الإصلاح على أساس الجمع بين علوم الدين والدنيا وتحقيق الوحدة الإسلامية . . .

وقد ظل الشيخ رشيد رضا متأثراً بنزعة «جمال الدين» الإسلامية حتى أنه كان يرمى الوطنيين فى مصر وتركيا بالإلحاد والمروق لأن الدين ليس من مقومات آرائهم فى الوطنية .

---

(١) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ١ ص ٨٤ ، ٨٥ .

(٢) انظر كتابه إلى جمال الدين : تاريخ الأستاذ الإمام ، جـ ١ ، ص ٨٦ .

(٣) محمد رشيد رضا : كتابه إلى جمال الدين ، تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ، ص ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ .

(٤) عبد القادر المغربى : جمال الدين – ذكريات وأحاديث ، ص ٢٣ ، ٢٤ .

٧ — الشيخ عبد القادر المغربى
(١٨٦٧ — ١٩٥٦ م)

كان الشيخ عبد القادر المغربى أحد تلامذة « جمال الدين » ، والمتأثرين بآرائه ، ولذلك قيل « إن كتاباته تفيض بنفحة من الروح النقدية الحرة التى اشتملت عليها كتابات « جمال الدين » و « محمد عبده » ، وتدل على ما بين تعاليم المغربى وتعاليم مدرسة الشيخ « محمد عبده » من تشابه » (١)

وقد روى لنا المغربى فى كتابه (٢) كيف اتصل بالسيد « جمال الدين » ، وكيف تعرف إليه . . فيقول إنه أول ما فوجىء باسم « جمال الدين» كان تلميذاً فى المدرسة السلطانية فى بيروت وكان ناظر المدرسة يومذاك الشيخ «أحمد عباس الأزهرى» المشهور فى بلاد الشام بعلمه وفضله والتهاب وطنيته ، وكانت معه « جريدة العروة الوثقى » فأفاض فى وصفها والغرض من إنشائها .

ولما عاد المغربى إلى طرابلس الشام أخبر الشيخ «رشيد رضا» عن «العروة الوثقى » ومنشئيها ، وأخذ يبحث معه عن أعدادها ، وكان ينسخ مقالاتها من ألفها إلى يائها بعكس الشيخ « رشيد رضا » الذى كان ينسخ المهم من مقالاتها . . . ويقــول :

«وكنت أدرس مضامين « العروة » دراسة عميقة ، وأستوحى من خلال سطورها أفكاراً وآراء .. منها ما كانت تقبله البيئة وترضاه ، ومنها ما كانت تستنكره وتأباه ، وأخطر ما كنت أفكر فيه ، وألهج به وأدعو إليه من مبادىء العروة الوثقى «الإصلاح الدينى » وكان رفيقى ومؤنسى فى هذا الطريق الوعر الشيخ رشيد رضا » . . .

وكان الشيخ «عبد القادر المغربى» يحرص على الاتصال بالوافدين من مصر والآستانة لمعرفة أخبار السيد « جمال الدين» والشيخ «محمد عبده » ، وبقى على ذلك زهاء عشر سنوات ثم رحل من طرابلس ذاهباً إلى الآستانة ليتلقى العلم فى بعض معاهدها الدينية ، فمكث سنة واحدة اجتمع خلالها « بجمال الدين» واتصل به وتأثر بآرائه .

(١) آدمز : الإسلام والتجديد فى مصر ، ص ٢٤٠ .

(٢) عبد القادر المغربى : جمال الدين — ذكريات وأحاديث ، راجع صفحات ١٣ ، ١٤ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ .

٨ — إبراهيم المويلحى
(١٨٤٦ — ١٩٠٦م)

يعتبر المويلحى أحد أعلام المدرسة الصحفية الثانية فى مصر : : : تنوع نشاطه وتعددت اتجاهاته ، فاشتغل بالتجارة والسياسة والصحافة ، إلا أنه نبغ فى الكتابة الصحفية ، فأصدر عدة صحف فى مصر ونابلى وتركيا وكان يدافع عن الدين ضد أعدائه الذين رموه بشتى التهم ، ويدعو إلى القومية المصرية ، ويميل إلى الجامعة الإسلامية .

ينتمى إلى أسرة المويلح ، وهى أسرة عربية ، أصلها من « المويلح » من ثغور الحجاز التى كانت تابعة لمصر ،وكان جده السيد «إبراهيم المويلحى» من كبار موظفى الحكومة فى عهد«محمد على»يميل للأدب والأدباء . فورث عنه هذا الميل : . وكان أبوه من ثراة مصر ، وله بيت تجارى كبير اشتهر بصناعة الحرير وتجارته ... اشتغل «إبراهيم» فى أول أمره بالتجارة ثم ظهر ميله للأدب ، فشارك فى تأسيس جمعية المعارف التى عنيت بإحياء الكتب العربية ، ثم اشترك فى إصدار جريدة اسمها « نزهة الأفكار »،ولكنها كانت من الخطورة على الرأى العام بحيث أصدرت الحكومة أمرها بتعطيل الجريدة ولم يكن قد صدر منها غير عددين ، ولما وفد « جمال الدين » إلى مصر ، اتصل به«إبراهيم»وأصبح من أصدقائه ، واتصل عن طريقه بالحركة السياسية التى ظهرت فى عصر إسماعيل والتى انتهت بتأليف وزارة«شريف باشا»(١) وكان على هذه الوزارة الوطنية أن تفكر فى وضع الدستور ،فاختير إبراهيم للاشتراك مع السيد البكرى فى وضع اللائحة الوطنية لتأسيس مبادىءالحكومة الدستورية :

ولما عزل إسماعيل ،لازمه«إبراهيم المويلحى» ، فسافر معه إلى نابلى حيث بدأ يجدد حياته الصحفية ، ولما انتقل الخديو إسماعيل إلى إيطاليا صحبه

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل ، ج ١ ، ١٩٤٨ ، ص ٢٧٢ .

المويلحى وأصبح كاتماً لسره ، ومؤنساً له فى وحدته . . ومن بين الصحف التى أصدرها فى تلك الفترة صحيفة « الخلافة » التى أنشأها فى نابلى باللغتين العربية والتركية ، منددا فيها بالسلطان عبد الحميد الثانى لأنه استجاب لرغبة الدول الأوروبية فى عزل إسماعيل ، وكان نقد المويلحى للسلطان لاذعاً حتى أنه بعث لسفيره فى إيطاليا يطلب منه أن يبذل أقصى جهده فى أن يجعل المويلحى يكف عن هذا النقد .

وبعد ذلك نزح المويلحى إلى باريس وتولى إصدار جريدة الاتحاد ، والأنباء ، والرجاء ، ويقال إن السيد « جمال الدين » عرض عليه أن يشترك معه فى تحرير جريدة العروة الوثقى (١) ، ويقال أيضاً « إنه ساهم فيها مساهمة الهواة العابرين » (٢) ولكنى أشك فى ذلك لأنه لم ترد إشارة فى كتابات « جمال الدين » أو فى العروة الوثقى تشير إلى اشتراكه فى التحرير .

ولقد تنقل المويلحى بعد ذلك بين تركيا ومصر حتى مات سنة ١٩٠٦ .

ومما نلاحظه على المويلحى أنه كان فى كتاباته الخاصة يدافع عن مصر ، ويدعو إلى تخليصها من السيطرة الإنجليزية ، وفى ذلك يتفق مع السيد « جمال الدين » إلا أنه كان يختلف عنه من حيث حبه وإخلاصه لإسماعيل وأبناء إسماعيل .

أما فى كتاباته العامة فكان يدعو إلى الجامعة الإسلامية ولذلك قيل عنه « إنه فى هذه الفترة كان قطعة من العصر الذى عاش فيه ، وتلميذاً مخلصاً لأستاذيه الكبيرين : السيد « جمال الدين الأفغانى » والشيخ « محمد عبده » (٣)

* * *

---

(١) عبد اللطيف حمزة : إبراهيم المويلحى ، ج ٣ ، ص ٤١ .
(٢) إبراهيم عبده : أعلام الصحافة العربية ، ص ١٢٢ .
(٣) عبد اللطيف حمزة : إبراهيم المويلحى ، ج ٣ ، ص ٥٧ .

٩ — محمد المويلحي
(١٨٦٨ — ١٩٣٠ م)

أحد أعلام الأدب الممتازين ، وصاحب كتاب « حديث عيسى ابن هشام » .

أخذ الأدب عن أبيه «إبراهيم المويلحي» ، فنشأ ميالا للقراءة والاطلاع ، فلما وفد « جمال الدين » إلى مصر اتصل به ، وانتفع بدورسه ، وكان أكثر ما استفاده من السيد « جمال الدين » فى الناحية الأدبية . . فامتاز قلمه بصفاء الديباجة ، وفصاحة اللفظ ، ومتانة السجع . . . وقد نشر كتابه « حديث عيسى بن هشام » فى صحيفة مصباح الشرق التى كان يحررها مع أبيه . . . ثم طبع بعد ذلك . ومما يدل على قوة الصلة بينه وبين السيد « جمال الدين » أن مقدمة الكتاب بقلم « جمال الدين » وقد جاء فيها ما يلى :

« حبيبى الفاضل . .

تقلبك فى شئون الكمال يشرح الصدور الحرجة من حرارتها ، وخوضك فى فنون الآداب يريح قلوباً علقت بك آمالها ، وليس بعد الإرهاص إلا الإعجاز ولك يومئذ التحدى ، ولقد تمثلت اللطيفة الموسوية فى مصر كرة أخرى وهذا توفيق من الله تعالى . فاشدد أزرها ، وأبرم بما أوتيت من الكياسة والحذق أمرها حتى تكون كلمة الحق هى العليا ، ولا تكن كالذين غرتهم أنفسهم بباطل أهوائها ، وساقتهم الظنون إلى مهواة شقائها ، وحسبوا أنهم يحسنون صنعاً ويصلحون أمراً ، وكن عوناً للحق ، ولو على نفسك ، ولا تقف فى سيرك إلى الفضائل عند عجبك ، لا نهاية للفضيلة ، ولا حد للكمال ، ولا موقف للعرفان ، وأنت بغريزتك السامية أولى بها من غيرك .. والسلام »(١) .

بهذه العبارات كتب السيد «جمال الدين » مقدمة « عيسى بن هشام » وهى تدل على إعجابه بمؤلفه ، وبما أوتيه من كياسة وحذق ، ويدعوه دائماً إلى أن يكون عوناً للحق ، محباً للفضيلة .

---

(١) محمد المويلحي : حديث عيسى بن هشام ، المقدمة بقلم جمال الدين الأفغاني .

١٠ — الشيخ على يوسف
(١٨٦٣ — ١٩١٣ م)

شخصية من أبرع الشخصيات الصحفية فى الشرق العربى ، يعتبر تلميذ مدرسة وأستاذ مدرسة . . فهو تلميذ السيد « جمال الدين » فى صحافته أيام إسماعيل وصدر حكم توفيق ، صاحبه أياماً ونشر بعض المقالات فى صحافة ذلك العهد ، كما أنه أستاذ مدرسة صحفية تجلت فى مقالاته التى نشرها فى جريدة المؤيد .

وقد تأثر الشيخ على يوسف بآراء السيد « جمال الدين » ، فكان يدافع عن الدين الإسلامى ضد أعدائه الذين رموه بشتى التهم ، وكان يؤمن بالجامعة الإسلامية من الناحية الدينية ويرى أن الجامعة السياسية غير موجودة ، ولم توجد ، ولن توجد . . وفى ذلك يختلف عن « جمال الدين » .

يقول الشيخ على يوسف :

الجامعة الإسلامية قسمان — دينية وسياسية ، والدينية موجودة بوجود العقيدة الإسلامية ، والسياسية غير موجودة ، ولم توجد ، ولن توجد لعدم وجود الرابطة بين الأمم الإسلامية وهى المصلحة ، ذلك أن المسلمين إذا أوجدوا جامعة سياسية إسلامية ، أوجد غيرهم جامعة مسيحية وهكذا ، فتكون المضرة عليهم بسبب ذلك » (١) .

ولذلك يقول عنه عباس الثانى فى مذكراته :

« كانت سياسته تستند أحياناً على نفوذ الخليفة ، ولكنها لم تكن على الخصوص تركية إسلامية » (٢) .

وكما كان السيد « جمال الدين » يقاوم الاحتلال فى جريدة العروة الوثقى ، كان الشيخ على يوسف ينشر المقالات الحماسية فى جريدة المؤيد ، واتخذ من الإصلاح الدينى والدعاية الدينية موضوعاً سياسياً خالصاً وألبس آراءه الدينية ثوب الدفاع عن كيان مصر السياسى ضد الأوروبيين عامة ، والإنجليز بنوع خاص .

---

(١) الشيخ على يوسف : المؤيد ، عدد ٥١٠٨ ، سنة ١٩٠٧ .

(٢) مذكرات عباس حلمى الثانى : بجريدة المصرى بتاريخ ١٣ مايو سنة ١٩٥١ عن كتاب الدكتور عبد اللطيف حمزة : على يوسف ، ص ٦٢ .

١١ — إبراهيم اللقانى

هو من رجال المحاماة والأدب المعدودين ، وأحد تلامذة السيد « جمال الدين » ، اتصل به وهو فى مصر ، وتلقى آراءه فى الإصلاح ، ودعاه السيد « جمال الدين » إلى الاشتراك فى تحرير جريدتى « مصر » و « التجارة » ثم فى « مرآة الشرق » وغيرها من الصحف . . . وكان « جمال الدين » يقدره تقديراً عظيماً نستدل على ذلك من خطابه الذى أرسله إلى « عبد الله باشا فكرى » والذى جاء فيه :

« وإنك مع علمك بواقع أمرى ، وعرفانك بسريرتى وسرى ، أراك ما زدت عن حق كان واجباً عليك حمايته ، ولا صنت عهداً كانت عليك رعايته ، وكتمت الشهادة ، وأنت تعلم أنى ما أضمرت للخديوى ولا للمصريين شراً ، ولا أسررت لأحد فى خفايات ضميرى ضراً — وتركتنى وأنياب النذل اللئيم « فلان » حتى نهشنى نهش السبع الهرم العظام ، ضغينة منه على السيد « إبراهيم اللقانى » ، وإغراء من إعدائى أحزاب (فلان) » (١)

ولقد نفى « إبراهيم اللقانى » من مصر بعد الثورة العرابية ، وانتقل إلى بيروت حيث لازم الأستاذ الإمام الشيخ « محمد عبده » . ثم عاد إلى مصر ليواصل نشاطه غير أن المنية حالت بينه وبين تحقيق أمنيته .

* * *

(١) المنتخب : الجزء الثانى ، ص ٥٢٦ ، ، محمد سلام أمدكور : جمال الدين الأفغانى ، ص ١٢٨ .

١٢ — محمد إقبال

(١٨٧٣ — ١٩٣٨ م)

علم من أعلام الشعر فى بلاد الشرق ، وداع من أكبر الدعاة إلى الدين . . كانت آراؤه تنبع من معين واحد هو الإسلام . فاستطاع أن يحدث ثورة فكرية وسياسية بين مسلمى الهند ، ولذلك اشتهر باسم شاعر الإسلام أو شاعر الباكستان . . .

ولد فى عام ١٨٧٣ على حدود كشمير ، وتعلم فى الهند ، ودرس فى إنجلترا وألمانيا وسويسرا ، وتفقه فى الدين ودرس الأدب والقانون .

وإذا قارنا بين آرائه وآراء « جمال الدين » لوجدنا أثر جمال الدين واضحاً عند «إقبال » وخاصة فى نواحى السياسة والدين .

كان « جمال الدين » يدعو إلى تطهير الدين من البدع ، وفهمه فهماً صحيحاً يتلاءم مع روح العصر ، والرجوع إلى القرآن والحديث وكذلك كان إقبال . . . فمن قوله :

صاح هل تعرف ما دستورنـــا   كيف فى الدهر مضى تدبيرنا ؟؟
الكتاب الحى والذكر الحكيم   حكمة فى الدهر تبقى لا تريم (١)

وقوله :

« إن على المسلم اليوم عملا شاقاً ، عليه أن يعيد النظر فى الإسلام كله دون انقطاع عن الماضى » (٢) .

وكان جمال الدين يدعو المسلمين إلى التزود من الثقافة الغربية حتى تصل الأمم الإسلامية إلى ما وصل إليه العرب من تقدم .

ويقول إقبـــال :

« إن أظهر ظاهرات التاريخ الحديث سرعة اتجاه المسلمين اتجاهاً روحياً

---

(١) عبد الوهاب عزام : محمد إقبال ، مطبوعات باكستان ، ١٩٥٤ ، ص ٩٩ .
(٢) نفس المرجع : ص ١١٤ ، ١١٥ .

شطر الغرب ، وليس فى هذا خطأ . . فثقافة أوروبا فى جانبها العقلى ليست إلا استمرار التطور فى جوانب مهمة من الثقافة الإسلامية ، والذى نخشاه أن يقف المسلمون عند المظاهر البراقة فى هذه الثقافة الأوروبية ، فلا يدركوا حقيقتها ، ويفقهوا بواطنها » (١)

وقد تأثر «إقبال» إلى حد كبير بدعوة « جمال الدين » إلى الجامعة الإسلامية فقال :

« لا يمكن لهذا الشرق أن يتخلص من براثن الاستعمار ، ولا أن ينجو بنفسه إلا إذا اتحد المسلمون ، وجمعوا كلمتهم » (٢) .

وقوله :

كل شعب قام يبنى نهضـــة　　　وأرى بنيانـكم منقسمـــا
فى قديم الدهــر كنتم أمـــة　　　لهف نفسى كيف صرتم أمما ! ! (٣)

ولقد تغيرت نظرة «إقبال» فى أواخر أيامه ، فبعد أن كان يدعو إلى الجامعة الإسلامية ، آمن باستحالة تحقيق الوحدة بين البلاد الإسلامية.. ومن قوله فى سنة ١٩٠٩ :

« لقد كنت أرى وأعتقد أن الخلافات الدينية ينبغى أن تمحى فى هذه البلاد ، ولا أزال أعمل لذلك فى حياتى الخاصة ، ولكننى أجد اليوم أن محافظة كل من الأمتين على كيانها مطلوب بين المسلمين والهندوس ، وأن الوطن الموحد فى الهند لمن الأحلام الجميلة التى تروق الأمزجة الشعرية ، ولكنه عند النظر إلى الأحوال الحاضرة ، والنزعات الباطنة فى ضمائر الأمتين يبدو غير قابل للتحقيق » .

وكما كان «جمال الدين» يدعو الشعوب إلى التمسك بحقوقها السياسية كان

---

(١) عبد الوهاب عزام : محمد إقبال ، ص ١١٥ .
(٢) رسالة الباكستان : نواح من فلسفة إقبال ، عدد خاص بإقبال ، ١ مايو سنة ١٩٥١ ص٨
(٣) رسالة الباكستان : عدد خاص بإقبال ، ترجمة الشيخ الصاوى على شعلان .

«إقبال» يثق بالشعب ثقة لا حد لها، ويظهر الكراهية للطغيان على اختلاف أنواعه . . .

ومما يدل على أن « إقبال » تأثر بالسيد « جمال الدين » قوله عنه :

« على المسلم اليوم أن يعيد النظر فى الإسلام كله دون انقطاع عن الماضى ، والذى أدرك كل الإدراك خطر العمل وسعته ، هو «جمال الدين الأفغانى» ، وكان حرياً أن يكون حلقة حية بين الماضى والمستقبل بنظره الثاقب ، ونفاذه إلى حقيقة تاريخ المسلمين وتاريخ ثقافتهم ، إلى ما أوتى من إدراك واسع يسرته له تجاربه فى الناس والأخلاق » (١) .

فهذه العبارات التى يسوقها «إقبال» عن «جمال الدين» ، تدل على إيمانه بجهوده ، إذ يعتبره حلقة حية بين الماضى والمستقبل . . . وهذا يؤيد ما وصلنا إليه من قوة الأثر والرابطة بين آراء «إقبال» وآراء السيد « جمال الدين » .

* * *

(١) Gibb : Modern trends in Islam, p. 28.

ثانياً — مؤلفاته

لم يترك جمال الدين كثيراً من الكتب والمؤلفات ، فلم يكن لديه من الوقت ما يساعده على التأليف .

وله كتابان هما : « الرد على الدهريين » ، و « تتمة البيان فى تاريخ الأفغان » ، ويقال إنه نشر كتاباً عن الخلافة كان نصيبه المصادرة .

وقد نشر جمال الدين مقالات متنوعة فى الجرائد المصرية وفى جريدة العروة الوثقى ، وقد جمعت مقالات العروة الوثقى فى كتاب واحد طبع فى بيروت ، كما قام السيد رشيد رضا فى كتابه « تاريخ الأستاذ الإمام » والمخزومى فى كتابه « خاطرات جمال الدين » بجمع كثير من مقالاته وأحاديثه . . وإلى جانب هذا جمعت بعض مقالاته الأخرى التى نشرت فى جريدة « مصر » و « مرآة الشرق » فى ختام هذه الرسالة .

وهذا عرض لمؤلفاته :

١ — الرد على الدهريين

عنوان الكتاب :

رسالة فى إبطال مذهب الدهريين وبيان مفاسدهم وإثبات أن الدين أساس المدنية والكفر فساد العمران .

وقد كتبه باللغة الفارسية ثم نقله الأستاذ الإمام الشيخ « محمد عبده » إلى العربية بمساعدة عارف أبى تراب — تابع السيد جمال الدين — .

أسباب تأليفه :

كتب السيد « جمال الدين » رسالته لشرح مذهب الدهريين الذى أخذ فى الانتشار فى بلاد الهند ، ويشرح لنا « جمال الدين » فى جريدة العروة الوثقى (١) طريقة انتشار هذا المذهب فيرى أن الإنجليز حينما استولوا على

---

(١) العروة الوثقى : من ص ٤٨٩ — ٤٩٥ .

الهند أرادوا أن يقضوا على خصائص القومية لدى المسلمين فى الهند ، ورغبوا فى إبعادهم عن الحضارة الإسلامية لأنهم أحسوا أن المسلمين ما داموا على دينهم وما دام القرآن يتلى بينهم فحال أن يخلصوا لسلطة أجنبى عنهم .

وقد اتبع الإنجليز وسائل مختلفة لإبعاد المسلمين عن دينهم ، فعمدوا إلى التبشير بالدين المسيحى ، وحملوا القسس على نشر الرسائل والكتب محشوة بالطعن فى الديانة الإسلامية ، كما أخذوا فى تضييق سبل المعيشة على المسلمين وتشديد الوطأة عليهم والإضرار بهم من كل وجه فمنعوهم من الوظائف العامة ، ووضعوا أيديهم على أوقافهم التى كانت مخصصة للمساجد والمدارس ، لكنهم فشلوا فى إبعاد المسلمين عن دينهم .

ثم رأى الإنجليز أن يتخذوا سبيلا ملتوية تنتهى بهم إلى ما يريدون فشجعوا نشر الأفكار الإلحادية فى ثوب العلم الحديث ، وساعدوا على نشر مذهب «دارون» وجعلوه أساساً لمذهب مادى إلحادى يعرف باسم المذهب الطبيعى. ويتلخص هذا المذهب فى أن المادة هى كل شىء وأنها قديمة ، وأنه يمكن تفسير كل الظواهر فى الكون عن طريق الأسباب المادية ، كما أنه يمكن تفسير الحياة والظواهر النفسية والاجتماعية والأخلاقية ببعض الظروف والعوامل الطبيعية ومن الواضح أن هذا المذهب يقود رأساً إلى القول بقدم العالم وعدم فنائه ، ويتبع ذلك أن ينكر المؤمن به وجود الله .

وقد صادف مذهب « النيشريين » نجاحاً لدى بعض الهنود مما أدى إلى فزع بعض المسلمين المتمسكين بدينهم . ولذا بعث أحدهم وهو « مولوى محمد واصل » فى مدرسة الأغرة بمدينة حيدر آباد يطلب إلى السيد « جمال الدين » شرح مبادىء النيشرية بخطاب جاء فيه :

« يقرع آذاننا هذه الأيام صوت نيتشر .. نيتشر . . وإنه ليصل إلينا من جميع الأقطار الهندية من الممالك الغربية والشمالية و « أوده » و « بنجاب » و « بنغالة و « السند » و « حيدر آباد الدكن » ولا تخلو بلدة أو قصبة من

جماعة يلقبون بهذا اللقب : «نيتشرى» ويظهر لنا أن من يطلق عليهم هذا اللقب ينمو عددهم على امتداد الزمن خصوصاً بين المسلمين وقد سألت أكثر من لاقيت من هذه الطائفة :

ما هي حقيقة النيشرية ؟ ؟ وفى أى وقت كان ظهور النيشريين ؟ ؟ وهل من قصد هذه الطائفة بمسلكها الجديد عندنا أن تقوم عماد المدنية ولا تعدو هذا المقصد ؟ ؟ أولها مقاصد أخرى ؟ ؟ وهل طريقتهم تنافى أصول الدين فى عالم المدنية ؟؟ والهيئة الاجتماعية الإنسانية ؟ ؟ ولم لانعهد دعاة إلا فى هذه الأوقات ؟ ؟ وإن كانت جديدة فما الغاية من إحداثها ؟ ؟ وأى أثر يكون عن الأخذ بها ؟ ؟

ولكن لم يفدنى أحد عما سألت بجواب شاف كاف . . ولهذا ألتمس من جنابكم العالى أن تشرحوا حقيقة النيشرية والنيشريين بتفصيل ينفع الغلة ، ويشفى العلة . . والسلام .

فأجابه السيد جمال الدين بخطاب وعده فيه بإنشاء رسالة فى بيان ما غمض ، وقد وضعها فجاءت رسالة قيمة ، وكان أقوم ما فيها إثبات قيمة الدين ، وضرورته للإنسان وأثره فى رقيه وأثر الإلحاد فى انحطاطه .

قيمة الرسالة من الناحية العلمية :

يرد البعض أن رسالة «الرد على الدهريين»لا تدل على مقدرة علمية فائقة (١) ، ولكنا لو رجعنا إلى الرسالة ودرسنا ما اشتملت عليه من آراء ، لتبين لنا عكس ذلك على الرغم من غلبة الطابع الخطابى على كتابته .

فقد استعرض « جمال الدين » نشأة المذهب المادى منذ أقدم العصور والأطوار التى مر بها خلال فترات التاريخ قديمه وحديثه ، وشرح آراء الفلاسفة الدهريين شرحاً يدل على سعة إطلاعه وغزارة علمه . ولم يقتصر على ذلك بل رد عليها رداً علمياً يدل على تمكنه فى شئون الدين ، وإحاطته بآراء الفلاسفة القدماءوالمحدثين.وسوف نستعرض الآن أهم آراء جمال الدين

(١) H. A. R. Gibb : Modern Trends in Islam, p. 29.

عن الدهريين ولكنا سوف لا نلتزم المنهج الذى اتبعه فى عرض هذه المذاهب ، فقد بدأ رسالته بعرض المذهب الطبيعى فى العصر الحديث ليرينا أنه ليس بالمذهب المبتكر الأصيل . ولكنا سنبدأ بعرض المذهب فى العصر القديم ثم فى العصور الوسطى ثم فى العصر الحديث .

❋ ❋ ❋

ظهور المذهب المادى عند اليونان :

انقسم حكماء اليونان قبل الميلاد إلى فريقين :

الفريق الأول :

ذهب إلى وجود ذات مجردة عن المادة ، مخالفة للمحسوسات ، منزهة عن أمور الجسم ، وأثبت هذا الفريق أن سلسلة الموجودات مادية ومجردة تنتهى إلى موجود مجرد واحد من جميع الوجوه ، مبرأ الذات عن التأليف والتركيب ، ومحال عند العقل تصور التركيب فيه ، ومن هذا الفريق فيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأرسطو . .

أما فيثاغورس فقد أسس مدرسة تهدف إلى النهوض بالأخلاق وتحث على الإيمان والورع ،وكان شعارها هو أن يبذل الإنسان جهده لكى يطهر نفسه ، ويعدها للحياة المستقبلة .

كذلك نجد لدى سقراط آراء دينية أكثر سمواً من آراء فيثاغورس، إذ يبدو فى هذه الآراء أثر عميق للإيمان بوجود الله ، فإنه كان يؤكد أنه يسمع صوتاً داخلياً يهتف فى أعماق نفسه يمنعه من الإقدام على ما ينبغى له ألا يقدم عليه . وهو يرجع هذا الصوت إلى ظهور إله أو عقل إلهى يتمثل فى نفسه .

أما لدى أفلاطون فقد سيطرت على فلسفته فكرة الإله حتى إنه لقب « بأفلاطون الإلهى » وهو يصف الله بأنه خالق العالم ومثال القداسة والحى العاقل ، وآله الآلهة ، والمنبع الأبدى للوجود . .

وعند سقراط نراه أيضاً يؤمن بآلهة الإغريق بعد تبرئتها من الصفات البشرية التى تنسبها إليها الأساطير .

الفريق الثانى :

نفى كل موجود سوى المادة والماديات وقال إن الموجود هو الذى يدرك بالحواس الخمس، ولما سئل أفراد هذا الفريق عن منشأ الاختلاف فى صور المواد نسبوها إلى طبيعتها . ولما كان اسم الطبيعة فى اللغة الإنجليزية « نيتشر » فقد اشتهرت هذه الطائفة بالطبيعيين ومن هذا الفريق « ديمقراطيس » ومن رأيه أن العالم أجمع مؤلف من أجزاء صغار صلبة متحركة بالطبع ومن حركتها هذه ظهرت أشكال الأجسام وهيئاتها . كما أنه يجعل الأخلاق أموراً نسبية لا تصدر عن وحى ولا تنبع من الآلهة إذ ليست هناك فى رأيه قوة مدبرة منظمة ، وليست هناك علة للوجود ، وليس للآلهة أية وظيفة يؤدونها فى الكون .

أما « أبيقور » أحد أتباع ديوجينيس الكلبى فكان يرى أن الإنسان فى بعض أطواره كان مثل الخنزير مستور البشرة بالشعر الكثيف ثم لم يزل ينتقل من طور إلى طور حتى وصل بالتدريج إلى ما نراه من الصورة الحسنة والخلق القويم . ولم يكن أبيقور يخاف الآلهة ، فهى تهتم بنفسها ولا تهتم بالبشر فى قليل أو كثير وكان يقول للناس : ما دامت الآلهة لا تهتم بالبشر فليس من الحكمة أن يهتم أحد بها ، وكان يرى أنه من السخف أن يتقدم الناس بالقرابين والضحايا إلى آلهة لا تكترث ولا تهتم مطلقاً بما يحدث فى هذا الكوكب الأرضى ولا تشغل نفسها بمعاقبة الأشرار أو إثابة الصالحين .

نقد جمال الدين للمذهب :

يعيب جمال الدين على أتباع أبيقور أنهم مزقوا ستار الحياء وأراقوا ماء الوجه الإنسانى ، فاستحلوا التناول من مال الناس بغير إذن ، وكانوا متى رأوا مائدة اقتحموا عليها سواء طلبوا إليها أم لم يطلبوا حتى سماهم القوم بالكلاب فإذا رأوهم رموهم بالعظام المعروفة ومع ذلك لم تتنازل هذه الكلاب الإنسية عن دعوى الحكمة ، وكانت تنبح فى الأسواق منادية : المال مشاع بين الكل ، وتهجم على الناس من كل ناحية ، وهذا سبب شهرتها بالكلبيين (١)

(١) الرد على الدهريين : ص ٧٢ .

ويعيب عليهم أيضاً أنهم أنكروا الحياة الثانية ، وطالبوا أتباعهم بالتحرر من كل قيد ، وارتكاب ما يستنكره الناس حتى يعود من السهل عليهم أن يأتوا كل قبيح بدون انفعال نفسى ، ولا يجدوا أدنى خجل فى المجاهرة بأية نقيصة كانت .

ويرى جمال الدين أن انتشار مذهب أبيقور وغيره من الطبيعيين أدى إلى ضعف بلاد اليونان ، فقد كان اليونانيون أمة عظيمة بلغوا درجة عظيمة فى التفوق الحربى فوق ما بلغوه من الدرجات العالية فى العلوم الرفيعة وذلك لاستمساكهم بالفضائل والخصال التى تقررها دياناتهم فكل دين وإن لم يكن موحى به يحتوى على أسس أخلاقية لا حياة لأمة دون الاستمساك بها ، فلما تبعوا مذهب أبيقور سقطت مداركهم إلى حضيض البلادة ، وكسد سوق العلم والحكمة ، وتبدل شرف أنفسهم بالذل واللؤم ، وتحولت أمانتهم إلى الخيانة ، واستحالت شجاعتهم إلى الجبن ، ومحبة جنسهم ووطنهم إلى المحبة الشخصية ، فانتهى أمرهم بوقوعهم أسرى فى أيدى الرومان .

* * *

ظهور المذهب عند الفرس :

كان الفرس قبل زرادشت يعبدون مظاهر الطبيعة وقواها،واعتقدوا أن هناك آلهة خيرة وأخرى شريرة وأن هناك صراعاً مستمراً بينها ، فلما ظهر زرادشت فى القرن السابع قبل الميلاد وحد آلهة الخير وجعلها إلهاً واحداً واسمه : « أهورامزدا » ووحد آلهة الشر وجعلها إلهاً واحداً واسمه « دروج أهرمن» وذكر للناس أنه جاء منه عند إلٰه الخير ، وأن هذا الإله قد اختاره ليبلغ رسالته إليهم ويدعوهم إلى دين أسمى من الدين الذى يعتنقونه وقال لهم إن الكهنة ورجال الدين يهتمون أشد الاهتمام بالطقوس والشعائر الدينية والمظاهر الخارجية للدين أكثر من اهتمامهم بلب الدين وجوهره ، وأن الآلهة التى يعبدونها مشغولة بالقرابين التى تقدم إليها من الحيوان والطير ، أما الدين الجديد الذى يدعو إليه فلا يقوم على شىء من هذا إنما أساسه القلب والوجدان . إن القلب الكسير والنفس التائبة النادمة هى أحسن قربان يقدمه

المؤمن إلى خالقه . أما موضوع هذا الدين وهدفه فهو السلوك المستقيم وعباداته قائمة على العدل والورع والاستقامة، وهذه صفات باطنة يتصف بها القلب والصدر . أما المظاهر الخارجية لهذا الدين فهى النية الطيبة والكلام الطيب والأعمال الطيبة . وقد أدرك « زرادشت » بثاقب بصره أن خيار الناس لا ينالون عادة فى هذه الحياة الدنيا ما يستحقون من حسن الجزاء لذلك فهم يتطلعون إلى المستقبل لتعويض ما لحقهم من غبن وحرمان فى هذه الحياة الدنيا ، ولذا فهو يقول لهم « سوف تبتهج نفوس الخيرين فى هذه الحياة الثانية الخالدة كما سيعذب الكاذبون إلى الأبد » والمؤمن هو الذى يتطلع إلى مملكة العدل . المملكة السماوية ، حيث يعمل الله على تعويض ما فاته فى الحياة الدنيا من لذة وهناء . على أن بلاد فارس شهدت بعد ذلك موجة من الإلحاد والإباحية على يد « مزدك » الذى نادى بأن جميع القوانين الدينية والأخلاقية السائدة التى يقدسها الناس ويحرصون عليها لا تهدف فى الواقع إلى نشر العدل بينهم وإنما هى تقرر الظلم وتجعله أمراً مشروعاً .

نقد جمال الدين لمذهب « مزدك » :

يعلق جمال الدين (١) على مذهب مزدك بقوله :

« ظهر مزدك النيشرى « الدهرى » وانتحل لنفسه لقب « رافع الجور ودافع الظلم » وبنزعة من نزعاته قطع أصول السعادة من أرض الفارسيين ونسفها فى الهواء وبددها فى الأجواء فإنه بدأ تعليمه بقوله « جميع القوانين والحدود والآداب التى وضعت بين الناس قاضية بالجور ، مقررة للظلم وكلها مبنى على الباطل وأن الشريعة النيشرية المقدسة لم تنسخ حتى الآن ، ويرى أن ديانة مزدك قد نادت الناس بالرجوع إلى سنة الطبيعة المقدسة وقضاء حق شهواتهم من اللذائذ التى أباحتها لهم بأى الوجوه ومن أية الطرق .

ويرى أن هذه النزعات الخبيثة لما ذاعت بين الأمة الفارسية تهتك الحياء وفشا الغدر والخيانة وغلبت الدناءة والنذالة . وضعف الفرس حتى

---

(١) الرد على الدهريين ، ص ٧٤ .

إذا هاجمهم العرب لم تكن إلا حملة واحدة فانهزموا مع أن الروم وهم أقران الفاريسيين ثبتوا فى مجالدة الغرب ومقاتلتهم أزماناً طويلة .

* * *

الأمة الإسلامية :

جاء الإسلام فنادى بالتوحيد الخالص ، ودعا المسلمين إلى الاستمساك بأصول دينهم فكان ذلك سبباً فى عزة المسلمين وقوتهم ، فلما كان القرن الرابع بعد الهجرة ظهر الطبيعيون بمصر تحت اسم الباطنية وانبث دعاتهم فى سائر البلاد الإسلامية خصوصاً بلاد إيران .

يقول « جمال الدين » (١) :

« ذهب أولئك المفسدون مذهب التدليس فى نشر آرائهم وبنوا تعليمهم على أمور :

أولا : إثارة الشك فى القلوب حتى يتفكك عقد الإيمان .

وثانياً : الإقبال على الشاك وهو فى حيرته ليمنوه بالهداية إلى اليقين .

وثالثاً : أوعزوا إلى دعاتهم أن يلبسوا لرؤساء الدين الإسلامى لباس الخدعة وجعلوا من شروط الداعى أن يكون بارعاً فى التشكيك مقتدراً على إشراب القلوب مطالبه ».

ويقول جمال الدين (٢) :

ذهب المؤرخون إلى أن بداية الانحطاط فى سلطة المسلمين كان من حرب الصليب ، والأليق أن يقال إن ابتداء ضعف المسلمين كان من يوم ظهور الآراء الباطلة والعقائد النيشرية (الدهرية) فى صورة الدين وسريان هذه السموم القاتلة فى نفوس أهل الدين الإسلامى .

* * *

---

(١) الرد على الدهريين ، ص ٧٧ .

(٢) الرد على الدهريين ، ص ٨٢ .

فى العصر الحديث :

يعتبر جمال الدين الأفغانى «فولتير» و«جان جاك روسو» من دهريى العصر الحديث ويرى أنهما غرسا بذور الإباحية وأن الأديان فى نظرهما مخترعات أحدثها نقص العقل الإنسانى .

ويرى أن آراء «فولتير» و«جان جاك روسو» هى التى أضرمت نار الثورة الفرنسية الكبرى ، ثم فرقت بعد ذلك أهواء الأمة وأفسدت أخلاق الكثير من أبنائها .

ويرى جمال الدين أن كثيراً من المذاهب الحديثة مثل الاشتراكية تدعو إلى ما يدعو إليه الدهريون ، فهى ترى أن جميع المشتهيات الموجودة على سطح الأرض منحة من الطبيعة وفيض من فيوضها والأحياء فى التمتع بها سواء ، واختصاص فرد من الإنسان بشىء منها دون سائر الأفراد بدعة فى شرع الطبيعة سيئة يجب محوها والإراحة منها(١) .

❋ ❋ ❋

نظرية « دارون » وموقف جمال الدين منها :

ألف «دارون» كتاباً لكى يبرهن فيه على أن الإنسان كان قرداً غير أن صورته أخذت تتطور بالتدريج ، ويدخل عليها التهذيب والتنقيح حتى أصبحت بشكلها الحالى ، فقد ارتقى القرد إلى مرتبة « أوران أوتان » أى رجل الغابة ومنها أصبح الوصول إلى مرتبة الإنسان يسيراً ، فكان الزنوج أول أفراد البشر ثم انتقل بعض هؤلاء إلى مرتبة أعلى فكان الإنسان القوقازى ، وهو فى رأى الأوروبيين أرقى الأجناس البشرية وإليه ينسبون أنفسهم .

ويرى جمال الدين أن «دارون» فسر التطور بقوة مجهولة تدفع الكائن الحى إلى الانتقال من مرتبة إلى مرتبة أسمى ولكنه لم يفسر لنا هذه القوة ولم يبين لنا لماذا تسير فى اتجاهات مختلفة ؟ .

---

(١) الرد على الدهريين ، ص ٨٧ .

ويقول : « وعلى زعم « دارون » هذا يمكن أن يصير البرغوث فيلا بمرور القرون ، وأن ينقلب الفيل برغوثاً كذلك » (١) .

ويأخذ جمال الدين على «دارون» أنه يتشبث بمثال واحد هو وجود شبه كبير بين بعض أنواع القردة والإنسان ، فلماذا لم يفسر لنا أيضاً كيف تطورت النباتات ؟ .

أوليس النبات كائناً حياً خاضعاً لقوانين التطور والفناء ؟ . فهل لدارون أن يخبرنا عن السبب فى اختلاف الأشجار التى يراها المرء فى غابات الهند مثلا أو النباتات التى توالدت فى تربتها منذ تلك الأزمان السحيقة التى لا يكاد التاريخ يحصرها عداً إلا عن طريق الخيال ؟ وهل له أن يبين لنا كيف اختلفت فصائلها مع أنها توجد فى بقعة واحدة ؟ وتسقى بماء واحد وترتفع فروعها فى جو واحد ؟ . فما السبب فى اختلاف كل منها عن الآخر فى بنيته وأشكال أوراقه وطوله وقصره وضخامته ورقته وزهره وثمره وطعمه ورائحته وعمره فأى فاعل خارجى أثر فيها حتى خالف بينها مع وحدة المكان والماء والهواء ؟ .

* * *

وقد انتهى جمال الدين إلى أن الدين والأخلاق خير ضمان ضد بواعث الشر وضروب الفساد التى تبيد الأفراد سواء بسواء . . ثم بين فوائد الدين للإنسان وقال إن الدين أكسب عقول البشر ثلاث عقائد ، وأودع نفوسهم ثلاث خصال كل منها ركن لوجود الأمم وعماد لبناء هيئتها الاجتماعية .

العقيدة الأولى : تنحصر فى أن الإنسان كائن منفصل عن الطبيعة يمتاز عن غيره من الحيوانات . فقد كرمه الله وأحسن خلقه وهذه العقيدة تدعو صاحبها إلى النفور من مشابهة الحيوان أو مشاكلته فى انصرافه إلى حاجاته العضوية .وكلما سما الإنسان فى الناحيتين الروحية والأخلاقية صفت نفسه وتاقت إلى العالم العقلى .

(١) الرد على الدهريين ، ص ١٣ .

العقيدة الثانية : يقين كل ذى دين بأن أمته أشرف الأمم وكل مخالف فعلى ضلال وباطـــــل .

العقيدة الثالثة : جزمه بأن الإنسان إنما ورد هذه الحياة الدنيا لاستحصال كمال يهيئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوى والانتقال من دار ضيقة إلى دار فسيحة الساحات لا تنقضى سعادتها ولا تنتهى ملذها .

أما الخصائل الثلاث فهى :

الخصلة الأولى : فهى فضيلة الحياء وهى انبعاث داخلى فى النفس أقوى أثراً من أى قهر يوجبه المجتمع أو القانون ، والحر هو الذى لا يخجل لأنه يخاف الناس أو النقد وإنما لأن نفسه تعاف الرذيلة وتنفر منها .

الخصلة الثانية : وهى الأمانة التى تعتبر أساساً للمعاملات والمبادلات .

الخصلة الثالثة : وهى أن حاجات المرء لا تنقضى مع قصور جهده إلا بتعاونه مع الآخرين ، وهذا هو السبب فى حاجة الإنسان الملحة إلى الاستعانة بأقرانه حتى يستبدل بضعفه قوة ، وبخوفه أمناً .

❋ ❋ ❋

٢ — تتمة البيان فى تاريخ الأفغان

اهتم السيد جمال الدين بتاريخ البلاد الأفغانية وحالتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ولا عجب فى ذلك فهو أفغانى الأصل ، واشترك فى الأحداث السياسية التى مرت بها بلاده ، وقد نشر جمال الدين مقالا عنوانه « البيان فى تاريخ الأفغان » بجريدة مصر تحدث فيه عن السياسة الإنجليزية وما يهدف إليه الإنجليز فى بلاد العالم الإسلامى ، ثم نشر عدة مقالات متتابعة بالجريدة المذكورة وهى التى جمعت فى كتابه « تتمة البيان فى تاريخ الأفغان » . وقد اهتمت الجرائد الإنجليزية بما جاء فى هذه المقالات وردت عليها وناقشتها لتحاول أن تتبين وجه الخطأ والصواب فيها،ومما قالته الجرائد لإنجليزية عنه :

« قلما تسنح الفرصة لأن نرى أفغانياً يتكلم عن سياسة الإنجليز وصفاتها ، فلذا رأينا أن من الواجب أن نخصص بعض أعمدة صحيفتنا للملاحظة على مقابلة وضعها عالم أفغانى فى سبر سياسة الإنجليز السابقة واللاحقة ، فأدرجت فى جريدة مصر المطبوعة فى الإسكندرية ، فعلينا أن نعترف أولا بأن صاحبها نبيه ذو إلمام بحوادث الوقت . . ولاشك أن بعض الإنجليز الذين يعتقدون بأن الأفاغنة أمة متبربرة يتعجبون عندما يرون منهم عالماً قادراً على الإتيان بمقالة يندد بها سبر الأمة الإنجليزية فى الأزمان الحاضرة والغابرة وعارفاً بكل ما حصل فى أوروبا فى الأزمنة المتأخرة ومطلعاً كفيلسوف على أحوال الإنجليز ومقدار قوتها العسكرية والأدبية ... إلخ »(١) .

❋ ❋ ❋

محتويات الكتاب :

بدأ جمال الدين كتابه بقوله :

« لهجت الجرائد فى هذه الأيام بذكر أحوال الأمة الأفغانية المعروفة

---

(١) جريدة أوفرلند ميل الإنجليزية العدد ١١١٠ عن جريدة مصر العدد ٢٦ بتاريخ ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٧٨ .

بعزة النفس ، وشدة البأس وعلو الهمة التى لم تسمح نفوسها بأن تستظل بظل العجز ، ظل المكر والحيل والخداع القاضى على المستظلين به بالذل والهوان ، ولم ترض الدخول تحت حماية الخضجر المبتلى بجوع البقر والاستسقاء الذى لم يشبعه ابتلاع مائتى مليون من الناس ، ولم يروه مياه التيمس والكنج ، بل فغر فاه ليبتلع بقية العالم ويجرع مياه النيل ونهر جيحون .

ثم تحدث فى الفصل الأول عن اسم هذه الأمة الأفغانية ، وفى الفصل الثانى عن نسب هذه الأمة والقبائل التى تتكون منها .

وفى الفصل الثالث فى ابتداء سلطنتهم وقيام زعيم منهم بأمر الملك ، ثم تناول تاريخ أفغانستان حتى العصر الحديث .

وفى الفصل الرابع تحدث عن الشعوب المختلفة الساكنة فى الأقطار المعبر عنها باسم أفغانستان وأخلاقهم وعاداتهم ومذاهبهم ، وفى إيضاح كيفية الحكومة فى تلك البلاد .

❋ ❋ ❋

٣ — خاطرات جمال الدين

قام بجمع هذا الكتاب « محمد باشا المخزومى » وهو أحد السوريين الذين وثق بهم السيد جمال الدين ، وكان يقطن إلى جواره بتركيا فى محلة « نيشا نطاش » كما كان يلازمه فى كل مكان ، فساعده « قرب الدار والجوار » على تعرف آراء جمال الدين .

وقد طلب محمد المخزومى من السيد جمال الدين أن يسمح له بتدوين آرائه ، وجمع أحاديثه ومقالاته فلم يهتم السيد جمال الدين فى أول الأمر اهتماماً كبيراً إلا أنه وافق فى النهاية وقال له :

« سل ما تريد ياشيخ بنى مخزوم ، واكتب ما تسمع واحفظ ما تراه » .

وحذره من جواسيس السلطان عبد الحميد ، فأخذ محمد المخزومى

فى تدوين مادة الكتاب ، ولما فرغ منها أراد أن يسميه « جمال الدين الأفغانى فى البلاط السلطانى» فلما سمع منه جمال الدين هذا العنوان نفر منه وطلب إليه أن يسميه « خاطرات » فأجابه إلى طلبه ، إلا أن أحد علماء اللغـــة قال لــــه :

« لا يصح أن تجعل عنوان ذلك الأثر المفيد مما تنتقده أهل اللغة لأن خاطرات لم ترد بالمعنى الذى تريده من جمع وكتابة آراء وأفكار جمال الدين والأقرب إلى الصواب أن تقول « خواطر » . فلما كاشف محمد المخزومى جمال الدين بذلك قال له : قل « خاطرات » ولا تبالى بمن فسد لسانهم ولا يصلحون إلا إلى الأجوف والمهموز ولا يحسنون جملة تنقر حبة القلب أو تطرب السمع ، فعمل المخزومى بقوله .

وبعد وفاة السيد جمال الدين وصلت إلى المخزومى رسائل من مصر والهند يستحثه أصحابها على سرعة طبع الكتاب . فلما شرع فى إعداده وجد أن مقال جمال الدين « الأحزاب فى الشرق » ينطبق على حال جمعية الاتحاد والترقى من أثرة وأنانية ، فرأى أن يؤجل طبع الكتاب إلى الوقت المناسب . وفى سنة ١٩١٢ وصلته رسائل جديدة يستحثه أصحابها على طبع الكتاب ، فلما فرغ من إعداده خشى من تغير جو السياسة ومن بطش كبار موظفى الإتحاديين فاضطر إلى إرجاء النشر . ثم قامت الحرب العالمية الأولى واحتلال الحلفاء تركيا . ثم تتطيعها إلى دويلات ، فاضطر أيضاً بحكم تلك العوامل — على حد قوله — أن يرجىء النشر ولكن ليس إلى يوم النشر .

وفى سنة ١٩٣١ قام المخزومى بطبع الكتاب بالمطبعة العلمية ببيروت .

❋ ❋ ❋

قيمة الكتاب من الناحية العلمية :

ترجع أهمية الكتاب إلى أنه جمع فى تركيا فى عهد السلطان عبد الحميد على الرغم من كثرة جواسيس السلطان ، وشدة الرقابة التى فرضت على

الحرية والأحرار ، فلو لم يتمكن المخزومى من جمعه لضاع علينا تراث عظيم من آراء السيد جمال الدين وأحاديثه ، ولفقدنا مصدراً مهماً من مصادر الدراسة والبحث . وترجع الأهمية الثانية للكتاب إلى أن جمال الدين كان يعتبر المخزومى موضع أسراره ، فكشف له عن كثير من نواياه ، وأوضح له آراءه بحرية وصراحة ، ولذلك جاء الكتاب صورة حية لآراء السيد جمال الدين .

من ذلك ما قاله جمال الدين عن السلطان عبد الحميد وهو فى بلاطه « إن السلطان عبد الحميد لو وزن مع أربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاء ودهاء وسياسة ... ولكن يا للأسف . . . إن عيب الكبير كبير ، والجبن من أكبر عيوب الملوك » .

فلو أن جمال الدين لم يكن يثق فى المخزومى لما قال له مثل هذه الآراء الجريئة . . والأمثلة التى وردت فى الكتاب كثيرة متعددة تؤيد هذا الرأى .

وترجع الأهمية الأخرى للكتاب إلى أنه فند كثيراً من المزاعم التى وجهت إلى السيد جمال الدين على لسان جمال الدين نفسه ، فقد كان المخزومى كثيراً ما يسأل جمال الدين عن التهم التى توجه إليه ويطلب منه الجواب . مثال ذلك رده على من زعم أن حكمته بلسانه أكثر مما هى فى قلبـــــه(١) .

كما أن المخزومى كان يسوق لنا كثيراً من الوقائع التى حدثت بين جمال الدين وبين غيره من الناس . . وهذه الوقائع تلقى ضوءاً كبيراً على أخلاق جمال الدين . من ذلك ما قاله عن « تأثير كلامه فى مخاطبه ، وكيف كان يحمل الخامل على العظائم والجبان على الجسارة »(٢) .

وما قاله عن تكليف السلطان عبد الحميد للسيد أن يزوجه من إحدى جوارى قصره وما جرى فى هذا البحث من أخذ ورد(٣) .

---

(١) خاطرات جمال الدين : ص ٨٧ . (٢) نفس المصدر : ص ١٠٧ .
(٣) نفس المصدر : ص ١٠٩ .

وما قاله عن مقابلة جمال الدين لسمو الخديو عباس حلمى الثانى واختلاق الجواسيس مسألة الدولة العباسية(١) .

كل هذه النواحى تجعل للكتاب أهمية كبرى . . فلابد للباحث فى تاريخ جمال الدين من الرجوع إليه ، ودراسته دراسة عميقة مستفيضة .

* * *

موضوعات الكتاب :

كتبت أغلب موضوعات الكتاب فيما بين سنة ١٨٩٢ ، سنة ١٨٩٧ فى تركيا . . ومما نلاحظه على هذه الموضوعات أنها غير متسلسلة والسبب فى ذلك أنها لم تكن فى موضوع أو مطلب واحد ، بل هى أحاديث بعضها بنى على الحوادث وبعضها أتى على سبيل السؤال والاستفهام والبعض الآخر على سبيل الجدل مع آخر ومنها ما هو عفواً وبغير مقدمة . . وقد بدأ المخزومى كتابه بذكر سيرة السيد جمال الدين الأفغانى معتمداً على ما رواه الشيخ محمد عبده عنه ، وأضاف إلى ترجمة الشيخ محمد عبده ما أغفله هو وغيره من المترجمين .

ثم حوى الكتاب بعد ذلك بعض مقالات العروة الوثقى ومختصر رسالة الرد على الدهريين ، وكثيراً من المقالات والأحاديث التى لم تنشر فى أى كتاب آخر .

كما جمع جملا مختصرة ، وكثيراً من أقوال الحكمة التى قالها السيد جمال الدين ، وقد كان باستطاعته أن يرتب موضوعات الكتاب ، ويقسمها إلى مقالات وأحاديث سياسية وأخرى دينية ، وأخرى اجتماعية ، إلا أنه ترك الموضوعات بغير ترتيب أو تبويب ، ويبدو أن الغرض الرئيسى الذى رمى إليه المخزومى هو جمع هذه المقالات والأحاديث والأقوال بأية صورة من الصور . . خوفاً عليها من الضياع ، وترك للباحث مهمة التنظيم والتبويب .

* * *

(١) المصدر السابق : ص ١٢٢ .

٤ — جريدة العروة الوثقى

أصدر السيد جمال الدين جريدة العروة الوثقى فى باريس واشترك معه فى التحرير الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وكانت تتولى الإنفاق عليها جمعية العروة الوثقى ، وهى ذات فروع فى الهند ومصر وغيرها من أقطار الشرق الإسلامى ، وقد نشر منها فى ثمانية أشهر ثمانية عشر عدداً ، صدر العدد الأول منها فى ٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١هـ الموافق ٣ مارس سنة ١٨٨٤م ، والعدد الأخير فى ذى الحجة سنة ١٣٠١هـ .

أغراض الجريدة :

سبق أن لخصنا أغراض الجريدة فى الفصل الأول من الكتاب .

والقارىء لمقالات العروة الوثقى يدرك أن العناية بالفكرة توشك أن تغلب فيها العناية بالأسلوب ، ومن أجل هذا حملت مقالات العروة الوثقى طابع الدروس الدينية أو السياسية ، وكانت الأمثلة التى توخى السيد جمال الدين ضربها فى مجلة العروة الوثقى معظمها كشفاً للسياسة الإنجليزية فى الهند وأفغانستان ومصر ، وقائماً على التنديد بهذه السياسة والغض منها وكشف اللثام عنها للعالم الإسلامى ، وكان أغلب اهتمام العروة الوثقى كما بينا من قبل قائماً على الدعوة للجامعة الإسلامية والمسألة المصرية .

أثر الجريدة :

أحدثت الجريدة أثراً كبيراً فى مختلف بلاد العالم الإسلامى حتى خشيت الحكومة الإنجليزية خطرها فأمرت بمنعها من الدخول فى مصر والهند ، وقد سبق أن تحدثنا عن مدى تأثيرها فى بلاد العالم الإسلامى .

❋ ❋ ❋



خاتمة

جمال الدين الأفغاني
في نظر التاريخ



جمال الدين الأفغانى فى نظر التاريخ

أجمع معظم المؤرخين والباحثين فى تاريخ العالم الإسلامى على أن نهضة الشرق الإسلامى الحديث مدينة — إلى حد كبير — إلى جهود السيد جمال الدين الأفغانى . . فقد استطاع أن يؤثر فيه من النواحى السياسية والدينية والاجتماعية والأدبية أكبر تأثير ، وكان عاملا مهماً فى كثير من الثورات التى قامت خلال القرن التاسع عشر .

استطاع جمال الدين أن يؤثر فى سير الحركات الإصلاحية التى تجاوبت بها أرجاء العالم الإسلامى ، فدعا إلى الجامعة الإسلامية لتحقيق الوحدة بين البلاد الإسلامية المختلفة ، ودعا المسلمين إلى نبذ الخلاف فيما بينهم وكشف لهم عن أدوائهم ونقائصهم ،ودعاهم إلى السمو بأنفسهم والاعتزاز بدينهم ، والحرص على مدنيتهم بعد تطهيرها من الأوشاب والأخلاط لكيلا يتخطفهم العدو الذى يتربص بهم الدوائر . . ولذا يقول عنه جورج أنطونيوس : « إن الحركة التى هزت العالم الإسلامى فى أواخر القرن التاسع عشر واستهدفت بعث الإسلام وتحقيق الوحدة الإسلامية ، كانت مدينة بالدرجة الأولى إلى تفكيره » (١) .

وإلى جانب دعوة جمال الدين إلى الجامعة الإسلامية دعا إلى مقاومة التدخل الأجنبى والحكم الاستبدادى وطالب بإشراك الشعب فى الحكم ، ولذا أثر فى قيام الثورة العرابية وكثير من الثورات التى قامت فى إيران وأهمها ثورة الشعب ضد امتياز احتكار الطباق الذى منحه الشاه ناصر الدين لشركة « ريجى » الإنجليزية . .

كما اعترف سعد زغلول بقيمة الدور الذى قام به جمال الدين فقال : « لست خالق هذه النهضة كما قال بعض خطبائكم . . لا أقول ذلك ولا أدعيه ، بل لا أتصوره وإنما نهضتكم قديمة من عهد محمد على وعرابى

---

(١) Antonius : The Arab Awakening, p. 69.

وللسيد جمال الدين الأفغانى وأتباعه وتلاميذه أثر كبير فيها ، وهذا حق يجب ألا نكتمه لأنه لا يكتم الحق إلا الضعيف » .

ولقد كان للسيد جمال الدين أثر علمى لا يقل عن أثره السياسى . . فقال عنه الرافعى : « إنه كان أشبه بمدرسة متنقلة »(١) . وقال عنه الشيخ رشيد رضا : « إنه غرس فى تلاميذه روح التفكير المطلق وحب الحقائق التى تتمشى مع العقل السليم والرأس الحصيف ، وكانت دروسه تتميز بسعة الأفق والتحرر من قيود التقليد »(٢) .

وقد استطاع جمال الدين أن يؤثر فى رقى الصحافة وخاصة فى مصر ، وشجع تلامذته على إنشاء الجرائد والمجلات والإكثار من القراءة فى كتب الأدب ليستقيم أسلوبهم وتقرب عباراتهم إلى الفصاحة والبيان ، ويتمكنوا من كتابة ما يعن لهم من الأفكار لصالح الأمة وخير الوطن ، ولذا يقول الشيخ محمد عبده : « وأصبحت ترى فى القطر المصرى كتبة لا يشق غبارهم ولا يوطأ مضمارهم وأغلبهم أحداث فى السن شيوخ فى الصناعة وما منهم إلا من أخذ عنه أو عن أحد تلامذته أو قلد المتصلين به »(٣) .

أما من الناحية الدينية فقد طالب بالرجوع إلى جوهر الدين وتفسيره تفسيراً يتلاءم مع روح العصر ، والاعتماد على منطق العقل والبعد عن التقليد دون أدنى إهمال لسلطان القرآن والحديث ، ورد على كثير من المفتريات التى وجهت إلى الدين . ولذا قال عنه رينان : « تعرفت بالشيخ جمال الدين ...وهو خير دليل يمكن أن نسوقه على تلك النظرية العظيمة التى طالما أعلناها وهى أن قيمة الأديان بقيمة من يعتنقها من الأجناس . . وقد خيل إلى من حرية فكره ونبالة شيمه وصراحته وأنا أتحدث إليه أنى أرى أحد معارفى من القدماء وجهاً لوجه ... وأنى أشهد ابن سينا أو ابن رشد »(٤) .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل ، ج ٢ ، ص ١٣١ .

(٢) الشيخ رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ٢ ، ص ٧ .

(٣) الشيخ محمد عبده : مقدمة الرد على الدهريين ، ص ١٣ .

(٤) Osman Amin : M. Abduh, p. 5.

ما يؤخذ على السيد جمال الدين

سرعة الغضب :

اتفق معظم المعاصرين للسيد جمال الدين على أنه كان سريع الغضب ، حتى إن الشيخ محمد عبده قال عنه : « إنه حديد المزاج ، وكثيراً ما هدمت الحدة ما رفعته الفطنة »(١) .

وقد روى عنه المخزومى قصة تؤيد هذا الرأى . فقد طلب من السلطان عبد الحميد الثانى لأحد المصريين الموجودين فى الآستانة رتبة وزيادة راتب ، فوعده السلطان بتحقيق رغبته ، إلا أن السلطان تلكأ فى تنفيذ وعده ، فدخل عليه جمال الدين بوجه عبوس قائلا :

« إننى أتيت لأستميح جلالتك أن تقيلنى من بيعتى لك لأنى رجعت عنها . لقد بايعتك بالخلافة ، والخليفة لا يصلح أن يكون غير صادق الوعد . وقد رجوتك بالأمر الفلانى ، ووعدت بأن تقضيه لى ، ولم تفعل » .

فأطرق السلطان عبد الحميد برهة ثم قال :

« سبحان الله يا حضرة السيد . إن أمراً طفيفاً مثل هذا يحملك على نقض بيعتى !! أما كان يحسن بفضلك أن تلتمس لى عذراً بكثرة مشاغلى ، وتذكرنى قبل نقض البيعة ؟ سامحك الله ، وأحسن جزاءك» . ثم أصدر إرادته حالا بما طلب جمال الدين .

فقال جمال الدين : الحق يقال إننى شعرت بتسرعى ، وعرفت خطئى ، كما أننى عرفت للرجل كبير فضله ، وسعة صدره(٢) .

تشجيعه سياسة الاغتيال :

يؤخذ أيضاً على السيد جمال الدين الأفغانى أنه كان يشجع سياسة الاغتيال . فقال مستر بلنت : إن العلماء كثيراً ما كانوا يتباحثون سراً على كيفية عزل إسماعيل ، والوسائل التى تمكن من ذلك أو حتى من التخلص منه باغتياله ، فاقترح السيد جمال الدين على الإمام محمد عبده قتل إسماعيل .

(١) الشيخ محمد عبده : مقدمة رسالة الرد على الدهريين ، ص ١٣ .

(٢) محمد المخزومى : خاطرات جمال الدين الأفغانى الحسينى ، ص ٦٨ .

كما قال لمستر براون : لا أمل فى الإصلاح فى إيران قبل قطع ستة أو سبعة رؤوس ، وذكر بالاسم شاه إيران وكبير وزرائه ، وكلاهما قتل بعد ذلك .

ومما قاله قاتل الشاه ناصر الدين فى محاكمته :

« إننى أقسم بالله العلى القوى الذى خلق السيد جمال الدين وخلقنى وخلق العالم أجمع ، أنه لم يكن أحد يعلم بنياتى الحقيقية سواى والسيد جمال الدين » .

كان جمال الدين يشجع سياسة الاغتيال السياسى ، إلا أن هذه السياسة أثبتت فشلها فى مختلف الأوقات ؛ فالرأى السديد والفكرة الصائبة يمكنها أن تنتشر بطريق آخر غير طريق الاغتيال . ويمكننا أن نرجع تشجيع جمال الدين لهذه السياسة إلى سرعة غضبه ، وميله إلى الحدة التى قال عنها الشيخ محمد عبده : « إنها كثيراً ما هدمت ما رفعته الفطنة » .

التجاؤه إلى الدول الأجنبية :

يؤخذ على السيد جمال الدين أيضاً أنه استعان ببعض الدول الأوروبية والسفراء الأجانب فى تحقيق رغباته . فكيف يحق للسيد جمال الدين وقد قضى حياته داعياً إلى مقاومة التدخل الأجنبى أن يستعين بالأجانب ضد بنى وطنه ؟. وكيف يحق له أن يلتجىء إلى قنصل فرنسا الجنرال طالباً منه أن يعمل على عزل الخديو إسماعيل ؟ . وكيف يحق له بعد اختلافه مع الشاه ناصر الدين أن يذهب إلى إنجلترا مطالباً الإنجليز بعدم التعاون مع الشاه ؟ وكيف أجاز لنفسه التشهير بحكومة شرقية إسلامية فى إنجلترا ، وهى الدولة التى لها مصالح كثيرة فى الشرق ، والتى سبق له أن هاجمها فى خطبه ومقالاته بالجرائد المصرية والإيرانية وجريدة العروة الوثقى ، والتى يمكن أن تتخذ من أقواله ذريعة للتدخل فى شئون إيران ؟ .

لقد أخطأ جمال الدين فى التجائه إلى هذه الدولة ، كما أخطأ فى تشجيعه لسياسة الاغتيال السياسى .

اتهامه بالخروج على الدين :

زعم بعض العلماء الرسميين من أمثال حسن أفندى فهمى فى تركيا والشيخ عليش فى مصر أن السيد جمال الدين خارج على تعاليم الدين ، واتخذوا من دروسه سبيلا للطعن عليه محتجين عليه بقراءته لبعض الكتب الفلسفية ، آخذين بقول جماعة من المتأخرين بتحريم النظر فيها .

وقد نسى هؤلاء أن الدين القوى — كما يقول الشيخ محمد عبده — لا ينفر من العقل ، ولا يحقر من شأنه ، ولا يحارب أهله (١) .

كذلك أخذوا عليه أن بعض تلاميذه لم يكونوا متدينين . وقد دافع عنه الشيخ رشيد رضا بقوله : « إن هؤلاء التلاميذ الذين يومىء إليهم خصوم جمال الدين ، لم يكونوا متدينين قبل اتصالهم بأستاذهم ، كما أنه لا يسأل عن تدين تلاميذه أو عدم تدينهم » .

أما من ناحية عقيدة السيد جمال الدين ، فقد كان مؤمناً لا تشوب عقيدته شائبة ، فهو يؤمن بأن الدين هو « السبب الفرد لسعادة الإنسان ، فلو قام الدين على قواعد الأمر الإلهى الحق ، ولم يخالطه شىء من أباطيل من يزعمونه ولا يعرفونه ، فلا ريب يكون سبباً فى السعادة التامة ، والنعيم الكامل . ويؤمن بأن الإسلام أقيم على أساس من الحكمة متين ، ورفع بناؤه على ركن لسعادة البشر ركين »(٢) .

وهو يتحدث عن مزايا الدين الإسلامى فى رسالة«الرد على الدهريين» فيقول : « إنه فى مقدمة الأديان من حيث حاجة البشرية إليه ، لأن له مزايا ليست متوافرة فى دين آخر ... » .

وبعد أن يعدد مزايا الدين الإسلامى ، يقول :

« فإن قال قائل : إن كانت الديانة الإسلامية على ما بينت ، فما بال المسلمين على ما نرى من الحال السيئة والشأن المحزن ؟ .

---

(١) الشيخ محمد عبده : مقدمة رسالة الرد على الدهريين ، ص ١٣ .
(٢) الرد على الدهريين : ص ١٠٥

فجوابه : أن المسلمين كانوا كما كانوا ، وبلغوا بدينهم ما بلغوا ، والعالم يشهد . وأكتفى الآن من القول بهذا النص الشريف : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »(١) .

كما دافع عن الإسلام دفاعاً عظيماً ضد منتقديه . فليس من المعقول والحال كذلك أن يكون جمال الدين — وهو صاحب دعوة تجديدية فى الدين — خارجاً على الدين ... كل ما فى الأمر أن هناك أموراً ينكرها الجاحدون المتزمتون الذين درجوا على وضع عقائدهم الدينية فى خصومة دائمة مع الحقائق العلمية ، واتهام كل مفكر حر ، ومجدد مجتهد بالزندقة والإلحاد ؛ فاتهموا جمال الدين بالخروج على الدين ، وهى تهمة باطلة من أساسها ، لا يستسيغها العقل الواعى ، ولا يقرها المنطق السليم .

❋ ❋ ❋

---

(١) المرجع السابق : ص ٩٣ .

ملاحق الكتاب

مجموعة مقالات لم تنشر



ملحق رقم (١)

الحكومة الاستبدادية

(نشرت بالعدد رقم (٣٣) من جريدة « مصر » الصادرة بتاريخ الجمعة ١٤ فبراير سنة ١٨٧٩م – الموافق ٢٢ صفر سنة ١٢٩٦ هـ) .

إن طول مكث الشرقيين تحت نير استبداد المستبدين الذين كان اختلاف أهوائهم الناشىء عن تضاد طباعهم ، وسوء تربيتهم مع عدم وجود رادع يردعهم ومانع يمنعهم وقوة خارجية تصادمهم فى سيرهم سبباً أوجب التطاول على رعاياهم ، وسلب حقوقهم ، بل اقتضى التصرف فى غرائزهم وسجاياهم ، والتغير فى فطرتهم الإنسانية حتى كادوا أن لا يميزوا بين الحسن والقبيح ، والضار والنافع ، وأوشكوا أن لا يعرفوا أنفسهم وما انطوت عليه من القوة المقدسة ، والمقدرة الكاملة والسلطة المطلقة على عالم الطبيعة والعقل الفعال الذى تخضع لديه البسائط والمركبات ، ويطيع أمره النافذ جميع المواليد من الحيوان والنبات ...

وإن امتداد زمن توغلهم فى الخرافات التى تزيل البصيرة ، وتستوجب المحو التام ، والذهول المستغرق ، بل تستدعى التنزل إلى المرتبة الحيوانية ...

ومداولتهم من أحقاب متتالية على معارضة العلوم الحقيقية التى تكشف عن حقيقة الإنسان ، وتعلمه بواجباته ، وما يلزمه فى معاشه ، وتبين له الأسباب الموجبة للخلل فى الهيئة الاجتماعية ، وتمكنه من دفعها والسعى فى إطفاء نورها بما ورثوه من آبائهم من سفه القول ، وسخف الرأى ، والجد فى اضمحلال كتبها ، وضياع آثارها ، واستبدالها بما أوقعهم فى ظلمات لا يهتدون إلى الخروج منها أبداً ...

كل هذه الأسباب . . تمنع القلم عن أن يجرى على قرطاس بيد شرقى فى البلاد الشرقية بذكر الحكومة الجمهورية ، وبيان حقيقتها ومزاياها ، وسعادة ذويها الفائزين بها ، وأن المسوسين بها أعلا شأناً وأرفع مكانة من

سائر أفراد الإنسان ، بل هم الذين يليق بهم أن يدخلوا تحت هذا الاسم دون ما عداهم ، فإن الإنسان الحقيقى هو الذى لا يحكم عليه سوى القانون الحق المؤسس على دعائم العدل الذى قد سنه لنفسه يحدد به حركاته وسكناته ومعاملاته مع غيره على وجه يصعد به إلى أوج السعادة الحقيقية ، وتصده عن أن يرقم على صفحات الأوراق ما يكشف عن ماهية الحكومة المقيدة ويوضح عن فوائدها وثمراتها . ويبين أن المحكومين بها قد هزتهم الفطرة الإنسانية فنبهتهم للخروج من حضيض البهيمية والترقى إلى أول درجات الكمال ، وإلقاء أوزار ما تكلفهم به الحكومة المطلقة ، وتطلب مشاركة أولى أمرهم فى آرائهم ، وكبح شره النهمين منهم الطالبين للاستئثار بالسعادة دون غيرهم ...

ولهذا أضربنا عن ذكرها ، وأردنا أن نذكر فى مقالنا هذا الحكومة الاستبدادية بأقسامها فنقول :

إن الحكومة الاستبدادية باعتبار عناصرها الذاتية ، وأقانيمها الحقيقية التى هى عبارة عن أمير أو سلطان ووزراء ومأمورى إدارة وجباية تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : منها الحكومة الفارسية وهى التى تكون أركانها – مع اتسامهم بسمة الإمارة والوزارة والإدارة والجباية – شبيهة بقطاع الطريق ، فكما أن قاطع الطريق يقطع طرق السابلة ويسلبهم أموالهم ومؤنهم وثيابهم التى تقيهم الحر والبرد وسائر مواد حياتهم ، ويتركهم فى البوادى والقفار حفاة عراة جياعاً تقطعت بهم حبال الوسائل ، ولا يلاحظ أن منهم الهرم والصغير والعاجز والضعيف الذين لا يستطيعون التخلص من المهالك ، ولا يقدرون على النجاة ولا يبالى بموتهم وهلاكهم عن آخرهم ولا تأخذه فى ذلك الشفقة والرحمة .

كذلك هؤلاء الأركان يغتصبون ضياع رعاياهم وعقاراتهم ويستولون على مساكنهم وبساتينهم ، وينتزعون بالضرب والحبس والكى وغيرها من أنواع العذاب ، ما بأيديهم من ثمرات اكتسابهم ، ويدعونهم فى مخاليب

المصائب ، معرضين للأسقام والآلام ، وأهدافاً لسهام البلايا التى ترميهم بها عواصف الرياح الزمهريرية والسمومية ، ولا يخشون اضمحلالهم وإبادتهم بالكلية ، ومحق حياتهم بالمرة ، بل ربما يستبشرون بذلك كأنما هم أعداؤهم ، ولا يشعرون بأنهم قوام السلطة وأساسها ،ومن أفراد هذا القسم الحكومة الجنكيزية والتيمورية وغيرهما من حكومات التتر والبرابرة ، كما تشهد بذلك التواريخ . .

القسم الثانى — الحكومة الظالمة :

وأولياء هذه الحكومة تماثل الأخساء المترفين الذين يستعبدون إناساً خلقوا أحراراً ظلماً واعتداء ، فكما أنهم يكلفون عبيدهم بأعمال شاقة ، وأشغال صعبة ، ويجبرونهم على نقر الأحجار وخوض البحار ، ونقل الصخور ، وقلع الجبال ، وطى المفاوز وجوب البلاد فى زمهرير الشتاء وهجير الصيف ، ويؤلمون أبدانهم بالسياط إذا مالوا (آنا ما) إلى الراحة التى تجذبهم الطبيعة إليها ، ويحجبونهم بأشغالهم المستغرقة لأيام (حيوة) هؤلاء المظلومين عن مرايا جوهر عقولهم المقدسة حيث لا يجدون فرصة من دهرهم للنظر فى الآفاق وفى أنفسهم كى يرتقوا من الإحساس البهيمى إلى عرش الإدراك الإنسانى ، ويشاركوا أبناء جنسهم فى اللذائذ الروحية ، ويجتنوا ثمار عقولهم ليؤازروهم بنتائجها مع الصنائع البديعة ، والمخترعات الرفيعة ، فيسعدوا مع السعداء ، ومع ذلك يحرسون حياتهم ، ويحرصون على استبقائها استيفاء للخدمة منهم بتقديم قوت من أردأ ما يقات به لسد الرمق ، وثياب خشنة رثة ، لتحفظهم من أظفار العواصف ، وبراثن القواصف ، فلا يكون حالهم مع سادتهم إلا كحال البهائم والأنعام الأهلية ، لا يعيشون إلا لغيرهم ، ولا يتحركون إلا برضاه ، بل بمنزلة آلة غير شاعرة بأيدى مستعبديهم ، يستغلونهم كما يشاؤون .

كذلك هؤلاء الولاة مع رعاياهم ، فإن الرعايا لا يزالون يتحملون المتاعب والأوصاب ، ويكدون أيام سنيهم ، ويسهرون لياليها مشتغلين بلا فتور بالغرس والحرث والحصد والدرس والندف والحلج والغزل

والنسج ، مهتمين بالحدادة والتجارة والملاحة والتجارة ، ساعين فى حفر الأنهر وإنباع المياه ، وإنشاء الجداول والجسور ، متكبدين آلام التغرب فى الحر المبيد ، والبرد المميت ، كى ينالوا رغد العيش بطيب المطعم والمشرب والملبس والمسكن ، ويحوزوا الراحة والرفاهة ، ويفوزوا بالحظ والسعادة ...

وهؤلاء الظلمة لا يفترون عن السعى فى سلب ما بأيديهم جبراً وغصب ثمار مكاسبهم ، وفوائد متاعبهم رغماً ، ولا يدعون لهم مما اكتسبوه بكد يمينهم ، وعرق جبينهم ، سوى ما تقوم به حياتهم الدنيئة حتى تراهم بعد اقتحام هذه الأخطار ، وتحمل تلك المصاعب ، لا يقتاتون إلا بكسرات من خبز ردئة ناشفة يبلونها بدموعهم المنسكبة من جور ولاتهم الفاتكين ، ولا يسترون أبدانهم إلا بخرق رثة مرقشة بدمائهم السائلة من سياط حكامهم الجائرين ، ولا يسكنون إلا فى الأكنة المنخفضة والأخصاص الحسيسة كأنهم أنعام حرمتهم الطبيعة من المزايا الإنسانية ، ولا يشاهدون إلا بوجوه مغبرة مقشرة مقفرة ، وتدوم عليهم هذه الحال الرديئة التى نشأوا عليها والمعيشة الدنيئة التى اعتادوها حتى هؤلاء الولاة عما منحوه من فضيلة العقل إلى رتب البهيمية لا يحسون بمعيشة أكمل مما هم فيه ، ولا يتألمون إلا بالآلام الجسمانية ...

ومن أقسام هذه الحكومة غالب حكومات الشرقيين فى الأزمان الغابرة ، والأوقات الحاضرة ، وكذلك أكثر حكومات الغربيين فى الدهور الماضية ، ومنها أيضاً الحكومة الإنجليزية الآن فى الأقطار الهندية .

القسم الثالث — الحكومة الرحيمة ، وهى تنقسم إلى قسمين :

القسم الأول منها: الحكومة الجاهلة ، ودعائم هذه الحكومة تحاكى الأب الرحيم الجاهل . فكما أنه يحث أبناءه شفقة منه على اقتناء الأموال ، واكتساب الثروة ، واستحصال السعادة والاقتصاد فى المعيشة بدون أن يبين طرقها ، ويمهد لها سبلها ، لعدم علمه بها ، ويدعوهم رأفة إلى المجاملة

والموادعة ، ورفع الشقاق والنزاع من بينهم بغير أن يحدد لهم الواجبات ، ويقدر الحدود اللازمة للإدارة المنزلية لقصور إدراكه عنها فكأنه يدعوهم إلى أمر مجهول مطاق لا يهتدون إليه سبيلا ...

كذلك هؤلاء الدعائم الرحماء الجهلاء يطلبون من رعاياهم السعى فى المكاسب والصنائع والتمسك بالتجارة والفلاحة والتشبث بالعلوم والمعارف ويغرونهم على مجاراة الجيران ، ومباراة أهل العرفان ، والتعلق بأسباب النجاح والفلاح بلا تشييد المدارس المفيدة ، وتأسيس المكاتب النافعة ، وتسهيل طرق المعاملات ، وبث فنون الزراعة جهلا منهم ، ويريدون من أولئك الرعايا التباعد عن الشقاق والنفاق ، والاحتراز عن الاعتداء والاغتصاب والتجنب عن الفساد والعناد والحيف والميل فى الحقوق ، والاحتراس عن كل ما يخل بالراحة العمومية بلا تعيين ناموس عادل حافظ للحقوق معين للحدود ، فاصل للقضايا ، قاطع لما يطرأ من النوازل ، جامع لجميع ما يحتاج إليه الإنسان فى اجتماعاته المدنية ...

ومن أفراد هذه الحكومة سلطنة بعض السلاطين المجبولين على الشفقة ، المطبوعين على الرأفة الذين كانوا يبكون على سوء أحوال رعيتهم مع جهلهم بما يصلح شأنها والسير بذلك ناطقة ...

القسم الثانى — منها الحكومة العالمة ، وهى تنقسم إلى قسمين :

القسم الأول : الحكومة « الأقينة الغرة » وأقانيها تضاهى الأب العالم المأفول ، فكما أن شفقة هذا الأب تسوقه إلى العناية بأحوال أبنائه ، وتقسره عليها ، وأن علمه بأسباب الترف والثروة وعلل المعيشة الهنيئة المرضية يقوده إلى الاهتمام بتأديبهم بأحسن الآداب وتعليمهم الفنون وتمرينهم على الحرف ويجبره على أن يبين لهم قوانين العشرة ، ويحدد لهم حقوقهم ولكنه بعد ذلك يتركهم وشأنهم لضعف رأيه وقصر نظره وجهله بأن ملازمة الشباب للآداب واجتنابهم ثمار معارفهم التى اكتسبوها ، واجتهادهم فى المكاسب ، لا تكون إلا بقوة حافظة ما لم تمكنهم التجارب لما جبلوا عليه

من الميل إلى الشهوات والانعكاف على البطالة ، والتقاعد عن الفضائل ، فيهوون فى هوية التعاسة ، وتذهب مساعيه سدى .

كذلك هؤلاء الأقانيم يعمرون بيوت العلم ، ويشيدون دور المعارف ، وينشئون المعامل ، ويوسعون نطاق التجارة ، ويواظبون على تشييع سياسة مدنية تثبيتاً للحقوق ، واستتباباً للراحة على مقتضى ما أحاطوا به من أحوال رعاياهم ، ولكنهم لعدم تدبرهم فى العواقب ، وعدم تبصرهم بأن افتقار انتظام أحوال العباد وسير أمورهم على نهج العدل ، ونيلهم غاية بغيتهم من مساعيهم إلى العلة المبقية كافتقارهم إلى العلة الموجدة لا يواظبون على أعمالهم هذه ، ولا ينظرون إليها نظرة ثانية ، بل ينبذونها ظهرياً ، ويتركونها نسياً منسياً ، فيتطرق إليها الخلل ، ويعتريها الفساد ويسرى إليها الانحلال كما جبل عليه الإنسان من الحرص والشره والميل إلى الجور والاعتداء المستلزمة لمخالفة القانون ، فيقع كل فى العطب والنصب والشقاء والعناء ، ويستولى عليهم الفقر والفاقة ، ويصبرون كأرض موظوبة بتوالى تطاول أيدى جائريهم ، وتعاقب اعتساف معتديهم ، ويشبه أن تكون حكومة المأمون وبعض سلاجقة إيران من أفراد هذا القسم .

القسم الثانى — الحكومة المتنطسة :

وأساطينها الحكماء ، وتضارب الأب المتدبر المتبصر الذى لا يبرح ساعياً فى إعداد الأسباب الموجبة لسعادة أبنائه زمن حياتهم ، وتهيئة معداتها القريبة والبعيدة ، ولا يتجافى آناً ما عن مواظبة دقائق حركاتهم وسكناتهم وتفقد شئونهم ، واستكناه أحوالهم ، ولا يتقاعد لحة عن تأييدهم فى سيرهم بآرائه السديدة ، وأفكاره الصائبة ، خوفاً من التوانى والكسل ، والإهمال والفشل ، وخشية من عروض الموانع التى تصدهم عن البلوغ للغاية .

فتجد هؤلاء الحكماء الأساطين يعلمون أن قوام المملكة ، وحياة الرعايا بالزراعة والصناعة والتجارة . . ويعرفون أن كمال هذه الأمور واتقانها لا يكونان إلا بأمرين أحدهما وهو فى الواقع علتهما الأولى العلوم الحقيقية النافعة والفنون المفيدة التى لا يمكن حصولها والفوز بها إلا بمدارس

منتظمة ومدرسين ماهرين متخلقين بأخلاق فاضلة ، شفوقين على المتعلمين شفقتهم على أبنائهم ، وثانيهما إعداد آلات الزراعة وأدوات الصناعة وتسهيل طرق التجارة البرية والبحرية ، ويفقهون أن حفظ أساس المدنية ، وصون نظام المعاملات ، وفصل المنازعات ، وكف يد التعدى ، ومنع المدلسين ، وكبح الأشرار ، وردع الفجار لا يكون إلا بالمحاكم الشرعية والسياسية المؤسسة على دعائم العدل والإنصاف ، وأنها لا تتحقق إلا بقانون حتى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة حتى أرش الخدش(١) . محفوظاً بأمناء يقظين ، محروساً بعدول نشطين ، محفوظاً بعلماء فقهين ، معززاً بقضاة قاسطين ، مؤيداً بحكام أعفاء ، وأعوان بررة .

ويدركون ببصيرتهم الوقادة مصالح العباد ، ومناهج تعمير البلاد ، ووسائل درء المفاسد الداخلية ، وطرق منع النوازل الخارجية وأن القيام بذلك لا يكون إلا بضرب ضرائب عادلة عليهم ، يجمعها جباة عدول ، تصرف فى منافعهم العامة لدى الضرورة بلا حيف وميل ، وانتخاب طائفة من أبطالهم الموصوفين بالصداقة وعزة النفس ، وعلو الهمة لحفظ الأمنية الداخلية ، ودفع الأعداء الخارجية ، ويشعرون بأن استكمال سعادة المملكة ، وصيانة استقلالها ، لا يكونان إلا بارتباطاتها السياسية ، وعلائقها التجارية مع الممالك الأخرى ، وإنها لا تتم إلا برجال عارفين دهاة متبصرين محبين لأوطانهم (لا كحسن أفندى فهمى شيخ الإسلام الأسبق فى الآستانه الذى كان يقول لعدو وطنه الجنرال أغناتيف سفير الروسية بها — إنك عينى اليمنى وإن حيدر ابنى عينى اليسرى كما ذكره حضرة مدحت أفندى فى كتابه المسمى بأس الانقلاب) ، متدربين محنكين بالسياسة عالمين بالحوادث قبل ظهورها ، محيطين بطرق التجارة ، فيقولون بواجبات ما اقتضته حكمتهم ، وما أحاطوا به علماً ، ولا يتهاونون آناً ما عن أداء حقوق رعاياهم ، ولا يفتدون راحة أنفسهم بسعادة أولئك الضعفاء ، وزد على ذلك أنهم يدرون أن غالب أفراد الإنسان طبع على الحرص ، وفطر على الشر ،

---

(١) الأرش شرعاً : بدل الدم أو الجناية ، أو هو للأطراف كالدية للنفس .

وجبل على الشهوة ، وخلق متهاوناً بواجباته ، متوانياً على إصلاح شئونه ، ونشأ على المكر والحيل ، وغرز فيه حب الاعتداء على حقوق الغير ، وعدم الاكتفاء بما ملكته يداه ، وغرس فيه بعض الشرائع والقوانين حين ما يراها سداً يمنعه عن سلوك سبيل الغدر ، وحاجزاً يردعه عن مقتضيات الشره ، وغلا يكف يديه عن التطاول .

وإنهم يفهمون أن كل ما يقع فى العالم الإنسانى من المرض والصحة والفقر والغناء ، والنصب والراحة ، بل كل ما يقتضى الشقاء والسعادة ، ويوجب الإصلاح والفساد لابد وأن يكون لإرادة الإنسان وحركاته الاختيارية فيه دخل تام .

ويدركون أن الإنسان ما دام على هذه السجية والغريزة فهو كمريض تتنازعه أمراض خطرة مختلفة لا ينجو منها إلا بتمريض طبيب ماهر يعرف العلل والعلاج ، ويتفقده آناء الليل وأطراف النهار ، فيهتمون حكمة وشفقة بتتبع أحوال الرعايا وأفعالهم وحركاتهم ، ولا ينفكون عن مقايسة آرائهم وأخلاقهم ولا يفترون عن تعديل ثروتهم وغنائهم ، وتقويم علومهم ومعارفهم ، وتجارتهم وزراعتهم ، وإحصاء عددهم وتعداد أحيائهم وأمواتهم ، ولا يتوانون عن مقابلة الصادر والوارد فى ممالكهم ، والمعادلة بين قوة حكومتهم ، واقتدارها واقتدار الغير وقوته كى يقتدروا على تدارك مصالح البلاد قبل تمكن الفساد ، ويقدروا على جبر الكسر ، وسد الثغر ، ورفؤ الخرق وإزالة جراثيم الرزايا والمصائب، وإبادة أسباب الخلل والمصاعب، وإذا لم يمكنهم القيام باستقصاء دقائق التعديل والتقويم ، وجزئيات الموازنة والمقايسة مباشرة انتخبوا رجالا يقظين عارفين بأحوال الدول وقواها ، متبصرين بشئون الممالك وأسباب سعادتها وشقائها ، عالمين بفنون التجارة والزراعة والصناعة ولوازمها ، مهندسين محاسبين لأداء هذه المصالح وتسجيلها فى السجلات بغاية الدقة والاتقان ، وعرض كلياتها على هؤلاء الولاة الحكماء مع بيان موارد النقص والخلل ، وإيضاح أسبابها وغير خاف أن تسجيل المعادلات وحفظ الموازنات للدول ألزم من تقييد التاجر معاملاته فى دفاتره اليومية ، فإنه لا يلزم من إهماله فى التقييد والتثبيت إلا أن يضيع

رأس ماله على جهل منه ، ويصبح مفلساً وهذا ضرر خاص به ، وأما إهمال الدول فى حفظ المعادلات وتسجيل الموازنات فيوجب خراب البلاد ، وهلاك العباد ، ومن أجل هذا تجد للدول الغربية عناية تامة بهذا الشأن المسمى عندهم بالاستاتستيك .

فهناك يأيها الإنسان الشرقى ، صاحب الأمر والنهى ، حكومة رحيمة حكيمة ، وعليك بهذا والقيام بشأنها ، وحفظ واجباتها ، وإلا فبحياتك التى افتديتها براحة العالم ، أن تعفونا عن تحمل ثقل تمشدقك بالرحمة والعدالة ، والحكمة والفطنة . .

أتريد أن تظلمنا ونكافئك بالشكر ! ! وتغصب حقوقنا ونجازيك بالثناء ؟ ؟ أو تظن أنك تقدر أن تغر كل العالم وتعمى بصائرهم وأن تنزل بالملك عندهم منزلة الحق ؟ ؟ وأن تجلس جورك مجلس العدل ، وأن تقيم سيئاتك مقام الحسنات ، وأن تقعد رذائلك مقعد الفضائل ، ولعلك اغتررت بتمجيد المتملقين ، وتعظيم المتبصبصين ، وتبجيل المتزلفين أمامك ...

ويحك لو كنت تعلم مقامك فى النفوس ، ومنزلتك لدى أرباب البصائر والعقول لودعت هذه الدنيا الخسيسة التى ألهتك ، وفارقت حياتك العزيزة التى طالما فاديتها بالمروءة والإنسانية .

وأما أنتم يا أبناء الشرق فلا أخاطبكم ولا أذكرنكم بواجباتكم فإنكم قد ألفتم الذل ، ورضيتم بالمعيشة الدنيئة ، واستبدلتم القوة بالتأسف والتلهف ، وصرتم كالعجائز لا تقدرون على الدرء والإقدام ، والجلب والدفاع والمنع والرفع .

فإنا لله وإنا إليه راجعـــــون .

❋ ❋ ❋

ملحق رقم (٢)

كتاب دائرة المعارف

(نشرت بالعدد رقم (٤٢) من جريدة « مصر الصادرة بتاريخ الجمعة ٢٥ إبريل سنة ١٨٧٩م – الموافق ٤ جمادى الأولى سنة ١٢٩٦ هـ) .

إن الإنسان باعتبار أقنومية المتجاذبين المتدافعين وهما جوهره النورانى ، وهيكله الهيولانى الظلمانى ينقسم إلى قسمين :

أحدهما : وهو القسم الأعظم سواداً الأكثر أفراداً وهو الذى تنقلب فيه جنبته البهيمية الظلمانية على أصله العقلى الذى به قوام إنسانيته ، فتستعمله لقضاء أوطارها من جلب الملاذ الحسية الجسدانية وتمهيد طرق الشهوات الجنسية الحيوانية فلا يهتم إلا بالمآكل والمشارب والتفنن فيها ولا يسعى إلا لتزيين الملابس ، وتشييد المساكن ، لا يدرك اللذائذ العقلية ، ولا يتطلبها ولا يسعى فى تحصيلها بل ينكرها ويسخر ويهزأ بمن يجتهد لنيلها والوصول إليها ، ولا يعقل الفضائل الحقيقية فيميل إلى التحلى بها ، ولا يفقه الرذائل فيجنح للتخلى عنها ، ولا يشتاق إلى المحامد فينزع إليها . .

وهذا القسم وإن كان على صورة الإنسان إلا أنه فى الحقيقة من البهم والعجماوات بل أحط منها منزلة فإن حيواناً ما من الحيوانات لم يهمل شيئاً مما أودع الله فيه من الخواص التى تتأدى به إلى كماله الواجب بخلاف هذا القسم من الإنسان فإنه قد أهمل أشرف خواصه وهى خاصة العقل التى بها يمتاز عن غيره من أصناف الحيوانات ، وقد ذهب عليه أن المأكل والمشرب والمسكن إنما هى مقاصد بالتبع لا بالذات يرام نيلها لاستبقاء الحياة كى يكتسب بها المعارف العقلية والملكات الفاضلة . .

والقسم الثانى : هو الذى يبتغى لذة أخرى فوق اللذائذ الجسمانية بل كثيراً ما يكف نفسه عن اللذائذ الحسية ويغادرها رغبة فى استحصال تلك اللذة وهو ينقسم إلى قسمين .

أحدهما السلاطين والأمراء وذوو المناصب والرتب فمن هؤلاء من يتقشف فى معيشته مأكلا ومشرباً وملبساً ، ويصرف فكرته آناء الليل وأطراف النهار ، ويتجافى عن مهاد الراحة والدعة إلى وهاد التعب والمشقة ، ويتباعد عن السكون والطمأنينة إلى الاضطراب والحركة ، بل قد يقتصر من لوازم حياته على الضروريات التى لا يمكن التعيش إلا بها ، ولا يبالى بفقد ما عداها من الحاجيات والكماليات ، فهو بالحقيقة معذب الجسم ، مؤلم البدن ، يحمل نفسه على تحمل كل ذلك سعياً فى توسيع الممالك ، وفتح البلدان وقهر السلاطين ، واستحصال المراتب العالية ، والمناصب السامية ، ليمكن بذلك هيبة من القلوب ، وعظمة فى النفوس ، وينال من الناس محمدة وثناء ، ويكون ذلك غاية لذته ، ومنتهى مطلوبه ولا يعدو ما سواه لذة ..

وهؤلاء وإن طلبوا لذة روحانية إلا أنهم راموها من غير وجهها ، وأتوها من غير بابها ، فإن أعمالهم هذه لا توجب توقيرهم من النفوس ، ولا انطلاق الألسنة بالثناء عليهم خصوصاً عند ذوى العقول والبصائر لما أنه لم يترتب عليها فائدة فى العالم الإنسانى ومع ذلك قد أخطأوا المرمى لأنهم قد اتخذوا لمقصدهم هذا وسائل القتل والنهب ، والقهر والسلب ، وإحقاق الباطل وإبطال الحق ، وتخريب البلاد ، وتدمير العباد ، وهذه الوسائل المشئومة قد انتزعت محبتهم من القلوب ، ونفرت منهم الطباع ، وبدلت التعظيم بالتحقر ، والمدح بالذم والثناء بالثلب لدى المعارف العامى والعالم والجاهل وها هى كتب التواريخ مشحونة بمثالبهم ومعائبهم ، وأطلال القرى ، ورسوم المدن المخضبة بدماء ساكنيها تشهد بشناعة أعمالهم ، وقبح مساعيهم ، وخروجهم عن حد الإنسانية إلى خطة السبعية والافتراس حتى ترى أن أفضلهم وأنزههم لا يوصف إلا بعدم الظلم والجور والارتشاء وغير ذلك ، وليس يخاف أن هذه الاعدام لا تعد مدائح إذ ليس لهم حق فى التعدى حتى يمدحوا بالكف عنه على أن مادحهم بهذه الاعدام لم يأتوا ذلك إلا كمدح بعض الآحاد بأنه ليس بسارق ولا مختلس مثلا : :

الثانى : الحكماء والمثقفون والعلماء المؤلفون والعرفاء المخترعون ، هؤلاء هم الذين رفضوا مقتضيات الجنبية البهيمية ، ونزهوا أنفسهم عن

الصفات الخبيثة السبعية ، وبذلوا راحتهم ، وصرفوا نفيس عمرهم فى تجلية عقولهم بأنوار العلوم الحقيقية ، والمعارف العقلية ، ونفوسهم بالصفات والأخلاق الكاملة ، بل أبت نفوسهم الشريفة ، وهممهم العلية أن تقف بهم عند هذا الحد من الكمال أعنى تحصيل الفضائل القاصرة على ذواتهم ، بل بذلوا الوسع ، وأجهدوا النفس فى نشر العلوم والآداب ، ووضع القوانين العادلة ، واختراع الصنائع النافعة ، والفنون العالية وغير ذلك مما لا يقوم للنوع الإنسانى قائم إلا به ،لا يختصون بذلك جنساًدون جنس ، ولا وطناً دون وطن ،ولا يبتغون بذلك سوى لذة الكمال العقلى،واستحصال المحمدة الحقة بما قلدوا به أعناق أفراد النوع البشرى من نتائج أفكارهم ، وآثار أعمالهم ، فصار توقيرهم فى النفوس ، وتعظيمهم فى الأفئدة فرضاً على كل شخص من النوع الإنسانى بالطبع ، إن أنكره لسانه شهدت به جوارحه وجنانه ، بل حازوا السلطنة الحقيقية فى المملكة الإنسانية لا لا يعزلون عنها بموتهم ، ولا تزول سلطتهم المعنوية الحقيقية ، ما دامت السموات . .

انظر إلى سلاطين اليونان والرومان والفرس والكلدان قد محيت أسماؤهم من صفحات الأذهان لا يطلع عليها إلا المتوغلون فى قراءة التواريخ وسير الأمم ،أما فيثاغورس وسقراط وأرسطو وأفلاطون وبزرجمهر وجاماسب فلا تزال الألسنة رطبة بذكراهم ، ناطقة بفضائلهم ومزاياهم ، والنفوس معترفة بعوارفهم ، ومذعنة بعظمتهم ، وإن هؤلاء العظماء الفضلاء من الشرقيين والغربيين فى الأزمان الغابرة ، والأوقات الحاضرة بعد حلول جميعهم من الشرف مكاناً علياً ، واستحقاقهم المحمدة الحقة والثناء الخالص ، يتفاوتون فيهما على حسب تفاوتهم فيما حازوه من الفضائل وما ترتب على مؤلفاتهم ومصنفاتهم ومخترعاتهم من الآثار والفوائد ، فمن كان منهم فى المعارف أوسع دائرة ،وبالآثار أعم فائدة ، وأتى من الأعمال ما يقيم نظام الهيئة الاجتماعية لنوع البشر ، كان أحق بالمدح وأجدر بالثناء، فيجب على كل من وضع قدمه فى أولى درجات الإنسانية أن يقدم له الشكر والثناء على قدر

طاقته قياماً بأداء الحق ، واستنهاضاً للنفوس الخاملة لأن تنال ذاك المقام الأسمى ، والشرف الأعلى . .

ولهذا رأيت من الفرض عليّ أداء الشكر ، أصالة عن نفسي ونيابة عن كل عارف باللغة العربية الشريفة أن أنشر عطر الثناء على حضرة العالم الفاضل المتبحر « بطرس أفندى البستانى » بما أودعه فى مؤلفه « دائرة المعارف» من الفوائد الجليلة والمنافع العميمة التى قلد بمنّتها أعناقنا قائلا « إن هذا المؤلف الفاضل فضلا عن سائر مؤلفاته كمحيط المحيط ،وقطر المحيط وغيرهما ، وقد أتى لنا بكتاب دائرة المعارف محيطاً بجميع ما يحتاج إليه الإنسان فى معاشه ومعاده إذ قد حوى جميع التواريخ من سير الأمم والسلاطين ، وأخبار الأنبياء والحكماء والمقدسين ، وجغرافية البلاد وعلوم الطبيعة والكيمياء والنباتات والحيوانات والحساب والجبر والهندسة والفلك وغير ذلك من الفنون الجميلة ، فمن وهبه الله أدنى عقل غريزى وكان له أقل إلمام بمبادىء العلوم فله أن يستغنى بهذا المؤلف عن تجشم الجلوس بين يد الأساتذة لأن صعوبة العلوم بصعوبة الوقوف على اصطلاحاتها ، وهذا الكتاب قد كشف حجاب الخفاء عن جميع الاصطلاحات بأوضح بيان ، وألطف عبارة ، وأرق إشارة ، غير أننى مع ذلك لا أتمالك أن أظهر أسفى من أن هذا المؤلف لم يبرز بتمامه فى عالم الوجود ، ولست أتوهم أنه من فتور فى همة المؤلف الفاضل ، ولكنه لقصور فى رغبة الشرقيين فنوجه إليهم الخطاب قائلين :

يا أبناء الشرق .. أفلا تعلمون أن سلطة الغربيين وسيادتهم عليكم إنما كانت بارتفاع درجتهم فى العلوم والمعارف ، وانحطاطكم فيها ، فلم لا تتقد أحشاؤكم بنيران الشوق لهذا المؤلف البديع وأمثاله حتى يبرز بمعدات رغبتكم ، وكمال شوقكم من عالم القوة إلى الفعل : هل رضيتم بعد ما كان لكم ذروة الشرف بواسطة العلوم والمعارف أن تدوم لكم تلك الحالة الوخيمة التى أوصلتكم إليها الجهالات والضلالات حتى عادت ترق لكم قلوب الأعداء فضلا عن الأصدقاء . . فهلموا لاقتناء المؤلفات ، واقتناص صيد المعارف ، واعتصموا بعرى الاجتهاد فى نيل العلوم ، واستضيئوا بسنا الحق ، لتسترجعوا مجدكم وتنالوا استقلالكم ، فتفوزوا مع الفائزين .

❋ ❋ ❋

ملحق رقم (٣)

خطبته بالإسكندرية

(نشرت بالعدد رقم (٤٧) من جريدة « مصر » الصادرة بتاريخ السبت ٢٤ مايو سنة ١٨٧٩م – الموافق ٤ جمادى الآخرة سنة ١٢٩٦ ﻫ) .

وجاء فيها ما يلى :

(مقدمة جريدة مصر)

فى عشية يوم الجمعة الماضى ، وفد على الإسكندرية سيدنا فهرست كتاب الكمال ، وفذلكة حساب الجلال ، أستاذنا الأجل الفيلسوف الأكبر – السيد « جمال الدين الأفغانى » فابتسم له الثغر عن درر الهناء به ، وغرر الثناء عليه ، وسعى إليه النبهاء والوجهاء وما من جارحة فيهم إلا وهى تود لو كانت أذناً فتلقط دررە وجواهره أو عيناً ليتجلى مطالعه ومناظره ، وأعد له وجهاء الثغر وفى مقدمتهم جناب الفاضل الوجيه الحريص على حب العلم ورجاله جبرائيل أفندى المخلع ، وجناب المكرم نجل البارون دى منشى مآدب فائقة الحسن والظرف تأخذ باللب والطرف ، جامعة لمحاسن الكمالات ، وكمالات المحاسن ، متوفرة أسباب الهناء والسرور ، كاملة وسائل الأنس والحبور بما أبدى الوجهاء المشار إليهم من اللطف والإكرام ، بل كانت مجالس فضل وإفادة تلتقط بها الأسماع مما يلقيه سيدنا الأستاذ المشار إليه درر الكلمات التى هى وسائط الآداب ، وصياقل الألباب . .

ثم اتصل ببعض شبان الإسكندرية الوجهاء النبهاء خبر قدوم سيدنا الأجل المشار إليه إلى الإسكندرية ، فوفدوا عليه ليمتعوا الأبصار بأنواره كما تمتعت الأسماع بأخباره ، ثم سألوه أن يخطب فيهم خطبة عمومية يستفيدون من بيانها حكمة وأدباً ، فأجابهم إلى ذلك وخرجوا من لدنه يطلقون ألسنتهم بالثناء إليه ، ثم شكلوا لجنة منهم للاهتمام بشئون محفل الخطاب ، فاستقر رأيهم على أن يكون ذلك فى مساء الأربعاء فى قاعة زيزينيا ، ورفعوا الأمر إلى حضرة أستاذنا المشار إليه ، فوافق عليه ، ثم رأى أن يجعل لهذا السعى أثراً مفيداً

حسياً فضلا عن أثره الأدبى المعنوى بأن يكون الدخول لذلك المحفل بأوراق ، تعين قيمتها لإعانة فقراء الإسكندرية ، وكلف أعضاء اللجنة بذلك ، فتر طبت ألسنتهم بالشكر له . .

وفى مساء الأربعاء الماضى كانت قاعة زيزينيا محفلا لنبهاء الناس أحدقت فيهم الأعين من الحجرات والمقاعد بروح الفضل والحكمة ، المتجسم فى ذات سيدنا الأستاذ ، وانفتحت الأسماع لالتقاط در ألفاظه الحكيمة ، والتشنف بجواهر أقواله الفلسفية ، فقام أعزه الله فى ذلك الجمع خطيباً يصقل الألباب ويمهد مناهج الآداب بالكلام البرىء من الكلف ، حتى تمنت الجوارح لو كانت كلها آذاناً تلتقط درر حكمته ، وودت الأعضاء لو كانت بأسرها عيوناً تتمتع بأنوار رؤيته ، وقد وعينا من نطقه الكريم ملخص خطابه الفائق الوضع ، الجيد الوقع ، الذى ارتفع له حجاب السمع ، وانخفض له جانب الطبع ، فأثبتناه مع الاعتراف بانحطاطه عن الأصل ، فما هو إلا رسم لحقيقة ذلك الخطاب ، وشتان ما بين الحقيقة والرسم :

خطبته

يا أيها السادة ، ويا أيتها السيدات . .

أرى من الواجب علىّ أولا أن أثنى على الجراثيم الشريفة الشرقية التى مضت عليها الدهور ، ومرت العصور ، وهى فى حالة الكمون لمنع الموانع الخارجية ، وقسر القواسر الداخلية ، ومع ذلك لم تفقد مزاياها العالية ، ولم تعدم سجاياها السامية ، بل برزت ونمت فرأينا أصولها الشريفة سادة شرفوا هذا المحضر لإعلاء كلمة العلم ، ورفع منار المعارف ، وتأييد أمر الفضل ، اعتقاداً أن العلم سلطان عادل حكيم إذا حل ببلد قوم تبعه الغنى والثروة لأنهما لا يحصلان إلا بالتجارة والزراعة والصناعة التى لا تحصل إلا بالعلم ، ولزمه الطمأنينة والراحة لأنه يعين الحدود ، ويبين الحقوق ، فيكون لكل الناس حظ لا يتخطاه ، وحد لا يتعداه ، ووليته الحرية لأنه يبين للإنسان مقدار نفسه ، فيعرف بذلك قدر غيره ولا يخضع لمن يتوهم فيه السيادة خضوعاً أصم ، ولا يطيع لمن يعتقد به الرئاسة طاعة عمياء ، فلا يأخذ

إلا بالقانون ولا يدين إلا للشريعة ، وتلته الشفقة لأنها لا تحصل إلا بأن يدرك الإنسان ما ألم بغيره من المصائب إدراكاً يجسم ذلك فى خياله حتى كأنه يشعر بألمه ، وهذا الإدراك هو عين العلم . . . علماً بأن الجهل سلطان غشوم جاهل يتبعه الفقر والفاقة ، ويواليه الارتباك والاضطراب ، ويألفه الذل والعبودية ، وتلزمه القسوة والشراسة ، ولذلك فإنى أقدم الشكر للأفاضل الكرام الأرومات الشرفاء الأصول الذين اجتمعوا فى هذا المقام لإحياء العلم الموجب لتلك المزايا ، ودفع الجهل الداعى لهذه المصائب ...

وثانياً.. إنه لمعلوم أن الأمة المؤلفة من طبقات الناس تمثل الشخص الواحد، المؤلف من الأعضاء والجوارح ،فكما أن قوام الأعضاء ونموها ، يكون بالقوة الحيوية تقوى بازديادها وتضعف بضعفها على نسبة واحدة ، كذلك جسم الأمة لا تحصل لطبقاته القوة إلا بروحه الحيوية التى هى عبارة عن الميل إلى المعالى ، والشوق إلى الكمالات ، وليس يخاف عنكم ما ألم بروح الجنسية فى الأمم الشرقية من الضعف والوهن المستلزم لضعف سائر الطبقات ، فلا تؤاخذوا من قام فيكم خطيباً أن رأيتم فى صوته تهدجاً ، وفى عبارته قلقاً ، وفى معانيه اضطراباً ، فما الخطباء إلا من طبقات الأمة التى ألم الضعف بروحها الكلى فسرى إلى طبقاتها وأعضائها ، ولهذا فإذا رأيتم فى خطابتى نقصاً فلابد من التجاوز عنه لكونى رجلا شرقياً . . .

وإذا تقرر لى ذلك فإنى أشرع فى بنيان المطلب فأقول :

لا أريد أيها السادة أن أذكركم بمجد آبائكم الكرام ، وأنكم إما أن تكونوا من أبناء المصريين ، أو من حفدة الفينيقيين ، أو من سلالة الكلدانيين ، وإن المصريين قد بلغوا من الهندسة ذروتها ، ومن الحساب غايته ، ومن المساحة قاصيتها ، ومن فن جر الأثقال منتهاه ، وعلموا اليونان الحكمة والفلسفة ، بل أن شخصاً واحداً منهم قد بعث فى اليونان روح المعرفة ، وعلمهم فن تدبير المنزل على حين كانوا همجاً متوحشين ، وأبان لهم كيفية الزراعة والصناعة على حين كانوا يتعيشون بالصيد والقنص، وأن جل علمائهم ، ومعظم حكمائهم لم ينالوا الفلسفة إلا بما تعلموه فى مدرسة مصر العظيمة . . .

ولا أذكركم بالفينيقيين وأنهم وضعوا أصول الصناعة، وخاضوا عباب البحار ، وكانت إنجلترا واليونان من مستعمراتهم ولا تزال أسماء بلاد أسبانيا (وسلانيتا) شاهدة بأنهم رفعوا على تلك الأقطار ألوية تمدنهم ، وأن أهلها كانوا لا يعرفون الصناعة ولا التجارة ، بل كانوا يقدمون لجدودهم كنوز الطبيعة ومعادنها الثمينة ليأخذوا منهم الأقمشة والآلات ، وسائر ما يحتاجون إليه ، وأنهم علموا اليونان الخط وكان أعظم حكمائهم منسوباً إليهم وهو (تاليس الصورى) ولا أعيد ذكر الكلدان جدودكم الأول الذين أنشأوا صناعة النحت ، وقسموا الفلك بالدوائر ، وعرفوا معول النهار ومنطقة البروج، ودائرة نصف النهار ، ووضعوا الإسطرلاب ، وعرفوا القطب ، واخترعوا الكرة ذات الحلقتين ، لا أذكركم بجميع ذلك لأنكم تعلمونه علم اليقين ، ولا تخافون فيه منكراً أو معترضاً ، فإن الهرمين والمسلات وأعمدة الكرنك تفقأ بأصابعها الدهرية أعين المعترضين الذين يرمون الشرقيين بالهمجية والنقص فى النظرة ، وأن تلول نينوى وأطلال صور وبعلبك ومنفيس وثيبة ما بقيت إلا لتثير الغبار على أبصار المنكرين الذين ينظرون إلينا بعين الاستخفاف والاحتقار ، وإنما أريد أن أعطف نظركم إلى حالتنا الحاضرة فإنكم تعلمون بما حصل لنا من الانحطاط ، وما حاق بنا من الذل والهوان ، وأن النوائب قد خفضت منارنا ، والأجانب اقتسمت ديارنا ، ولا شك أن هذا حادث من الحوادث فلابد له من علة يوجد بها ويعدم بعدمها ، وبعبارة ثانية إنه قد وضع فى دائرة الوجود عوالم متعددة ولكل منها مركز يكون بمنزلة شمس تجذب توابعها بحبال الجذبات اللستيكية التى تدفع تارة وتجذب أخرى وترسل إليها رسل الأشعة حاملة عناصر الحياة ، وإنه قد وضع فى كل نبات وفى كل حيوان من التغذية ما هو حافظ لنفسه ومن التوليد ما هو حافظ لنوعه ، ولا شك أن ما وضع فينا من قوى الإدراك لم يكن إلا لننال مرادنا من السعادة فلابد أن يكون لحرماننا من تلك الأمنية مانع ، وإذا سبرنا الموجودات سبراً فلسفياً فلا نجد لتأخرنا غير سببين أصليين هما : التعصب ، والاستبداد .

فأما الأول فهو عبارة عن سوء استعمال الدين ، فإنا إذا نظرنا بعين المتأمل البصير إلى الشارعين من عهد « مهاديو » إلى « زردشت» إلى«موسى» إلى « عيسى » إلى « محمد » (ﷺ) لا نجد فى شرائعهم إلا الدعوة لمعرفة مبدأ حق وهو الله،والحث على الفضائل وفعل الخير والزجر عن الرذائل والشرور وبعبارة ثانية لا نلتى بها إلا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولكنا إذا نظرنا إلى الكثير من الذين تبعوهم فإنا نراهم قد استعملوا تلك الشرائع للشقاق والنفاق ، واتخذوها وسائط لإضرام الفتن ، ووسائل لإلقاء المحن حتى أمكن للشاعر العربى أن يقول :

إن الديانات ألقت بيننا إحناً وأودعتنا أفانين العداوات

وما مثل هؤلاء إلا كمثل رجل قلد السيف لقتل الأعداء فاستعمله فى قتال الأحباء ، فلبئس ما كانوا يفعلون . . .

وأما الاستبداد فهو أن تكون أمة من الأمم مقيدة بسلسلة رأى واحد من الناس لا تتحرك إلا بإرادته ولا تفعل إلا لرضاه ، فإذا كانت الأمة على هذه الصورة لزمها لا محالة أن يصرف كل منها ما أودع فيه من العقل والذكاء لمرضاة شخص واحد فيكون الكل فانياً فيه ، ومن المعلوم أن الرجل الواحد لو انفرد فى العقل والذكاء والهمة وعلو النفس لا يستطيع جلب السعادة لنفسه فضلا عن جلبها لأمة كبيرة . وهاهنا يمكن لى أن أبشركم بأن قد زال عنا هذا المانع بما نلناه من الحكومة الشورية فلم يبق إلا أن تسعوا فى صيانتها وتأييدها ، ولا تكتفوا بمجرد حصولها إذ لا يخفى عنكم أن الحكومة هى كسائر الأجسام الطبيعية والاجتماعية ، فلابد لها من استمداد الغذاء الجديد وإلا فإنها تزول كغيرها من الأجسام بما يطرأ عليها من التحليل .

وحيث إنا شعرنا بالألم ، وعلمنا بسقوطنا فى هذه المهواة ، وأن أنفسنا تميل إلى الخروج منها فلابد لنا من البحث عن الدواء الحقيقى لهذا الداء الحادث ، فإذا رجعنا إلى بصيرتنا النورانية وفطرتنا الأصلية علمنا بأنه لا يمكن الخروج عن هذه الحطة إلا بالسبب ، فإن المتحرك لا يسكن ، والساكن لا يتحرك

إلا بالعلة ، ولا أرى لخروجنا من علة سوى الغيرة ، فهى المحركة للنفوس الداعية إلى المجاراة والمباراة والباعثة على الاهتمام والإقدام على قدرها تأتى العزيمة ، وترتفع القيمة ،وعلى حسب تأصلها فى الأنفس وضعفها يكون صعود الأمم إلى معارك العز والثروة ، وهبوطها إلى دركات الذل والفاقة .

ولا شك أن الغيرة لا تحصل إلا بحزب من الوطنيين يعلمون أن لا شرف لهم إلا بجنسهم ، ولا قوة لأمتهم ولا فخراً إلا بوطنهم ، وأنهم إذا أرادوا تحصيل الشرف بالانتماء إلى غيرهم يكونون بمنزلة الرقعة فى الثوب الجديد ، أو بمنزلة العبد الذى يفتخر بسيده ، ولهذا أرجو منكم أيها السادة أن تقيموا حزباً وطنياً يصون لوطنكم حقوقه ، ويحفظ عليه بهاءه ، على أنى لا ألومكم على انتماء بعضكم إلى الأجنبيين فإن ذلك لم يكن إلا فراراً من الظلم ، وحرصاً على الحقوق الإنسانية والمدنية ، ولكنى أومل منكم أن تؤيدوا أمر الوطن ، وتشيدوا فيه الحكومة الشورية ليستقيم أمر العدل والإنصاف ، فلا يعود بكم من حاجة إلى حماية الأجنبى بل تمزقوا أوراق الانتماء ، وتذاكر الحمايات حتى يكون شرفكم منكم وإليكم ، وحمايتكم فى ظل قوانينكم ، ولا تكونوا رقعة بالية فى ثوب الأجنبى الجديد ...

ولا شك أنكم تعلمون أن الحزب الوطنى لا تحصل له القوة ولا يكون له البقاء ما لم يكن لأهل الوطن لغة جامعة مهذبة التراكيب جيدة الأساليب ، فإن لم يكن لهم ذلك ، لا تستقر فيهم المعارف ولا تقيم بأحيائهم العلوم ، وإن ذهب جماعة كثيرة منهم إلى أوروبا ، وتعلموا اللسان الأجنبى ، فإن معارفهم المكتسبة تكون سريعة الزوال ، ووطنهم يكون كالبلد الذى لا ماء فيه يجلب لأهله الماء من ضواحيه ، فهو عرضة للظمأ وسوء الحال ، وأهله على شفا الاضمحلال .

فإن سأل سائل كيف يمكن بث الغيرة ، وإنشاء الحزب الوطنى ، وإحياء اللغة قلنا : إن معظم الأسباب الموجبة لحصول هذه المزايا إنما هو إنشاء قاعة للخطابة يقوم فيها الخطباء الألباء ، وينطقون عن الغيرة والحمية بما يبين لنا الحقوق ، ويعين الواجبات ، ويذكرنا بمجد آبائنا ، وذل

أبنائنا ويرينا حالة الأجنبيين وما هم عليه من القوة والثروة والمجد والسطوة ، فنعلم أسباب السقوط ووسائل الهبوط ، ويتبع ذلك إنشاء الجرائد الحرة القائمة بأمر الوطن الآخذة بأطراف الحق ، فإنها تقرب الأقصى باللفظ الموجز ، وتنبىء بأخبار السلف ، وتبين لنا أحوال جيراننا ، فترينا المصالح والمفاسد لنجتلب تلك ، ونتجنب هذه ، ولا شك أنه لابد فى عالم المدنية من كل منهما ولا يمكن البلوغ إلى غاية السعادة إلا بهما ، ولا فرق بينهما ، إلاأن الخطابة تحرك الدم بحركة الخطيب ، وقوة المشافهة ، وأن الجرائد تثبت المطالب فى الأذهان بإعادة النظر إلى ما أثبت فى الصحائف .

ولكنى أجلكم أيها السادة عن أن تحسبوا أنكم تنالون مزايا المدنية ، وتحوزون المعارف والعلوم ، وتستكملون أسباب التقدم والسعادة ، وتبلغون ذروة المجد والشرف إن كان العلم فيكم مقصوراً على الرجال . . بل أعيذكم من أن تجهلوا أنه لا يمكن لنا الخروج من خطة الخسف والجهل ، ومن محبس الذل والفاقة ، ومن ورطة الضعف والخمول ، ما دامت النساء محرومات من الحقوق ، وغير عالمات بالواجبات ، فإنهن الأمهات اللواتى تصدر عنهن التربية الابتدائية ، والأخلاق الأولية ، ولا شك أن أول ما ينقش فى لوح ذهن الإنسان يكون ثابتاً صعب الزوال ، وقد قيل « العلم على صغر كالنقش فى الحجر » وأقول إن هذا النقش هو السبب الأصلى فى اختلاف المذاهب ، وتنوع المشارب ، فإن وجدت فيه الكدورة فلا صفاء فى الذهن ، ولا سلامة فى المشرب ، ولكن إذا كانت الأمهات عالمات عارفات بحقوق الإنسانية ، متأدبات على ما تقتضيه أحكام الشرف والمدنية ، فلا شك أن أولادهن يخلقون بأخلاقهن ، ويكتسبون منهن تلك المزايا الفاضلة ، وعندى أنه إذا حصل التساهل فى تربية المرأة وكان رجال الأمة جميعاً راسخين فى العلم والمعارف ، مترقين فى درجات الكمال ، فلايمكن بقاء الأمة على تلك الحال المكتسبة إلا مدة بقاء أولئك الرجال ، فإذا انقرضوا ، وخلفهم الأبناء المتخلقون بأخلاق أمهاتهم على ما بهن من النقص فى الكمالات العلية ، رجعت أمتهم إلى ما كانت عليه من الخسف وسوء الحال ...

أقول هذا وفى يقينى أن حلمكم يقينى الملام ، وأن تلطفكم يضمن لى حسن الختام . . . . اهـ . . .

❋ ❋ ❋

ملحق رقم (٤)

شباب الإسكندرية

(نشرت بالعدد رقم (٢٦) من جريدة « مرآة الشرق» الصادرة بتاريخ : ٢١ مايو سنة ١٨٧٩م الموافق ٣٠ جمادى الأولى سنة ١٢٩٦ هـ ؛
وبالعدد رقم (٤٨) من جريدة « مصر » الصادرة بتاريخ : ٣٠ مايو سنة ١٧٩٨م الموافق ٩ جمادى الآخرة سنة ١٢٩٦ هـ) :

وجاء فيها ما يلي :

كثيراً ما كنت أجيل أفكاري ، وأردد خواطر اعتباري فى أحوال الشرقيين الذين هم آلى وبنو آبائى ، وسعادتى بسعادتهم ، وشقائى بشقائهم ، وما وصلوا إليه من رداءة الأحوال وغاية الانحطاط ، والتردى فى مهاوى الشقاء ، وانفتاح أفواه طمع الغربيين لالتقامهم ، والتهام ما بأيديهم ، وامتداد سلطتهم فى بلادهم ، وكنت فى حيرة أطلب الوسائل لخلاص أهالى تلك البلاد مما هم فيه والارتفاع بهم من تلك الدركات إلى أعلى الدرجات ، فكانت تعيينى الحيل ، وتتقطع بين يدى الأسباب ، وكان أسفى يزداد عندما أنظر ذاك المجد القديم الذى كانت تلك البلاد متوجة به ، وتيجانها مكللة بفخره ، وكان يأسى يغالب رجائى ،وقنوطى يغالب أملى،والأولان يغلبان ، إلى أن اتفق لى السفر إلى مدينة الإسكندرية من بضعة أيام ، فلما وردت إليها وجدت شبانها على غاية من الفضل والكمال وكرم الأخلاق، ولطف السجايا ، وشدة الشوق إلى المعالى ، والتولى إلى نبيل المجد الحقيقى ، وفى أسمى درجات الشغف بإحياء الوطن ، وإعلاء كلمة الأمة ، ورفع لواء مجدها وفخرها مع ما هم فيه من الغنى والثورة وترفر دواعى الترف والانغماس فى النعيم وغير ذلك من الأسباب التى لو اجتمعت لشيخ عمر ألف سنة لاجتذبته إلى اعتناقها ، وألهته عن النزوع لسواها فضلا عن فتيان هم فى عنفوان شبابهم ، فقد غضوا أبصارهم عن جميع ما يملكون من القصور المشيدة ، والجواهر الثمينة والأموال الوافرة ، وولوا وجوههم نحو اكتساب الشرف وبقاء الذكر الجميل،وتعالت هممهم عن أن تميل إلى اللذات الفانية ، والزخارف البالية ، وأخص من بينهم شبان آل بيت منشة ،

وآل بيت الكونت زغيب ، وآل بيت المخلع ، وآل بيت قطة ، وآل بيت سرسق، وهم من قد بلغوا من المجد ذراه ، ومن الفخار والفضل قصاراه ، ومن حسن التربية أعلى درجاتها ، ومن الهمم العلية أقصى غاياتها ، فعند ذلك استظهر رجائى على يأسى ، وأملى على قنوطى ، وظننت بل أيقنت أن سيكون للأمة الشرقية شأن فى أقرب زمان ، فليستبشر الوطن وبنوه بالظهور بعد الخمول ، والصعود بعد الهبوط ، وبالسعادة بعد الشقاء ، بل بالبعثة بعد الفناء ، ولا أشك أن الشرقيين بما ينالون من نتائج مساعيهم ، وما يجتنون من ثمرات جدهم واجتهادهم ، سيقيمون لهم تماثيل على أطلال مدينة منفيس بمصر وربوات صور وتدمر ، وعلى هضاب نينوى وبابل تخليداً لأسمائهم ، وتذكاراً لآثارهم ومجد آبائهم وأسلافهم .

ورجاؤنا أن يقتدى سائر الشباب الشرقين بهؤلاء العظماء الفضلاء وأن يتخذوهم قدوة لأنفسهم كى يفوزوا مع الفائزين .

* * *

تعليق :

نشرت جريدة « مرآة الشرق » فى العدد رقم (٢٧) ما يأتى :

إن ضيق المقام فى العدد الماضى من المرآة فوّت عليها أمراً عظيما وهو أن تشفع نبذة أستاذنا ومولانا الأجل « السيد جمال الدين » فيما شاهده من شبان الإسكندرية من علو الهمة بما يناسب المقام من الثناء على أولئك الشبان خصوصاً من خص بالذكر منهم ، فإنهم أولى بثناء الجرائد الأهلية ، بل أخلق بأن تشكرهم الإنسانية وبنوها على تلك الهمة التى صرفوها فى تحسين أحوال وطنهم ، وتخليص بنيه من ورطة الانحطاط شأن الأعاظم الذين علموا معنى الوطن وما هى محبته ، فقاموا بما وجب عليهم له ، ولقد كان فى نشر ما شاهده أستاذنا منهم باعثاً بعث فى أبناء المحروسة من الغيرة التى هى أساس الأعمال ما حملهم على أن يجاروهم ، ويحذوا حذوهم . . . جزا الله أولئك الشبان عن الإنسانية أحسن الجزاء ، فإنهم وفوا بحث رعايته ، وقاموا بغرض خدمتها ، فنثنى عليهم ثناء ، كما أثنت عليهم هممهم العالية .

* * *

مراجع الكتاب

أولا – كتابات جمال الدين الأفغانى :

١ – العروة الوثقى : بالاشتراك مع الشيخ محمد عبده (١٨ عدد، صدر العدد الأول منها فى ٥ جمادى الأولى ١٣٠١ هـ الموافق ١٣ مارس ١٨٨٤م ، طبعتها المكتبة الأهلية فى بيروت (١٣٥١ هـ – ١٩٣٣ م) .

٢ – الرد على الدهريين : نقلها من الفارسية إلى العربية الشيخ محمد عبده بمساعدة عارف أبى تراب الأفغانى .

٣ – تتمة البيان فى تاريخ الأفغان .

٤ – خاطرات جمال الدين : جمعها محمد المخزومى باشا ، المطبعة العلمية ليوسف صادر ، بيروت ١٩٣١ م .

٥ – القضاء والقدر : مطبعة المنار بالقاهرة (بدون تاريخ) ، وبها مقدمة عن تاريخ حياته .

٦ – مجموعة مقالات نشرت بجرائد : مصر والتجارة ومرآة الشرق، ثم جمعت فى كتاب تاريخ الأستاذ الإمام ، الجزء الأول .

٧ – جريدة مصر : المجلد الأول للسنة الثانية (من ٤ يوليو ١٨٧٨ م – ٢٧ يونيو ١٨٧٩ م) ، قسم الدوريات بمحفوظات دار الكتب بالقاهرة .

٨ – جريدة مصر : المجلد الثانى للسنة الثالثة (من ٤ يوليو ١٨٧٩ م – ١٤ نوفبر ١٨٧٩م) ، قسم الدوريات بمحفوظات دار الكتب بالقاهرة

٩ – جريدة مرآة الشرق : السنة الأولى (من ٢٨ إبريل ١٨٧٩ م – ٢١ أغسطس ١٨٧٩ م) ، قسم الدوريات بمحفوظات دار الكتب بالقاهرة .

ثانياً – كتابات الشيخ محمد عبده :

١٠– الإسلام والرد على منتقديه ، المطبعة الرحمانية ، ١٩٢٨ م .

١١– الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ، المنار ، ١٣٦٧ هـ .

١٢– رسالة التوحيد : الطبعة الثانية ، المطبعة الخيرية ، ١٣٤٣ هـ .
١٣– تفسير سورة العصر، وخطاب عام فى التربية والتعليم ، القاهرة ١٣٢١ هـ – ١٩٠٣ م .

ثالثاً – مراجع عامة :

١٤ – إبراهيم عبده (دكتور) : أعلام الصحافة العربية ، القاهرة ، مطبعة التوكل ، سنة ١٩٤٤م .
١٥ – « « « : تطور الصحافة المصرية ، مكتبة الآداب ، سنة ١٩٥١م .
١٦ – « « « : أبو نظارة ، مكتبة الآداب، ١٩٥٣م .
١٧ – أبو الأعلى المودودى : منهاج الانقلاب الإسلامى ، معرب عن الأوردية ، مطبعة دار الكتاب العربى ، ١٣٧٠هـ .
١٨ – أبو الحسن على المودودى : شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال ، دار الفكر العربى ، ١٩٥١م .
١٩ – أحمد عرابى : مذكرات عرابى فى جزئين ، طبعة دار الهلال .
٢٠ – إسماعيل مظهر : وثبة الشرق ، دار العصور للطبع والنشر ، ١٩٣٩م .
٢١ – السيد البشير التونسى : العالم الإسلامى ، مطبعة توسيع طباعت بدار الخلافة الإسلامية ، ١٣٣٠هـ – ١٩١٢م .
٢٢ – ألماوتان (دكتورة) : عبد الحميد ظل الله على الأرض ، ترجمة راسم رشدى ، دار النيل للطباعة ، ١٩٥٠م .
٢٣ – أمين سعيد : الدولة العربية المتحدة ، القاهرة ، مطبعة عيسى البابى الحلبى ، ١٩٣٨م .
٢٤ – بلنت : التاريخ السرى لاحتلال إنجلترا مصر ، ١٩٣٣م .
٢٥ – تشارلز آدمز : الإسلام والتجديد فى مصر ، ترجمة عباس محمود ، لجنة دائرة المعارف الإسلامية ، ١٩٣٥م.

٢٦ — تيودور روتشتين : تاريخ المسألة المصرية ١٨٧٥ — ١٩١٠م ، ترجمة عبد الحميد العبادى ومحمد بدران ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٥٥هـ — ١٩٣٦م .

٢٧ — جورج سارتون : الشرق الأوسط فى مؤلفات الأمريكيين ، جمع : مجيد خدورى وآخرون ، مكتبة الأنجلو المصرية ، سنة ١٩٥٣م .

٢٨ — جورجى زيدان : مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر ، الجزء الثانى ، وبه ترجمة لحياة جمال الدين ، مستخرجة من الهلال ، عدد أول إبريل ١٨٩٧م ، ونشرت أيضاً فى صدر رسالة الرد على الدهريين .

٢٩ — حسين فوزى النجار (دكتور) : السياسة والاستراتيجية فى الشرق الأوسط ، الجزء الأول ، مكتبة النهضة ، ١٩٥٣م .

٣٠ — حسين مؤنس (دكتور) : الشرق الإسلامى فى العصر الحديث ، الطبعة الثانية ، مطبعة حجازى ، ١٩٣٨م .

٣١ — ساطع الحصرى : محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، مطبعة الرسالة ، ١٩٥١م .

٣٢ — عبد الجواد سليمان : الشيخ محمد عبده ، مطبعة مخيمر .

٣٣ — عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل فى جزئين ، القاهرة ، ١٩٤٨م .

٣٤ — « « « : الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى ، مطبعة النهضة ، ١٩٣٧م .

٣٥ — « « « : مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال من ١٨٨٢ — ١٨٩٢م .

٣٦ — « « « : جمال الدين الأفغانى ، باعث نهضة الشرق سلسلة أعلام العرب ، العدد (٦١) ، ١٩٦٦م .

٣٨ — عبد الغنى اللقانى : الخلافة وساطة الأمة ، منقول عن التركية ، مطبعة الهلال ، ١٩٣٤م .

٣٧ — عبد القادر المغربى : جمال الدين الأفغانى ، ذكريات وأحاديث ، دار المعارف ، يوليو ١٩٤٨م .

٣٩ — عبد اللطيف حمزة (دكتور) : أدب المقالة الصحفية ، الجزء الثانى ، دار الفكر العربى ، ١٩٥٠م .

٤٠ — عبد اللطيف حمزة (دكتور) :أدب المقالة الصحفية،الجزء الثالث، دار الفكر العربى ، ١٩٥١م .

٤١ — عبد اللطيف حمزة (دكتور) :أدب المقالة الصحفية،الجزء الرابع ، دار الفكر العربى ، ١٩٥١م .

٤٢ — عبد اللطيف حمزة (دكتور) :أدب المقالة الصحفية،الجزء الخامس، دار الفكر العربى ، ١٩٥٢م .

٤٣ — عبد الله نديم : سلامة النديم ، جمعها عبد الفتاح نديم ، القاهرة ، ١٩٠١م .

٤٤ — عبد المتعال الصعيدى : المجددون فى الإسلام من القرن الأول إلى الرابع عشر الهجرى ، المطبعة النموذجية .

٤٥ — عبد المنعم حمادة : الأستاذ الإمام محمد عبده ، المكتبة التجارية ، ١٩٤٥ م .

٤٦ — عبد الوهاب عزام (دكتور) : محمد إقبال ، مطبوعات باكستان ، ١٩٥٤م .

٤٧ — عثمان أمين : محمد عبده ، سلسلة أعلام الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، يوليو ١٩٤٤م .

٤٨ — عمر الدسوقى : فى الأدب الحديث ، الجزءان الأول والثانى ، دار البيان العربى ، ١٩٥١م .

٤٩ — فيليب دى طرازى : تاريخ الصحافة العربية ، الجزء الثانى ، بيروت ، ١٩١٣م .

٥٠ — فيليب حتى وآخرون : الإسلام فى نظر الغرب ، ترجمة الدكتور إسحق موسى الحسينى ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٥٣م .

٥١ — كرومر : عباس الثانى ، مطبعة التوفيق بمصر .

٥٢ — كمال الغالى (دكتور) : ميثاق جامعة الدول العربية ، دار الفكر العربى ، ١٩٤٨م .

٥٣ — لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى ، الجزءان الأول والثانى .

٥٤ — محمد حامد الفقى : أثر الدعوة الوهابية فى الإصلاح الدينى والعمران فى جزيرة العرب وغيرها ، مطبعة النهضة ، ١٣٥٤هـ .

٥٥ — محمد حسن الأعظمى : القائد الأعظم وقصة الباكستان ، مطابع دار الكتاب العربى .

٥٦ — محمد حسن الأعظمى : فتى الهند وقصة الباكستان ، الجزء الأول ، دار الفكر العربى .

٥٧ — محمد محمد حسين (دكتور) : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ، الجزء الأول ، مكتبة الآداب ، ١٩٥٤م .

٥٨ — محمد رفعت : التيارات السياسية فى حوض البحر الأبيض ، لجنة البيان العربى ، ١٩٤٩م .

٥٩ — محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، المنار ، ١٣٥٠هـ — ١٩٣١م وبه ترجمات لحياة جمال الدين كتبها أديب إسحق ، وسليم العنحورى .

٦٠ — محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، الجزء الثانى ، الطبعة الثانية ، المنار ، ١٣٤٤هـ .

٦١ — محمد سلام مدكور : جمال الدين الأفغانى ، باعث النهضة الفكرية فى الشرق ، أكتوبر ١٩٣٧م .

٦٢ — محمد فؤاد شكرى (دكتور) : السنوسية دين ودولة ، دار الفكر العربى ، ١٩٤٨م .
٦٣ — محمد مصطفى صفوت (دكتور) : الاحتلال الإنجليزى لمصر وموقف الدول الكبرى إزاءه ، دار الفكر العربى ، ١٩٥٢م .
٦٤ — نبيه أمين فارس : من الزاوية العربية ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٥٣م .
٦٥ — نقولا زيادة : العروبة فى ميزان القومية ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٥٠م .
٦٦ — وايت : سياسة الأتراك والخلافة ، تعريب محمد صفا « بك » ، كتبخانة إقبال ، ١٣٣١هـ .

رابعاً — دوريات :

٦٧ — الكاتب المصرى : المجلد الأول ، عدد ٤ يناير ١٩٤٦م ، مقال عن « الجامعة العربية ومقوماتها » للدكتور سليمان حزين .
٦٨ — الكتاب : المجلد الأول ، مقال عن جمال الدين الأفغانى ، للدكتور عثمان أمين .
٦٩ — الكتاب : فبراير ١٩٤٨م ، مقال عن أديب إسحق لمارون عبود .
٧٠ — الكتاب : إبريل ١٩٤٨م ، مقال عن جامعة الدول العربية لنجيب خدورى .
٧١ — رسالة الباكستان : عدد ١٢٣ ، ١٢٤ .
٧٢ — رسالة الباكستان : عدد خاص بإقبال ، أول مايو ١٩٥١م .
٧٣ — رسالة الباكستان : عدد خاص ، ١٤ أغسطس ١٩٥٤ .
٧٤ — رسالة الباكستان : العدد ٦٦ ، محمد إقبال شاعر الباكستان ، ١٤ أغسطس ١٩٥٢م .
٧٥ — إذاعة باكستان : عدد خاص عن إقبال .
٧٦ — أفغانستان : العدد الأول ، ١٠ مايو ١٩٥٣ ، السنة الثانية .
٧٧ — الرسالة : السنة الحادية عشرة ، ص ٤٦٠ .
٧٨ — الهلال : عدد يناير ١٩٥٥م ، مقال للأستاذ محمد شفيق غربال عن الجامعة الإسلامية واتحاد العرب .

خامساً — مراجع أجنبية :

79. Adams, Charles : Islam and Modernism in Egypt, Oxford University, 1933.

80. Al Mujahid, Sharif : «Sayyid Jamal al-Din al-Afghani : His Role in the Nineteenth Century Muslim Awakening », Unpublished M.A. Thesis, Mc Gill University, Montreal, 1954.

81. Amin, Osman : Muhammad Abduh : Essai sur ses Idées Philosophiques et Réligieuses, Le Caire, 1944.

82. Antonius, George : The Arab Awakening, London, 1938.

83. Arnold, Thomas : The Caliphate.

84. Berkes, Niyazi : The Development of Secularism in Turkey, Montreal, 1964.

85. Berketullah, Hohamed : Le Khalifat, Pasis, 1924.

86. Blunt, Wilfred : Secret History of the British Occupation of Egypt, London, 1907.

87. Browne, E.G. : The Persian Revolution, Cambridge, 1910.

88. Cromer : Modern Egypt, Vols. I, II, London, 1908.

89. Coan Mac : Egypt As it is.

90. Feuvrier : Trois Ans à la Cour de Perse, Paris.

91. Groseclose, Elgin : Introduction to Iran, Oxford, 1947.

92. Gibb, Hamilton : Whither Islam , 1932.

93. ———— : Modern Trends in Islam, Chicago, 1946.

94. Haim, Sylvia : Arab Nationalism, Berkeley and Los Angeles, 1962.

95. Hanotaux : Histoire de la Nation Egyptienne, vol. VI.

96. Hourani, Albert : Arabic Thought in the Liberal Age : 1798-1939, London, 1962.

97. Keddie, Nikki : «Sayyid Jamal ad-Din Al-Afghani», A political biography, Los Angeles, 1972.

98. Kedourie, Elie : Afghani and Abduh : An Essay on Religious Unbelief and Political Activism in Modern Islam, London, 1966.

99. Kudsi — Zadeh, Albert : «The Legacy of Sayyid Jamal ad-Din al-Afghani in Egypt», unpublished ph. D. dissertation, Indiana University, 1968.

100. Lenczowski, George : Russia and the West in Iran.
101. Longrigg : Four Centuries of Modern Iraq.
102. Lyautey, Maréchal : L' Islam et la Politique Contemporaine, Paris, 1927.
103. Milner, Viscount : England in Egypt.
104. Palgrave, William : Essays on Eastern Questions, London, 1872.
105. Sabry, Mohamed : L' Empire Egyptien sous Ismaîl, Paris, 1933.
106. Safwat, Mohamed : Tounis and the Great Powers.
107. Stoddard, Lothrop : Le Nouveau Monde de L' Islam, Traduit de L' Anglais par Abel Doysie, Paris, 1933.
108. Sutton, Elwell : Modern Iran, London, 1944.
109. Sykes : Persia, Oxford, 1922.
110. ———— A History of Persia, second edition, 1921.
111. Wilson, S.G : Modern Movements among Moslems.
112. Zwemer : Arabia : The Cradle of Islam, Edingourg, 1900.
113. ———— : The Mohammdean World of to - day.

محتويات الكتاب

الصفحة

الصفحة

الفصل الثانى : جمال الدين الأفغانى
وحركة الجامعة الإسلامية
(٦٣ — ١١٢)

الصفحة

الفصل الثالث : أثر جمال الدين فى إيران

(١١٣ — ١٥١)

الفصل الرابع : أثر جمال الدين الأفغانى فى مصر

(١٥٣ — ١٩٤)

الفصل الخامس : تلامذة جمال الدين الأفغانى ومؤلفاته

(١٩٥ — ٢٥٥)

الصفحة

الصفحة

خاتمة : جمال الدين الأفغانى فى نظر التاريخ

(٢٥٧ — ٢٦٤)

ملاحق : مجموعة مقالات لم تنشر

(٢٦٥ — ٢٨٨)

للمؤلف

أولا — الكتب

١ — أصول البحث الاجتماعى ، مكتبة وهبة، الطبعة الثامنة ، ١٩٨٢ .
٢ — التنمية الاجتماعية ، مكتبة وهبة ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨٢ .
٣ — علم الاجتماع الصناعى ، مكتبة غريب ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٢ .
٤ — علم الاجتماع :الكتاب الأول،مكتبةغريب الطبعة الثانية ،١٩٨٢ .
٥ — مكانة المرأة فى التشريع الإسلامى — منشورات مركز دراسات المرأة والتنمية بكلية البنات الإسلامية ، العدد الأول ، ١٩٧٦ .
٦ — أصول علم الاجتماع (بالاشتراك) ، مطبعة لجنة البيان العربى، ١٩٦٢
٧ — قرارات فى الخدمةالاجتماعية (بالاشتراك)دار القاهرة الحديثة، ١٩٦٤.
٨ — دراسات فى التنمية الريفية المتكاملة (بالاشتراك) مكتبة الخانجى بمصر ، ١٩٧٧ .
٩ — الصهيونية : دراسةتاريخية وفكرية (بالاشتراك) ، مطبعة الجبلاوى ، ١٩٧٥ .
١٠— ثورة ٢٣ يوليو والتطوير الأيدلوجى (بالاشتراك) ،مطبعةالجبلاوى، ١٩٧٥ .
١١— محاضرات فى تاريخ الفكر الاجتماعى الاشتراكى ، ١٩٦٧ .

ثانياً — البحوث والدراسات

١ — المشكلات النفسية والاجتماعية للطلبة الوافدين ، صحيفة التربية ، السنة الرابعة عشرة ، العدد الرابع ، مايو ١٩٦٢ .
٢ — البحوث الميدانية وأهميتها فى التخطيط للتنمية الريفية فى العالم العربى : بحث مقدم إلى المنظمة الإفريقية الآسيوية للإنعاش الريفى ، الحلقة الدراسية العربية المنعقدة بالإسكندرية ، ، مايو ١٩٧٠ ، وقد نشر فى المجلة الاجتماعية القومية ، العددالثالث ، المجلد السابع ،سبتمبر ١٩٧٠ .
٣ — شباب الجامعة والقيم الدينية : استفتاء أجرى فى جامعة الكويت ، مجلة العربى ، العدد ١٩١ ، أكتوبر ١٩٧٤ .

٤ — تشارلز رايت ميلز وفلسفة البحث فى علم الاجتماع ، مجلة عالم الفكر الكويتية ، المجلد السادس ، العدد الثانى ، ١٩٧٥ .

٥ — المدخل التكاملى فى دراسة المجتمع العربى ، بحث مقدم إلى حلقة العمل لوضع الخطوط العريضة لمؤلف فى المجتمع العربى المنعقدة بجامعة الموصل بالعراق فى الفترة ما بين ١ — ٤ نوفمبر ١٩٧٥ .

٦ — دور الجامعات فى التنمية ، مجلة اتحاد الجامعات العربية ، العدد الثامن ، سبتمبر ١٩٧٥ .

٧ — ملامح النمو الحضرى فى العالم العربى ، مجلة تنمية المجتمع ، العدد الخامس ، سبتمبر — أكتوبر ١٩٧٧ .

٨ — علم الاجتماع الإسلامى ، بحث ألقى فى ندوة الدراسات الإسلامية المنعقدة بجامعة أم درمان الإسلامية فى الفترة ما بين ١١ — ١٨ فبراير ١٩٧٨ .

٩ — الإسلام والعمل اليدوى ، بحث ألقى فى مؤتمر اتجاهات المجتمع المصرى نحو العمل اليدوى فى الفترة ما بين ٩ — ١٦ ديسمبر ١٩٧٨ ، من منشورات مركز دراسات المرأة والتنمية (بحوث ودراسات ، العدد رقم ٣) .

١٠ — بناء الإنسان المصرى فى مرحلة السلام ، بحث ألقى فى مؤتمر « التنمية الاجتماعية فى مرحلة السلام » فى الفترة ما بين ٢١ — ٢٣ مايو ١٩٧٩ ، من منشورات مركز دراسات المرأة والتنمية (بحوث ودراسات ، العدد رقم ٥) .

١١ — ديناميات السكان وعلاقتها بتخطيط السكان فى البلاد العربية ، مجلة التربية ، اللجنة الوطنية للتربية والثقافة والعلوم ، السنة التاسعة ، العدد السابع والثلاثون ، يناير ١٩٨٠ .

ثالثاً — كتب تحت الطبع

١ — دراسات فى الاجتماع الإسلامى ، مكتبة وهبة .

٢ — الشخصية العربية ، مكتبة وهبة .

رقم الأيداع ٢١٥٦ / ٨٢

مطبعة التقدم
٤٤ شارع الموارد بالمنيرة - القاهرة
تليفون ٨٤١٤٢١